دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	فقه الواقع في ضوء القرآن الكريم : أصول وتطبيقات
المؤلف الرئيسي:	بركة، حسن المبروك
مؤلفين آخرين:	عباس، عباس عوض اللهِ(معد)
التاريخ الميلادي:	2009
موقع:	أم درمان
الصفحات:	1 - 545
رقم MD:	563100
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
الدرجة العلمية:	رسالة ماجستير
الجامعة:	جامعة أم درمان الاسلامية
الكلية:	كلية أصول الدين
الدولة:	السودان
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	فقه الواقع، آيات الأحكام، السور والآيات
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/563100

© 2016 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الفصل الثالث

أنواع فقه الواقع في القرآن الكريم

وفيه ستة مباحث :

المبحث الأول : فقه الواقع الدعوي .

المبحث الثاني : فقه الواقع الاقتصادي .

المبحث الثالث : فقه الواقع السياسي .

المبحث الرابع : فقه الواقع الاجتماعي .

المبحث الخامس : فقه الواقع العلمي .

المبحث السادس : فقه واقع الأعداء .

توطئة

سوف نعرض في هذا الفصل بشيء من الإسهاب – والمقام يقتضي ذلك – ، لأنواع فقه الواقع وأقسامه ، وهي تعود في محتواها إلى الأنظمة الإسلامية: السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ؛ لأن الإسلام كما يقول سيد قطب – رحمه الله – (منهج حياة. حياة بشرية واقعية بكل مقوماتها، منهج يشمل التصور الإعتقادي الذي يفسر طبيعة " الوجود "، ويحدد مكان " الإنسان " في هذا الوجود ، كما يحدد غاية وجوده الإنساني.. ويشمل النظم والتنظيمات الواقعية التي تنبثق من ذلك التصور الإعتقادي وتستند إليه، وتجعل له صورة واقعية متمثلة في حياة البشر، كالنظام الأخلاقي والينبوع الذي ينبثق منه، والأسس التي يقوم عليها،

والسلطة التي يستمد منه ، والنظام السياسي وشكله وخصائصه ، والنظام الاجتماعي وأسسه ومقوماته ، والنظام الاقتصادي وفلسفته وتشكيلاته. والنظام الدولي وعلاقاته وارتباطاته) [١] .

والتعريفات لكل قسم تعد مدخل أساسي في الفهم ، كما أن القواعد التي سنقدمها بين يدي كل نوع ، تشكل الضابط والمرجعية الشرعية ، وحتى لا نقع في انفصال الاقتصاد عن الأخلاق ، والسياسة عن التربية .

والاستشهاد بقصص الأنبياء ضروري في التطبيقات ، وهو مصدر أساسي في فهم الواقع ، (فقصص الأنبياء في القرآن يمثل موكب الإيمان في طريقه الممتد الواصل الطويل ، ويعرض قصة الدعوة إلى الله واستجابة البشرية لها جيلاً بعد جيل ، كما يعرض طبيعة الإيمان في نفوس هذه النخبة المختارة من البشر ، وطبيعة تصورهم للعلاقة بينهم وبين ربهم الذي خصهم بهذا الفضل العظيم) [٢] ، وتخصيص بعض القصص في التطبيق لأنواع فقه الواقع يأتي من باب كونها شاملة وذات مساحة أكبر في القرآن ، وهذا لا يعني إغفال القصص الأخرى ، فقصص سيدنا يوسف وعيسى وأيوب وغيرهم ، هي أيضاً مورد من موارد فقه الواقع .

وقد يرى بعض المهتمين أن هناك أنواعاً أخرى لم نتطرق إليها ، مثل : فقه الواقع التربوي ، والإعلامي ، والتعليمي ، والقانوني ، والنقابي ... الخ ، فهذه الأنواع وغيرها تندرج تحت الأنواع الست التي سنكتفي بذكرها ، مراعاة للحصر وعدم التطويل .

---

١ . المستقبل لهذا الدين ، سيد قطب ، ص ٥ .

٢ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ١ / ٥٥ .

المبحث الأول
فقه الواقع الدعوي

فقه الواقع الدعوي : هو فهم واقع الدعوة والدعاة ، وممارسة فنون العمل الإسلامي ، وينضوي تحت هذا الإطار دراسة وسائل الدعوة وأساليبها ، ومراحلها ومشكلاتها وكيفياتها ، وما إلى ذلك ، مع الانخراط الفعلي في ميدان الدعوة ، والالتحام مع قوافل الدعاة .

أما فقه الدعوة فهو : التعمق والتفقه في فهم تاريخ الدعوة وأسبابها وأركانها وأهدافها وأساليبها ووسائلها ونتائجها ، تعمقاً يمكن الدعاة إلى الله من عرضها أحسن عرض ، وأكثر ملائمة لمن توجه إليهم من مختلف بيئاتهم ، ومتعدد أجناسهم ، ومتباين ألسنتهم ولغاتهم ، وذلك واجب كل مسلم على حسب الجهد والاستطاعة [١] .

وللدعوة تعريفات كثيرة ، نختار منها ما يلي :

١ . هي عملية إبراز لوجود الدين ، وتنفيذه في الواقع الحي الملموس [٢] .

٢ . (هي تبليغ الإسلام للناس ، وتعليمه إياهم ، وتطبيقه في واقع الحياة ، وهي بذلك تشمل مراحل الدعوة الثلاث : التبليغية ، والتكوينية ، والتنفيذية .

قال سبحانه وتعالى : ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** ﴾ [٣] .

فقد شمل قوله سبحانه : (يتلو عليهم آياته) البيان والتبليغ ، وهو العنصر الأول من عناصر الدعوة ، كما شمل قوله : (ويزكيهم ويعلمهم الكتاب) التربية والتعليم أو ما يعبر عنه بالتكوين ، كما شمل قوله : (ويعلمهم الكتاب والحكمة) التطبيق والتنفيذ ؛ لأن الكتاب وهو القرآن ، والحكمة هنا السنة كما ذهب إلى ذلك جمهور العلماء ، فالسنة هي التطبيق الفعلي والعملي لنصوص القرآن على أرض الواقع) [٤] .

٣ . (هي تبليغ الناس جميعاً رسالة الإسلام ، وهدايتهم إليه قولاً وعملاً في كل زمان ومكان بأساليب ووسائل خاصة تتناسب مع المدعوين على مختلف أصنافهم وعصورهم .

فالتعريف يشمل على بيان :

. عالمية الإسلام ووجوب تبليغه .

. استعمال الأساليب الدعوية المناسبة لكل صنف من أصناف المدعوين .

. استعمال الوسائل الحديثة في الدعوة البيانية الكاشفة .

. مراعاة الزمان والمكان والأشخاص الذين تنقل إليهم الدعوة ، أي مراعاة الواقع المعيش) [٥] .

---

١. انظر فقه الدعوة إلى الله ، د / علي عبد الحليم محمود ، ١ / ١٨ .

٢ . الدعوة الإسلامية مفهومها وحاجة المجتمعات إليها ، محمد خير يوسف ، ص ١٤ نقلاً عن الدعوة الإسلامية في عهدها المكي ، ص ٢١ ، الكويت ، ١٩٨١ .

٣ . سورة الجمعة ، آية ٢ .

٤ . انظر المدخل إلى علم الدعوة ، د / محمد أبو الفتح البيانوني ، ص ١٦ وما بعدها .

٥ . انظر أساليب الدعوة والإرشاد ، د / محمد أمين حسن ، ص ٩ .

أركـان الدعوة :

وهي الأسس التي تقوم عليها الدعوة ، وتنحصر في ثلاثة أركان :

الداعي : وهو المبلغ للإسلام ، والمعلم له ، والساعي إلى تطبيقه ، فهو القائم بالدعوة ، قال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً** ﴾ [١] ، وفي فضله وبيان منزلته يقول الله ﷻ : ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [٢] .

ومن صفات الداعية إلى الله : الإيمان العميق ، والاتصال الوثيق بالله عز وجل ، والعلم والبصيرة الدعوية ، والعمل بالعلم والاستقامة في السلوك ، والوعي الكامل بواقع الدعوة ومتطلباتها في عصره والوعي بواقع المدعوين من حوله ووعي بواقع الداعية نفسه وما يحيط به من ظروف وأحوال ، والحكمة في الأسلوب ، والتخلق بالخلق الحسن ، وإحسان الظن بالناس وستر عيوبهم ، ومخالطة الناس ومجالستهم ، وإنزال الناس منازلهم ، وأن يتعاون مع الدعاة ويشاورهم ويتناصح معهم ، والأمل

والثقة بنصر الله ، والتيسير والتبشير في الدعوة ، ومخاطبة الناس على قدر عقولهم ، والتخطيط للدعوة ، والعزم والثبات ، والصبر على المحن والابتلاءات ، وما إلى ذلك من صفات لا تخفى على المهتمين .

المدعو : وهو من توجه إليه الدعوة ، وهو الإنسان مطلقاً قريبا أو بعيدا ، مسلما أو كافرا ، ذكرا أو أنثى ، قال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (٣) .

موضوع الدعوة : وهو الإسلام الذي يدعى إليه ، من حيث مبادئه ، وخصائصه ، وأنظمته ، وهو يشمل كل ما يحتاج إليه الإنسان في دنياه وأخراه من عقيدة وشريعة وأخلاق ، قال تعالى : ﴿**قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ (٤) .

أنواع الدعوة :

١ . الدعوة الفردية : وهي توجيه الدعوة إلى الله من فرد واحد داعٍ إلى فرد مدعو أو إلى فئة قليلة من الناس ، بقصد نقل المدعو إلى حال أحسن في الالتزام بالإسلام ، أو نقل غير المسلم إلى حظيرة الإسلام ، ودليلها قوله تعالى : ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ (٥) ، وما فعله سيدنا أبي بكر الصديق في دعوة الثلة الأولى في فجر الإسلام (٦) .

٢ . الدعوة الجماعية : هي توجيه الدعوة إلى الله من جماعة منظمة أو من فرد واحد داعٍ إلى جمع من الناس ليست لهم خصوصية ولا خضعوا لاختيار وإنما من المسلمين الذين جمعهم مكان ليستمعوا سواء أكان هذا المكان بيتاً من بيوت الله أو منتدى أو قاعة محاضرات أو غيرها ، ودليلها قوله تعالى : ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ (٧) .

---

١ . سورة الأحزاب ، الآيتان ٤٥ ، ٤٦ . ٢ . انظر المدخل إلى علم الدعوة ، البيانوني ، ص ١٥٢ ، والآية رقم ٣٣ من سورة فصلت .

٣ . انظر المصدر السابق ، ص ١٦٩ ، والآية رقم ٢١ من سورة البقرة .

٤ . انظر أصول الدعوة ، د / عبد الكريم ص ٧ ، والدعوة الإسلامية ، محمد خير يوسف ، ص ، والآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة المائدة .

٥ . سورة يوسف ، آية ١٠٨ . ٦ . انظر أساليب الدعوة والإرشاد ، محمد أمين ص ٤٥ ، وفقه الدعوة الفردية ، علي عبد الحليم ، ص ١٩ .

٧ . المصدر السابق ، ص ٤٧ ، والآية رقم ٧١ من سورة التوبة .

أهداف الدعوة إلى الله (١) :

١ . إعانة الناس على عبادة الله سبحانه تعالى ، وهذا الدور هو عمل الرسل الذي انتقل بالميراث إلى الدعاة الذين هم ورثة الأنبياء في التبليغ .

٢ . إعانة الناس على التعارف فيما بينهم على قاعدة التعاون والتناصر والتآخي والمودة في الله ، والتآزر في التغلب على مشكلات الحياة ومعوقاتها ، دون أي فوارق عنصرية ، أو مراكز اجتماعية ، ولكن على تقوى الله وخشيته .

٣ . تغيير الواقع السيئ الذي يعيشه المسلمون ، فيباعد بينهم وبين الإسلام يوماً بعد يوم ، إلى واقع إسلامي ، يقربهم من الله ، ومن الحق ، ومن مصالح الدنيا والآخرة .

٤ . تربية المسلم تربية إسلامية صحيحة ، تتناول كل جوانب شخصيته الروحية ، والعقلية ، والبدنية ، والسلوكية والاجتماعية ، وهي تربية شاملة مستمرة تبدأ بإعداد البيت وتربية أفراده جميعاً وفق منهج الإسلام ، وتنتهي بإعداد المجتمع المسلم الذي تسوده قيم الإسلام ومبادئه وأخلاقه ، والتي تسيطر على كافة مؤسساته آداب الإسلام ونظمه .

٥ . العمل على إيجاد الحكومة الإسلامية ، التي تطبق شرع الله على عباده ، الحكومة بصفاتها الإسلامية التي أبرزها : إحقاق الحق ، وتطبيق العدل ، وممارسة الإحسان ، ورعاية المصالح العامة ، ودرء المفاسد العامة ، والأمانة ، وتنمية الثروة القومية ، ونشر التعليم الإسلامي .

٦ . العمل على تحرير الأوطان الإسلامية كلها من أي عدوان واقع عليها ، أو احتوائها وتحريرها من التبعية لأي من التيارات السائدة في العالم غير الإسلامي ، واتخاذ كافة الوسائل المشروعة في سبيل تحقيق هذا الهدف الكبير .

٧ . العمل على إيجاد الوحدة بين بلدان العالم الإسلامي ، وحدة الفكر والثقافة ، وحدة الأهداف والغايات ، وحدة الاقتصاد والسوق ، ثم الوحدة السياسية .

٨ . العمل على نشر دعوة الله في العالم كله ، شرقه وغربه ؛ لأن الإسلام دين البشرية للناس أجمعين ، ورسوله خاتم النبيين .

أساليب الدعوة [٢] :

تعريفها : هي الطرق التي يسلكها الداعي في دعوته أو كيفيات تطبيق مناهج الدعوة .

فالمناهج الدعوية : هي النظم والخطط الدعوية ، والأساليب الدعوية : هي كيفيات وطرق تطبيق تلك النظم والخطط الدعوية ، ولنضرب مثالاً على ذلك :

إذا كان الاقتصاد في الإسلام منهجاً ونظاماً ، فإن من أساليبه : جميع أشكال التعامل المالي من بيع وصرف ، وإجارة ورهن وشركة ، وما إلى ذلك من أشكال التطبيق .

---

١ . انظر فقه الدعوة إلى الله ، د / علي عبد الحليم ، ١ / ٢٠٦ – ٢١٠ .

٢ . انظر المدخل إلى علم الدعوة ، البيانوني ، ص ٤٧ .

أمهات الأساليب الدعوية التي ترجع إليها غيرها[١] :

أسلوب الحكمة ، وهي وضع الأشياء في مواضعها ، أو قول ما ينبغي في المحل الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي ، قال تعالى : ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ [٢] .

والمتتبع للسيرة والسنة النبوية يجد مظاهر الحكمة تتجلى من خلال سلوكه – ﷺ – في واقع حياته .

أسلوب الموعظة الحسنة ، وهي ترادف النصيحة في الاصطلاح الدعوي ، قال تعالى : ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (٣) ، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) .

أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن .

الجدل مقابلة الحجة بالحجة ، والمجادلة : المناظرة والمخاصمة : ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (٥) ، ويستعمل هذا الأسلوب في موضعه ، فلا يستعمل إلا مع المجادل الذي لا يستجيب بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويقدم الأسلوب الأحسن على الحسن .

أسلوب القدوة الحسنة ، والقدوة هي الأسوة ،قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (٦) ، وقال : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ (٧) . وأصول السيرة الحسنة ترجع إلى أصلين كبيرين : حسن الخلق ، وموافقة القول للعمل ، فإذا تحقق هذان الأصلان حسنت سيرة الداعي وكانت سيرته الطيبة دعوة صامتة إلى الإسلام ، ولهذا قال تعالى : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (٨) ، وقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ (٩) ، ويجمعها قوله تعالى : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ (١٠) .

وسائل الدعوة (١١) :

تعريفها : ما يتوصل به الداعية إلى تطبيق مناهج الدعوة من أمور معنوية أو مادية .

أ . الوسائل المعنوية : وهي جميع ما يعين الداعية على دعوته من أمور قلبية أو فكرية ، وذلك كالصفات الحميدة ، والأخلاق الكريمة ، والتفكير والتخطيط .

ب . الوسائل المادية : وهي جميع ما يعين الداعية من أمور محسوسة أو ملموسة في الواقع ، وذلك كالقول ، والحركة ، والأدوات ، والأعمال ، ... الخ .

وهي تصنف إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

١ . الوسائل النظرية : وهي الوسائل الموجودة في فطرة الإنسان وجبلته ، وتنمو بنموه كالقول والحركة .

---

١ . انظر المصدر السابق ، ص ٢٤٢ .
٢ . سورة البقرة ، آية ٢٦٩ .
٣ . سورة البقرة ، آية ٢٣٢ .
٤ . سورة يونس ، آية ٥٧ .
٥ . سورة النحل ، آية ١٢٥ .
٦ . سورة الأحزاب ، آية ٢١ .
٧ . سورة الأنعام ، آية ٩٠ .
٨ . سورة الأعراف ، آية ١٩٩ .
٩ . سورة الصف ، آية ٢ .
١٠ . انظر أصول الدعوة ، عبد الكريم زيدان ص ٤٨٧ ، والآية ١٢٥ من سورة النحل .
١١ . انظر المدخل إلى علم الدعوة ، البيانوني ، ص ٢٨٢ وما بعدها .

٢ . الوسائل الفنية العلمية : وهي وسائل يكتسبها الإنسان بالتجربة والاحتكاك بالواقع الذي يعيشه ، ومنها ما هو مقروء : كالصحافة والرسالة والكتب ، ومنها ما هو مرئي مسموع : كالإذاعة ، والفضائيات ، والانترنت ، والسينما والتمثيل .

٣ . الوسائل التطبيقية العملية .

وهي ما يقابل الوسائل النظرية من : إعمار المساجد ، وإنشاء المؤسسات الدعوية ، وإقامة النوادي والمخيمات ، وعقد الندوات والمنتديات ، والجهاد في سبيل الله ، وما إلى ذلك .

مراحل الدعوة :

وهي أربع مراحل : التعريف أو التبليغ ، والتكوين أو الإعداد والتربية ، والتنفيذ أو الجهاد ، ثم التمكين وما بعده .

١ . مرحلة التعريف : وهي المرحلة التي يدرك فيها المدعو إلى الله ، بتفكر وتدبر للآثار المحيطة به ، ويدرك حقيقة الإسلام وكنهه ، وأهدافه ، ووسائله ، وأركانه ، وواجباته ، وشروطه وآدابه [١] .

وطبيعة هذه المرحلة هي : عمومية الدعوة ، وعمومية المدعوين ، وعمومية العمل ، وضرورة التخطيط والتنظيم ، وحسن الإدارة [٢] .

٢ . مرحلة التكوين : وهي أهم مراحل الدعوة إلى الله ؛ لأنها التأسيس ، فهي مرحلة إعداد مدروس وتكوين هادف ، وتربية موجهة لعدد من الأفراد الذين اجتازوا مرحلة التعريف ، وفق إطاره الزمني ، ثم عبروا إلى مرحلة التكوين ؛ للصقل والإعداد [٣] .

وطبيعة هذه المرحلة هي : خصوصية الدعوة ، وخصوصية الدعاة ، وخصوصية المدعوين ، وخصوصية التنظيم والإدارة [٤] .

وهدفها الرئيسي هو إنضاج شخصية المسلم المنضم إليها في كل الجوانب : الروحية ، والعقلية ، والبدنية ، والاجتماعية ، والخلقية ، والسلوكية .

٣ . مرحلة التنفيذ : هي مرحلة المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وأعدوا للعمل الإسلامي ما يحتاج إليه من حكمة وقوة ، وإنها مرحلة المجاهدين في سبيل الله ، لتكون كلمة الله هي العليا [٥] .

فهي حصيلة لمرحلة التكوين والإعداد ، ونتيجة لحسن السير فيها ؛ لأن الأفراد الذين أعدوا في مرحلة التكوين وفق برنامج معين ووعاء زمني معين يدخل من اصطفوا منهم ، هذه المرحلة للممارسة العملية والتنفيذ [٦] .

وطبيعة هذه المرحلة في أنها : مرحلة الجهاد المتواصل ، والعمل الدءوب ، والصبر على الابتلاء ، والإصرار على مواصلة السعي في الطريق ، حتى تتحقق إحدى الحسنين ، النصر والتمكين أو الشهادة في سبيل رب العالمين [٧] .

---

١ . انظر فقه الدعوة إلى الله ، د / علي عبد الحليم ١ / ٢٥٩ . ٢ . انظر المصدر السابق ، ١ / ٢٥٩ .
٣ . انظر المصدر السابق ، ١ / ٣٥١ وما بعدها .
٤ . انظر المصدر السابق ، ١ / ٣٦١ وما بعدها .
٥ . المصدر السابق ، ٢ / ٥٢٤ .
٦ . المصدر السابق ، ٢ / ٥٢٣ .
٧ . انظر المصدر السابق ، ٢ / ٥٣١ .

مرحلة التمكين [١] : تعني أن الله – تبارك وتعالى – يمكن لدينه في الأرض عن طريق المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، وأن هذا التمكين يسبقه الاستخلاف والملك والسلطان ، ويعقبه أمن بعد خوف : ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً**﴾ [٢] .

فشروط الحصول على التمكين : الإيمان بالله ، والعمل الصالح . وشروط استمرار التمكين هي : إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وطاعة الله ورسوله .

وتعد مرحلة التمكين ثمرة العمل الإسلامي المنظم الهادف ، وهي المحصلة الناتجة عن الجهود المبذولة في المراحل السابقة لها بعد توفيق الله حينما يأذن لدينه أن يمكن في الأرض ، ولشريعته أن تحكم بين الناس .

عقبات الدعوة ومعوقاتها :

وهي مجموعة الأخطاء والمعوقات التي يقع فيها الدعاة ، أو ما يواجهونها في طريق دعوتهم داخلية كانت أو خارجية ، وتشكل عقبة أو مشكلة في سبيلهم ، سواء أكانت هذه الأخطاء والمعوقات في جانب المفاهيم الدعوية ، أم في جانب المناهج والأساليب والوسائل [٣] .

بعض المشكلات الداخلية [٤] .

١ . تحول مفهوم الدعوة من دعوة ربانية إلى مطامع وطموحات شخصية .

٢ . قصر الدعوة على طبقة من العلماء والمختصين فيها .

٣ . القصور في المفهوم الشمولي للدعوة .

٤ . غفلة كثير من الدعاة عن حقيقة علم الدعوة .

٥ . غفلة بعض الدعاة من الإفادة من السنن الربانية الثابتة في حياة الدعوات ، أو ضعف تعاملهم معها .

٦ . تكرار حدوث الأخطاء ، وقلة الاستفادة من التجارب السابقة .

٧ . قلة الوعي بواقع الدعوة والظروف المحيطة بها .

٨ . شيوع بعض الأمراض الاجتماعية الخطيرة في صفوف الدعاة ، كالهوى والكبر ، والشح وحب الزعامة ...

٩ . شيوع ظاهرة انفصال العلم عن العمل ، والفكرة عن التطبيق ، والفقه عن الفكر .

١٠ . إهمال كثير من الدعاة ترتيب الأولويات في عملهم ، وضعفهم في الموازنة بين الواجبات والإمكانات ، وبين المفاسد والمصالح .

١١ . ضعف العلاقات الأخوية بين العاملين في حقل الدعوة الإسلامية .

---

١ . انظر فقه الدعوة إلى الله ، د / علي عبد الحليم ، ٢ / ٧١٣ ، ٧٢٣ .

٢ . سورة النور ، آية ٥٥ .

٣ . المدخل لعلم الدعوة ، البيانوني ، ص ٣٤٦ .

٤ . انظر المصدر السابق ، ص ٣٥٢ وما بعدها .

١٢ . انتشار النظرة الخاطئة إلى التعددية العلمية والعملية في العمل الإسلامي .

١٣ . تفرق كلمة أهل الحل والعقد في الأمة ، وتوزع المسلمين بين قيادات طبيعية متمثلة في العلماء والفقهاء ، وبين قيادات تنظيمية متمثلة بالزعماء والرؤساء .

١٤ . ضعف اعتماد المسلمين على ربهم عز وجل ، وتوكلهم عليه ، واعتماد كثير من الدعاة على الأسباب المادية والقوى البشرية .

١٥ . تواكل كثير من المسلمين وإهمالهم الأخذ بالأسباب المادية وإحجامهم عن دراسة العلوم التجريبية .

١٦ . إهمال المشاريع الاقتصادية الاستثمارية المغطية لاحتياجات الدعوة الإسلامية ، ومتطلباتها المادية الكثيرة .

المشكلات الخارجية [١] .

١ . مكر الأعداء المستمر بالمسلمين ، والتخطيط الدائم للقضاء على دعوتهم ، وهي سنة كونية ومعلم من معالم الصراع بين الحق والباطل ، قال تعالى : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [٢] ، ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَال﴾ [3] ، ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً﴾ [4] .

٢ . تعاون الأعداء فيما بينهم على تطبيق المكر ، وتنفيذ تلك المخططات ، وتداعيهم على المسلمين : ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [٥] .

---

١ . المدخل إلى علم الدعوة ، البيانوني ، ص ٣٦٧ وما بعدها .

٢ . سورة الأنفال ، آية ٣٠ .

٣ . سورة إبراهيم ، آية ٤٦ .

٤ . سورة الطارق ، الآيتان ١٥ ، ١٦ .

٥ . سورة النمل ، آية ٤٩ .

١ . ضرورة امتلاك مواصفات الداعية ، من الرشد في العقل ، والنقاء في القلب ، والحكمة في القول والعمل ، وكلها توفرت في شخص إبراهيم عليه السلام ، قال الله جل جلاله : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (١) .

أي أنه آتاه رشده من قبل أي من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه كما قال تعالى : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ (٢) ، وقوله (وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ) أي وكان أهلاً لذلك (٣) .

وقال ابن كثير في تفسير قوله : ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (٤) : قام بجميع الأوامر وترك جميع النواهي ، وبلغ الرسالة على التمام والكمال ، فاستحق بهذا أن يكون للناس إماماً يقتدي به في جميع أحواله وأفعاله وأقواله ، ويشهد لهذا قوله تعالى : ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ (٥) .

٢ . كان عليه السلام ، ملماً بالبيئة الوثنية ، وما فيها من انحرافات عقائدية : ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٦) ، ويضاف إلى الوعي بالبيئة الدعوية معرفةً بحال الأمم السابقة : ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (٧) .

٣ . البحث عن الحقيقة من خلال الواقع ، للوصول إلى كبرى اليقينيات الكونية ، قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٨) .

وفي نهاية مطاف التفكر ، (يجد إبراهيم إلهه . لكنه لا يجده في كوكب يلمع ، ولا في قمر يطلع ، ولا في شمس تسطع .. ولا يجده فيما تبصر العين ، ولا فيما يحسه الحس .. إنه يجده في قلبه وفطرته ، وفي عقله ووعيه ، وفي الوجود كله من حوله .. إنه يجده خالقاً لكل ما تراه العين ، ويحسه الحس ، وتدركه العقول) (٩) .

الموقف السابق في إثبات ربوبية الله كإلهه خالق لهذا الكون ، ولإبراهيم موقف آخر مع ربه في تعميق الإيمان به ليصل إلى حق اليقين ، ويظهر ذلك في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠) .

---

١ . سورة الأنبياء ، آية ٥١ .
٢ . سورة الأنعام ، آية ٨٣ .
٣ . تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ٤ / ٣٦٩ .
٤ . سورة النجم ، آية ٣٧ .
٥ . انظر تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ٦ / ٣٧ ، والآية رقم ١٢٤ من سورة البقرة .
٦ . سورة العنكبوت ، آية ١٧ .
٧ . سورة العنكبوت ، آية ١٨ .
٨ . سورة الأنعام ، الآيات ٧٦ – ٧٩ .
٩ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٢ / ١١٤١ .
١٠ . سورة البقرة ، آية ٢٦٠ .

فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : نحن أحق بالشك من إبراهيم ، إذ قال : (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى) ؟ قال : (أَوَلَمْ تُؤْمِنْ) ؟ قال : (بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)...[١] ، وحكي السيوطي عن ابن عباس في قوله تعالى : (وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) قال : ما في القرآن آية أرجى عندي منها [٢] .

٤ . التعريف بالدعوة ، ويظهر ذلك في قوله تعالى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [٣] .

٥ . الدعوة الفردية ، وتتمثل في بواكير الدعوة من القنوت فرداً لله ، ثم التوجه إلى بناء أمة التوحيد : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [٤] .

٦ . الدعوة العامة في اجتماع الحج العام : ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [٥] ، ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [٦] .

٧ . الأساليب الدعوية ، ويمكن ملاحظتها في الآتي :

أ . الحكمة والحنكة في الدعوة ، وهو يخاطب قومه: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [٧] .

ب . الموعظة الحسنة مع أبيه ، قال ﷻ : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً﴾ [٨] .

---

١ . أخرجه ابن حبان في صحيحه ، كتاب التاريخ ، باب بدء الخلق ، رقم ٦٢٠٨ ، ١٤ / ٨٨ ، وقال شعيب الأرناءوط : إسناده صحيح . وهو في الصحيحين بنفس الإسناد .

٢ . انظر الدر المنثور ، السيوطي ، ٣ / ٢٢٢ .

٣ . سورة الشعراء ، الآيات ٦٩ – ٧٧ .

٤ . سورة النحل ، الآيات ١٢٠ – ١٢٢ .

٥ . سورة الحج ، الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .

٦ . سورة البقرة ، آية ١٢٥ .

٧ . سورة الأنبياء ، الآيات ٥٢ – ٦٧ .

٨ . سورة مريم ، الآيات ٤١ – ٤٨ .

ج . المجادلة بالتي هي أحسن ، وذلك بإقامة حجج يستمدها من الواقع المحسوس ، والكون المنظور ، قال تعالى : ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (١) ، ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ﴾ (٢) ، ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ (٣) .

د . استعمال أسلوب المناظرة ، ويتضح في مواجهة الحاكم المتأله بكل قوة وشجاعة : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤) .

يقول صاحب الظلال في تجلية المشهد : وعدل عن طريقة العرض المجرد للسنة الكونية والصفة الإلهية في قوله : (ربي الذي يحي ويميت) .. إلى طريقة التحدي ، وطلب تغيير سنة الله لمن ينكر ويتعنت ويجادل في الله ؛ ليريه أن الرب ليس حاكم قوم في ركن من الأرض ، إنما هو مصرف هذا الكون كله . ومن ربوبيته هذه للكون يتعين أن يكون هو رب الناس المشرع لهم : (قال إبراهيم : فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) ..

وهي حقيقة كونية مكرورة كذلك ؛ تطالع الأنظار والمدارك كل يوم ؛ ولا تتخلف مرة ولا تتأخر . وهي شاهد يخاطب الفطرة – حتى ولو لم يعرف الإنسان شيئا عن تركيب هذا الكون ، ولم يتعلم شيئاً من حقائق الفلك ونظرياته – والرسالات تخاطب فطرة الكائن البشري في أية مرحلة من مراحل نموه العقلي والاجتماعي ، لتأخذه بيده من الموضع الذي هو فيه . ومن ثم كان هذا التحدي الذي يخاطب الفطرة كما يتحدث بلسان الواقع الذي لا يقبل الجدل : (فبهت الذي كفر) ..

فالتحدي قائم ، والأمر ظاهر ، ولا سبيل إلى سوء الفهم ، أو الجدال والمراء .. وكان التسليم أولى والإيمان أجدر . ولكن الكبر عن الرجوع إلى الحق يمسك بالذي كفر ، فيبهت ويبلس يتحير . ولا يهديه الله إلى الحق لأنه لم يتلمس الهداية ، ولم يرغب في الحق ؛ ولم يلتزم القصد والعدل : (والله لا يهدي القوم الظالمين) (٥) .

هـ . استعمال أسلوب المفاصلة والعزلة .

وذلك بعد أن استنفذ الأساليب اللينة ، قال تعالى : ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(٦) ، وقال جل شأنه : ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٧) ، وقال عز وجل : ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّاً ﴾ (٨) .

---

١ . سورة الأنبياء ، آية ٥٦ .

٢ . سورة مريم ، آية ٤٢ .

٣ . سورة الشعراء ، الآيتان ٧٢ ، ٧٣ .

٤ . سورة البقرة ، آية ٢٥٨ .

٥ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٣ / ٢٩٨ .

٦ . سورة العنكبوت ، آية ٢٦ .

٧ . سورة الصافات ، آية ٩٩ .

٨ . سورة مريم ، آية ٤٩ .

٨ . من الوسائل المعنوية التي استعملها سيدنا إبراهيم .

أ . وسيلة الصبر على طريق الدعوة .

الصبر على ذبح ابنه : ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (١) ، والصبر على فراق الأهل : ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (٢) ، والصبر على الأمانة في الدين : ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (٣) .

ب . وسيلة الدعاء .

دعاء سيدنا إبراهيم – عليه السلام – للأمة المسلمة بأن تظهر ، وللإسلام بأن ينتشر ، وهذا يدل على استمرارية الدعوة وعالميتها : ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ (٤) .

٩ . صمام أمان الدعوة التوجه إلى الله ، فهو المطعم والمشفي والمحيي والمميت : ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٥) .

١٠ . مواجهة مشكلات الدعوة من التهديد إلى الإلقاء في النار والقتل ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٦) ، ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (٧) .

١١ . ثمرة الصبر على المحن والابتلاءات في طريق الدعوة ، هو التمكين والغلبة على معسكر الكفر ، قال عز وجل : ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٨) ،: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ (٩) .

---

١ . سورة الصافات ، الآيات ١٠٢ – ١٠٨ .

٢ . سورة إبراهيم ، آية ٣٧ .

٣ . سورة البقرة ، آية ١٢٤ .

٤ . سورة البقرة ، آية ١٢٩ .

٥ . سورة الشعراء ، الآيات ٧٨ – ٨٩ .

٦ . سورة العنكبوت ، آية ٢٤ .

٧ . سورة الأنبياء ، الآيات ٦٨ – ٧٠ .

٨ . سورة العنكبوت الآيتان ، ٢٦ ، ٢٧ .

٩ . سورة الأنبياء ، الآيتان ٧١ ، ٧٢

المبحث الثاني
فقه الواقع الاقتصادي

فقه الواقع الاقتصادي : هو فهم وإدراك المبادئ والأصول المؤسسة للواقع الاقتصادي ، والتطبيقات الاقتصادية المعاصرة التي تبنى عليها وترتبط بمجالها ، وذلك في ضوء فقه المعاملات الإسلامي ، والنظريات الاقتصادية الإسلامية المنضبطة بدستور الكتاب والسنة .

ومما يشهد لهذا الفقه ، ما روي عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أنه كان يطوف بالسوق وبيده الدرة يضرب بعض التجار ويقول : لا يقعد في سوقنا من لا يعرف الربا ولا يبيع في سوقنا إلا من تفقه ، وإلا أكل الربا شاء أم أبى [١] .

وقال الإمام الشافعي رحمه الله : لا يحل لفقيه عاقل أن يقول في ثمن درهم ولا خبرة له بسوقه [٢] .

الاقتصاد الإسلامي : هو مجموعة الأصول العامة الاقتصادية التي نستخرجها من القرآن والسنة ، والبناء الاقتصادي الذي نقيمه على أساس تلك الأصول بحسب كل بيئة وكل عصر [٣] .

التعريف السابق يحدد قسمين لهذا العلم ، أحدهما ثابت والآخر متغير [٤] .

الأول . ما أطلق عليه مجموعة الأصول العامة الاقتصادية المستخرجة من القرآن والسنة ، ويقصد بذلك مجموعة المبادئ العامة التي نص عليها القرآن والسنة في شؤون الاقتصاد والتجارة ، ويطلق البعض على هذه الأصول اصطلاح " المذهب الاقتصادي الإسلامي " [٥] .

الثاني . ما أطلق عليه " البناء الاقتصادي " الذي نقيمه على أساس تلك الأصول بحسب كل بيئة وكل عصر .
ويقصد بذلك مجموعة التطبيقات والحلول الاقتصادية التي يتوصل إليها المجتهدون في الدولة الإسلامية تطبيقاً للمبادئ السالفة ، وإعمالاً لها . مثل : بيان الربا المحرم ، والعمليات التي يصدق عليها وصف الربا ، وحد الكفاية بالنسبة للزكاة ، وعملية الموازنة بين إيرادات الدولة ونفقاتها ، وكيفية تحقيق التوازن داخل المجتمع ... الخ .

وهذه التطبيقات والأنشطة الاقتصادية قابلة للتطور والتغير وفقاً لتبدل الواقع الزماني والمكاني ، من بيئة لأخرى ، ومن وقت لآخر .

ويطلق البعض على هذه التطبيقات المتغيرة في المجال الاقتصادي اصطلاح " النظم الاقتصادية الإسلامية [٦] .

بين علم الفقه الاقتصادي ، وعلم الاقتصاد الإسلامي :

علم الفقه الاقتصادي : هو إعمال العقل في الدليل لاستنباط الحكم الذي يحكم الظاهرة الاقتصادية ، وهو أكثر التصاقاً بفقه النص . أما الاقتصاد الإسلامي فهو : إعمال العقل في الحكم الذي حصلنا عليه لتحديد الظاهرة الاقتصادية التي ينشئها الحكم وتحليلها ، والتأثير فيها ، والتنبؤ بها ، وهو أكثر التصاقاً بفقه الواقع [٧] .

---

١ . إحياء علوم الدين ، الغزالي ، كتاب آداب الكسب والمعاش ، الباب الثاني في علم الكسب بطرق البيع والربا ... ، ٢ / ٩٠ .

٢ . الرسالة في أصول الفقه ، الشافعي ، ص ٥١١ .

٣ . النظام الاقتصادي في الإسلام ، أحمد العسال ، ص ١٦ ، نقلاً عن محاضرة في الاقتصاد الإسلامي ، د / محمد عبد الله العربي ، ص ٢١ ، مطبوعات الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر .

٤ . النظام الاقتصادي في الإسلام ، العسال ، ص ١٧ وما بعدها . ٥ . المدخل إلى الاقتصاد الإسلامي ، محمد شوقي الفنجري ، ص ٥٦ .

٦ . المصدر السابق ، ص ٥٦ . ٧ . انظر في الاقتصاد الإسلامي ، د / رفعت السيد العوضي ، ص ٢٥ .

ويترتب على هذا ، التمييز بين من هو فقيه له الصلاحية في أن يبحث عن الحكم الفقهي ، ومن هو اقتصادي له الصلاحية في أن يبحث في الظاهرة الاقتصادية التي ينشئها الحكم الفقهي . إن من له الصلاحية في البحث عن الحكم الفقهي يخضع للشروط التي ذكرها علماء أصول الفقه في من له حق الاجتهاد ، وأما من له الصلاحية في أن يبحث في الظاهرة الاقتصادية التي ينشئها الحكم الفقهي ، فيشترط فيه أن يكون قادراً – كحد أدنى – على قراءة وفهم الفقه الذي يكتب عن اقتصاده ، ويضاف إلى هذا المعرفة الاقتصادية [١] .

وهذا التكامل بين العلمين يلاحظ عند الحكم على القضايا المعاصرة في المجامع الفقهية ، والتي يتطلب فيها الجمع بين فقهاء الشرع وخبراء العصر ، ويكون فقه النص وفقه الواقع نقطة الالتقاء بين هؤلاء وهؤلاء ، وصولاً إلى الحكم الشرعي في المسألة وفقاً لمقتضيات العصر ومحكمات الشرع .

ومن الأمثلة لهذا التداخل ، نجد أن الفقهاء تحدثوا على المستهلك المسلم للسلع والخدمات ، وطرق ترشيد الاستهلاك ، وهي مرحلة الفقه (الاقتصادي والمالي) حيث يبحث فيها عن الأحكام المنظمة لتصرفات المسلم الاستهلاكية ، وهذه الأحكام تنشئ واقعة اقتصادية أو تعكس نفسها في المتغيرات والظواهر الاقتصادية ، ودراسة هذه الوقائع والمتغيرات الاقتصادية تدخل في المرحلة التالية التي تسمى بالاقتصاد الإسلامي ، وهي مرحلة تكون اللغة السائدة فيها هي لغة الاقتصاد باستخدام الأساليب الرياضية ، أو الرسوم البيانية ، أو الفروض للوصول إلى تكوين نظرية اقتصادية [٢] .

الأصول والمبادئ المستصحبة في فقه الواقع الاقتصادي .

وهي أحكام وقواعد ثابتة لا تتغير ، ولا مجال للاجتهاد فيها إلا في تنزيلها في محيط الواقع المعيش .

١ . أصل أن المال مال الله ، والبشر مستخلفون فيه ، قال تعالى : ﴿**وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ**﴾ [٣] ، وقال سبحانه : ﴿**وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ**﴾ [٤] .

٢ . لا يتدخل المال لترجيح قيمة صاحبه ، فالإنسان في الإسلام بخلقه وعمله لا بجاهه وماله : ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [٥] ، ويقول ﷺ : (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) [٦] .

٣ . أصل ضمان حد الكفاية أي المستوى اللائق للمعيشة لكل فرد في المجتمع الإسلامي ، قال تعالى : ﴿**وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**﴾ [٧] .

٤ . أصل تحقيق العدالة الاجتماعية وحفظ التوازن الاقتصادي بين أفراد المجتمع الإسلامي ، قال تعالى : ﴿**كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ**﴾ [٨] .

---

١ . انظر في الاقتصاد الإسلامي ، د / رفعت السيد العوضي ، ص ٢٥ . ٢ . انظر المصدر السابق ، ص ٢٧ .

٣ . سورة النور ، آية ٣٣ .

٤ . انظر النظام المالي و الاقتصادي في الإسلام ، نورين ، ص ١٢٦ ، والآية رقم ٧ من سورة الحديد .

٥ . سورة الحجرات ، آية ١٣ .

٦ .السياسة والاقتصاد في التفكير الإسلامي، أحمد شلبي،ص٢١١ ،والحديث أخرجه أحمد عن أبي هريرة ، رقم ٧٨١٤،٧ / ٤٩٥ ،وإسناده صحيح.

٧ . انظر النظام المالي و الاقتصادي في الإسلام ، نورين ، ص ١٦ وما بعدها ، والآيتان ٢٤ ، ٢٥ من سورة المعارج .

٨ . انظر المصدر السابق ، ١٢٧، والآية رقم ٧ من سورة الحشر .

٥ . أصل الصدق والإحسان وتحريم الغش والتدليس والالتواء ، يقول الرسول – ﷺ – : (البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما) [١] .

٦ . أصل احترام الملكية الخاصة وحرمة التعدي عليها ، قال تعالى : ﴿ **لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ** ﴾ [٢] ، وقال أيضاً :﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [٣] .

وقال – ﷺ – : (... كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه) [٤] .

٧ . أصل السماحة في المعاملات كلها بيعاً وشراءً واقتضاءً وقضاءً ، عن جابر بن عبد الله [٥] – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : (رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى) [٦] ، وعن أبي هريرة [٧] – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : (مطل الغني ظلم ، وإذا أتبع أحدكم على مليٍّ فليتَّبع) [٨] .

المطل : المدافعة ، والمراد هنا تأخير ما استحق أداؤه بغير عذر ، والغني مختلف في تفريعه ، ولكن المراد به هنا من قدر الأداء فأخره ولو كان فقيراً ، والملي كالغني لفظا ومعنى .

ومعنى قوله " أتبع فليتبع " أي أحيل فليحتل ، ومناسبة الجملة للتي قبلها أنه دلّ على أن مطل الغني ظلم عقبه بأنه ينبغي قبول الحوالة على الملئ لما في قبولها من دفع الظلم الحاصل بالمطل ، فإنه قد تكون مطالبة المحال عليه سهلة على المحتال دون المحيل ففي قبول الحوالة إعانة على كفه عن الظلم [٩]

٨ . أصل التنمية الاقتصادية الشاملة .

قال تعالى : ﴿ **هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾ [١٠] أي كلفكم بعمارتها ، وقال تعالى : ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ [١١] ، وقوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [١٢] ، بل لقد حرص الإسلام على التنمية الاقتصادية وتعمير الدنيا في أحلك الظروف ، قال رسول الله ﷺ : (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة – أي شتلة من نخل – فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها) [١٣] .

---

١ . متفق عليه ، عن حكيم بن حزام ، اللؤلؤ والمرجان ، محمد فؤاد عبد الباقي ، كتاب البيوع ، رقم ٩٨٠ ، ص ٣٠٩ .

٢ . سورة النساء ، آية ٣٢ . ٣ . سورة المائدة ، آية ٣٨ .

٤ . أخرجه مسلم في صحيحه عن أ بي هريرة ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ، رقم ٢٥٦٤ ، ١٩٨٦/٤ .

٥ . هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري : صحابي جليل ، ومن المكثرين في الرواية عن الرسول – ﷺ – ، له ولأبيه صحبة ، وغزا تسع عشرة غزوة ، وروى له البخاري ومسلم وغيرهما ١٥٤٠ ، توفي سنة ٧٨ هـ . انظر الطبقات الكبرى٣ /٤٣١ ، صفة الصفوة ١ / ٣٢٨ ، الوافي بالوفيات ١١ / ٢٢ ، الأعلام ٢ / ١٠٤ .

٦ . أخرجه البخاري ، فتح البارئ ، رقم ٢٠٧٦ ، ٤ / ٣٧٥ .

٧ . هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي ، كان أكثر الصحابة حفظا للحديث ورواية له ، أسلم عام خيبر ٧ هـ ، ولزم صحبة النبي ﷺ فروى عنه ٥٣٧٤ حديثاً ، نقلها عنه أكثر من ٨٠٠ رجل بين صحابي وتابعي ، وولي أمرة المدينة مدة ، وولاه عمر على البحرين ثم عزله ، وتوفي بالمدينة سنة ٥٩ هـ . انظر الطبقات الكبرى٤ / ٢٤٢ ، أسد الغابة ٣ / ٤٥٧ ، الوافي بالوفيات ١٨ / ٩١ ، الأعلام ٣ / ٣٠٨ .

٨ . أخرجه البخاري ، فتح البارئ ، رقم ٢٢٨٧ ، ٤ / ٥٧٠ . ٩ . انظر فتح البارئ ، ابن حجر العسقلاني ، ٤ / ٥٧٠ .

١٠ . سورة هود ، آية ٦١ . ١١ . سورة البقرة ، آية ٣٠ .

١٢ . سورة الجمعة ، آية ١٠ .

١٣ . أخرجه البخاري في الأدب المفرد عن أنس بن مالك ، رقم ٤٧٩ ، ص ١١٩ ، وصححه الألباني في الصحيحة ، رقم ٩ ، ١ / ١١ .

٩ . أصل ترشيد الاستهلاك والإنفاق ، وذلك بتحريم التبذير ، والحجر على السفهاء ، والنهي عن الترف والاكتناز . قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً﴾ (٣) .

١٠ . أصل توثيق العقود المالية ضماناً للحقوق ، وإقامة للعدل بين الناس ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَاكْتُبُوهُ﴾(٤) .

وهذا الأمر عام يشمل كل العقود عدا عقود التجارة ، قال تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ (٥) .

١١ . الأصل في إتمام العقود المالية هو التراضي بين الطرفين ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ (٦) .

١٢ . أصل الحرية الاقتصادية المقيدة : وذلك بتحريم بعض أوجه النشاط الاقتصادي ، يقول تعالى : ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٧) ، وقوله تعالى : ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا﴾ (٨) ، وقال ﷺ : (من احتكر فهو خاطئ) (٩) . ويدخل في ذلك : الميسر ، والنهي عن أكل أموال الناس بالباطل ، والبيوع الفاسدة مثل النجش ، وتلقي الركبان ، وتحريم ما فيه غرر فاحش ، وغير ذلك من المعاملات المحرمة (١٠) .

١٣ . الأصل في طريق الكسب الإباحة ، أي أنه لا يحرم على الناس من المعاملات التي يحتاجون إليها إلا ما ورد الشرع بتحريمه وإبطاله ، قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ (١١) ، وقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (١٢) .

١٤ . النهي عن جملة من العقود والمعاملات لما يترتب على ذلك من مخالفات ومفاسد ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

أ . النهي عن البيع وقت النداء لصلاة الجمعة ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسَعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٣) .

ب . النهي عن بيع الرجل على بيع أخيه ، عن أبي هريرة قال : (نهى رسول الله ﷺ أن يبيع حاضر لباد ولا تناجشوا ، ولا يبيع الرجل على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه) (١٤) .

---

١ . سورة التوبة ، آية ٣٤ .
٢ . سورة الإسراء ، آية ٢٧ .
٣ . انظر النظام المالي والاقتصادي في الإسلام، نورين ، ص ١٢٦ وما بعدها ، والآية رقم ٥ من سورة النساء .
٤ . انظر النظام الاقتصادي في الإسلام ، أحمد العسال ، ص ١٦٢ ، والآية رقم ٢٨٢ من سورة البقرة .
٥ . سورة البقرة ، آية ٢٨٢ .
٦ . سورة النساء ، آية رقم ٢٩ .
٧ . سورة البقرة ، آية ١٨٨ .
٨ . سورة البقرة ، آية ٢٧٥ .
٩ . أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب المساقاة ، رقم ١٦٠٥ ، ٣ / ١٢٢٧ .
١٠ . انظر النظام المالي والاقتصادي في الإسلام ، نورين ، ص ١٦٢ وما بعدها .
١١ . سورة البقرة ، آية ٢٩ .
١٢ . انظر النظام المالي والاقتصادي في الإسلام ، ص ١٢٦ وما بعدها ، والآية رقم ٢٠ من سورة لقمان .
١٣ . سورة الجمعة ، آية ٩ .
١٤ . أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب البيوع ، رقم ٢١٤٠ ، ٤ / ٤٣٢ .

والنجش في الشرع الزيادة في ثمن السلعة ممن لا يريد شراءها ليقع غيره فيها ، سمى بذلك لأن الناجش يثير الرغبة في السلعة ، ويقع ذلك بمواطأة البائع فيشتركان في الإثم ، ويقع ذلك بغير علم لبائع فيختص بذلك الناجش ، وقد يختص به البائع كمن يخبر بأنه اشترى سلعة بأكثر مما اشتراها به ليغر غيره بذلك ، وقال ابن قتيبة : النجش الختل والخديعة [١] .

ويدخل في هذا البيع ما يعرض الآن من منتجات وسلع معيبة ، ورديئة الجودة ، بطرق حفية تظهر المنتج بشكل جيد وتغري الناس على الشراء .

جـ . النهي عن التحايل على الحرام ، كالطرق التي يتحايل بها التجار على أكل الربا بما يستعملون من البيانات الوهمية ، كعملية بيع السكر أو الأرز بسعر عالٍ للمحتاج ثم يبيعها المحتاج بسعر أقل ليدخل فرق السعر في جيب التاجر ، تحايلاً على أخذ الزيادة مقابل القرض . وهذا ما نهى عنه – ﷺ – في حديثين صحيحين :

الحديث الأول . عن ابن عمر [٢] – رضي الله عنهما – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه شيء حتى ترجعوا إلى دينكم) [٣] .

والعينة : أن يبيع شيئا من غيره بثمن مؤجل ، ويسلمه إلى المشتري ، ثم يشتريه قبل قبض الثمن بثمن أقل من ذلك القدر يدفعه نقدا . قال شيخ الإسلام ابن تيمية : فهذا مع التواطؤ يبطل البيعين ؛ لأنها حيلة [٤] .

والحديث الآخر : قوله – ﷺ – : (لعن الله اليهود ، حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها) [٥] .

التطبيقات الاقتصادية ، والأنشطة التجارية .

ونطاقها قابل للتطور والتبديل ؛ لأن النصوص لم تفصلها ، أو أحكامها جاءت ظنية في دلالتها ؛ أو لأنها تقع في دائرة الفراغ التشريعي .

وهي تخضع للاجتهاد وفق ظروف الزمان والمكان والحال في إطار الواقع العملي ، وتكون منضبطة بالأسس والقواعد سالفة الذكر ، ويندرج تحت هذه الممارسات كل ما يستجد من نظريات اقتصادية ومعاملات مالية ، مثل : أنظمة السوق والبنوك ، وطرق الإنتاج والاستهلاك والتوزيع ، والشركات الاستثمارية ، والبورصات ، والعقود المالية من قرض وائتمان ومضاربة ووديعة وإعارة وحوالة ومؤاجرة ... الخ .

ويتطلب لمعرفتها فقه واقعها الاقتصادي ، ومجالها التجاري ، وذلك بدراسة أصول العلوم الاقتصادية والإدارية الشارحة لها ، وهي : علم المحاسبة ، والإدارة ، والاقتصاد .

وفي هذا الجانب سوف نقوم بدراسة الموضوعات الاقتصادية ، والتي ترتبط بالتطبيقات الاقتصادية المعاصرة ، والتي يجب فهمها واقعياً من خلال المنظور الإسلامي .

---

١ . فتح البارئ في شرح صحيح البخاري ، ابن حجر العسقلاني ، كتاب البيوع ، ٤ / ٤٣٢ .

٢ . هو عبد الله بن عمر بن الخطاب ، صحابي ، نشأ في الإسلام ، وشهد فتح مكة ومولده فيها وتوفي بها سنة ٧٣ هـ . أفتى في الإسلام ستين سنة ، وهو آخر من توفي بمكة من الصحابة ، له في كتب الحديث ٢٦٣٠ حديثاً . انظر الطبقات الكبرى ٤ / ١٠٥، صفة الصفوة ١ / ٢٨٨ ، الوافي بالوفيات ١٧ / ١٩٧ ، أسد الغابة ٣ / ٣٣٦ ، الأعلام ٤ / ١٠٨ .

٣ . أخرجه أبو داود في سننه ، رقم ٣٤٦٢ ، ٣ / ٤٧٧ ، وصححه الألباني في الصحيحة ، رقم ١١ ، ١ / ٤٢ .

٤ . سلسلة الأحاديث الصحيحة ، الألباني ١ / ٤٢ .

٥ . انظر النظام الاقتصادي في الإسلام ، العسال ، ص ١٦٥ ، والحديث أخرجه البخاري عن ابن عباس ، فتح البارئ ، رقم ٣٤٦٠ ، ٦٠٤/٦ .

أولاً . الإنتاج .

ومفهومه في الاقتصاد الإسلامي : هو إيجاد سلعة أو خدمة معينة باستخدام مزيج من العناصر ضمن إطار زمني محدد ، على أن تكون السلعة أو الخدمة المعينة ، وأساليب إيجادها مقبولة شرعاً [١] .

هدف الإنتاج :

أ . تحقيق تمام الكفاية للفرد .

وتمام الكفاية أرفع من مستوى الكفاف ، ودون مستوى الترف المرفوض إسلامياً . وهو يتحقق بتوفر الغذاء الكافي ، والماء ، واللباس ، والسكن ، ومقومات الزواج ، وسبل العلاج ، وما يعين على طلب العلم ... الخ [٢] .

ب . تحقيق الاكتفاء الذاتي للأمة .

بمعنى أنها يجب أن يكون لديها من الإمكانات والقدرات والخبرات والوسائل ما يفي بحاجاتها المادية والمعنوية ، ويسد ثغراتها المدنية والعسكرية ، عن طريق ما يسميه الفقهاء " فروض الكفاية " ، وهي تشمل كل علم أو عمل أو صناعة أو مهارة يقوم بها أمر الناس في دينهم أو دنياهم ، فالواجب عليهم حينئذ تعلمها وتعليمها وإتقانها حتى لا يكون المسلمون عالة على غيرهم ، ولا يتحكم فيهم سواهم من الأمم الأخرى [٣] .

عناصر الإنتاج :

من المعلوم أن عناصر الإنتاج هي : رأس المال ، والعمل ، والطبيعة أو المواد الخام والثروة والموارد البيئية .

أ . رأس المال .

ومفهومه : هو ذلك الجزء من الثروة الذي يستخدم لإنتاج السلع والخدمات ، سواء كان نقداً كالجنيه والدينار ، أو عيناً كالآلات ، أو منهما معاً .

ويتكون رأس المال عن طريق اقتطاع جزء من الدخل ، وتوجيهه إلى الاستثمار بدلاً من الاستهلاك أو الاكتناز ، قال تعالى : ﴿**وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ**﴾ [٤] .

ب . العمل .

عرف العمل بأنه :كل مجهود بدني أو ذهني مقصود ومنظم يبدله الإنسان لإيجاد منفعة مقبولة شرعاً أو زيادتها [٥].

قال تعالى : ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾ [٦]، وقال ﷻ : ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [٧] .

ويفهم من هاتين الآيتين الكريمتين وأمثالهما في القرآن الكريم أن العمل واجب شرعي على كل مسلم مكلف – ما دام قادراً عليه – بشرط أن يكون صالحاً صحيحاً ، وأن يكون ترجمة وتطبيقاً للإيمان وتعبيراً عنه [٨] .

---

١ . النظام المالي والاقتصادي في الإسلام ، نورين ، ص ١٤٤ .

٢ . انظر دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي ، القرضاوي ، ص ١٧٠ وما بعدها .

٣ . انظر دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي ، القرضاوي ، ص ١٧٨ .

٤ . انظر النظام المالي والاقتصادي في الإسلام ، نورين ص ١٤٦ ، والآية ٢٧٩ من سورة البقرة .

٥ . المصدر السابق ، نقلاً عن الاقتصاد في ضوء الشريعة ، د / محمود بابلي ، ص ١٨٦ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت – ١٩٨٠ م .

٦ . سورة يونس ، آية ١٤ . ٧ . سورة التوبة ، آية ١٠٥ .

٨ . انظر التربية الاقتصادية الإسلامية ، د / علي عبد الحليم ، ص ١٣٠ .

ومفهوم الإسلام للعمل شامل لكل فاعلية اقتصادية مشروعة في مقابل أجرة أو مال يؤخذ سواء كان هذا العمل جسمياً مادياً أو فكرياً [١] .

فمن العمل اليدوي الجسمي ، قوله – ﷺ – : (ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من عمل يده ، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده) [٢] ، ومن العمل الفكري في الولايات ووظائف الدولة ، والمهن العامة قوله ﷺ : (من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول) [٣] .

لذلك فإن العمل يعد الدعامة الأساسية للإنتاج ، وهو أساس القيمة ومصدرها سواء كان في الزراعة أو الصناعة أو التجارة ، أو كان مهنة أو حرفة يحترفها الإنسان لكسب عيشه ، قال تعالى : ﴿**وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ**﴾ [٤] ، وقال جل شأنه : ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**﴾ [٥] ، وقال – ﷺ – : (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة) [٦] .

جـ . الطبيعة .

وهي العنصر الثالث الذي تكتمل به العملية الإنتاجية ؛ لأنه محل الفعل ، والمكان الذي تتفاعل فيه قوى الإنسان العملية ورأس ماله .

ويعرف الاقتصاديون الطبيعة بأنها : كل الموارد الطبيعية التي لم يتدخل الإنسان في إيجادها . وهي تشمل الأرض بما في باطنها ، وما عليها ، وما حولها كالمعادن والتربة والرياح ، ومياه الأنهار والبحار والعيون والآبار ، والغابات ... وغيرها [٧] .

والقرآن حافل بكثير من الآيات التي تدعو بني البشر إلى التعامل مع الطبيعة ، والاستفادة من خيراتها وذخائرها في تعمير الكون وخدمة الإنسان .

ففي الثروة النباتية قوله تعالى : ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [٨] ، وفي الثروة الحيوانية

---

١ . انظر نظام الإسلام ، الاقتصاد مبادئ وقواعد عامة ، محمد المبارك ، ص ٣٦ .

٢ . أخرجه البخاري عن المقدام ، كتاب البيوع ، فتح الباري ، حديث رقم ٢٠٧٢ ، ٤ / ٣٧٣ .

٣ . أخرجه الحاكم في المستدرك ، عن بريدة عن أبيه ، كتاب الزكاة ، رقم ١٤٧٢ ، ١ / ٥٦٣ ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وأخرجه أبو داود ، كتاب الخراج والإمارة والفيء ، رقم ٢٩٤٣ ، ٣ / ٢٣٨ .

٤ . سورة يس ، الآيات ٣٣ – ٣٥ .

٥ . سورة الملك ، آية ١٥ .

٦ . انظر النظام المالي والاقتصادي ، نورين ، ص ١٤٧ وما بعدها ، والحديث أخرجه البخاري عن أنس بن مالك ، فتح الباري ، كتاب الحرث والمزارعة ، رقم ٢٣٢٠ ، ٥ / ٥ .

٧ . المصدر السابق ، ص ١٤٨ .

٨ . سورة النحل ، الآيتان ١٠ ، ١١ .

يقول المولى عز وجل : ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (١) ، ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ ﴾ (٢) ، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ ﴾ (٣) ، وفي الثروة البحرية يقول جلت قدرته : ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(٤) ، أما الثروة المعدنية فيقول الله عنها : ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (٥) ، فالحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وهي ما يعرف في اصطلاح العصر بالصناعات العسكرية والمدنية .

ثانياً . التوزيع .

المقصود بالتوزيع هو ما يقابل الإنتاج ، وهو قسمة عائد النشاط الاقتصادي على العناصر التي شاركت فيه (٦) .

أو هو التوزيع الوظيفي للدخل القومي بين عوامل الإنتاج ، من موارد طبيعية وعمل وعمال ، ورأس مال وتنظيم وإدارة (٧) .

(وغاية النظام الاقتصادي الإسلامي هو ضمان مستوى لائق من المعيشة لكافة شرائح المجتمع وإن تفاوت الدخل بينها .

لذلك شرعت وسائل لتفتيت الثروة وإعادة توزيعها بالعدل والإنصاف بين أفراد المجتمع ، ومن تلك الوسائل) (٨) :

١ . الزكاة : وهي أهم وسائل توزيع الثروة ، تؤخذ من الأغنياء وترد على الفقراء والمحتاجين ، قال تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (٩) ، وقال جل شأنه : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾(١٠) ، وفي حديث معاذ (١١) – رضي الله عنه – : (... فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم) (١٢) ، أما مصارف الزكاة فقد فصلها قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١٣) .

---

١ . سورة النحل ، آية ٥ . ٢ . سورة النحل ، آية ٦٦ .

٣ . سورة النحل ، آية ٨٠ . ٤ . سورة النحل ، آية ١٤ .

٥ . سورة الحديد ، آية ٢٥ . ٦ . النظام المالي والاقتصادي ، نورين ، ص ١٤٩ .

٧ . التربية الاقتصادية الإسلامية ، علي عبد الحليم ، ص ٢١٠ . ٨ . النظام المالي والاقتصادي ، نورين ، ص ١٥٠ وما بعدها .

٩ . سورة البقرة ، آية ٤٣ . ١٠ . سورة التوبة ، آية ١٠٣ .

١١ . هو معاذ بن جبل بن عمرو الأنصاري ، صحابي جليل كان أعلم الأمة بالحلال والحرام ، وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي عليه السلام ، آخى النبي ﷺ بينه وبين جعفر بن أبي طالب ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وبعثه ﷺ بعد تبوك قاضيا ومرشدا لأهل اليمن ، ومات في طاعون عمواس بالشام عام ١٨ هـ ، وله في كتب الحديث ١٥٧ حديثاً . انظر الطبقات الكبرى ٣ / ٤٣٧ ، صفة الصفوة ١ / ٢٥٣ ، الوافي بالوفيات ٢٥ / ٤٠٠ ، أسد الغابة ٥ / ١٨٧ ، الأعلام ٧ / ٢٥٨ .

١٢ . أخرجه البخاري عن ابن عباس ، فتح الباري ، حديث رقم ١٣٩٥ ، ٣ / ٣٢٠ .

١٣ . سورة التوبة ، آية ٦٠ .

٢ . صدقة التطوع : وهي ما يدفع تطوعاً للمحتاجين ، وقد حث الإسلام عليها ورغب فيها ، قال تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١) ، وفي الحديث قوله ﷺ : (ما نقصت صدقة من مال ...) (٢) ، وقال رسول الله – ﷺ – : (اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة) (٣) ، وذكر من الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه (٤) .

٣ . النفقات الواجبة على الزوجة والوالدين والأقارب .

قال تعالى : ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾ (٥) ، وقال ﷻ : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ (٦) .

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : (ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شيء فلأهلك ، فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قرابتك ، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فلهكذا ، وهكذا ، يقول : فبين يديك وعن يمينك وعن شمالك) (٧) .

٤ . الكفارات والنذور : فالكفارة ما وجب لمحو ذنب ارتكبه المرء مثل كفارة الظهار : ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً﴾ (٨) ، أما النذر فهو ما يوجبه المرء على نفسه من المباحات تعظيماً لله تعالى ، قال عز وجل : ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٩) .

٥ . الأضاحي والدماء الواجبة بسبب الحج ، قال تعالى : ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٠) .

٦ . الميراث : وهو انتقال مال الميت إلى حي بعده حسبما شرعه الله ، قال تعالى : ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً﴾ (١١) ، وقال جل شأنه : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا ...﴾ (١٢) .

---

١ . سورة البقرة ، آية ٢٦١ .

٢ . أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، كتاب البر والصلة ، رقم ٢٥٨٨ ، ٤ / ٢٠٠١ .

٣ . متفق عليه عن عدي بن حاتم ، كتاب الزكاة ، اللؤلؤ والمرجان ، محمد فؤاد عبد الباقي ، حديث رقم ٥٩٧ ، ص ١٨٠ .

٤ . أخرجه البخاري عن أبي هريرة ، كتاب الزكاة ، باب الصدقة باليمين ، فتح البارئ ، رقم ١٤٢٣ ، ٣ / ٣٥٨ .

٥ . سورة الإسراء ، آية ٢٦ . ٦ . سورة النساء ، آية ٣٦ .

٧ . أخرجه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله ، كتاب الزكاة ، رقم ٩٩٧ ، ٢ / ٦٩٣ .

٨ . سورة المجادلة ، الآيتان ٣ ، ٤ . ٩ . سورة البقرة ، آية ٢٧٠ .

١٠ . سورة الحج ، آية ٣٦ . ١١ . سورة النساء ، آية ٧ .

١٢ . سورة النساء ، آية ١١ .

٧ . الخراج : (هو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عنها ، قال تعالى : ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (١) .

والفرق بين الخرج والخراج ، أن الخرج من الرقاب ، والخراج من الأرض) (٢) .

فالخراج مقدار معين من المال أو الحاصلات يفرض على الأرض التي فتحها المسلمون عنوة ، أو صلحاً وتبقى في يد أهلها .

وأول من وضع الخراج في الإسلام هو عمر – رضي الله عنه – عندما فتح أرض سواد العراق ، ووضع الخراج على الأرض ولم يقسمها على الفاتحين ، وكان رائده في ذلك المصلحة العامة .

٨ . الجزية (٣) : هي ما فرض من مال على رؤوس أهل الذمة الذين دخلوا في حوزة المسلمين .

وأسمها مشتق من الجزاء : إما جزاء على كفرهم ؛ لأخذها منهم صغاراً ، وإما جزاء على أمان المسلمين لهم ؛ لأخذها منهم رفقاً (٤) .

والأصل في مشروعيتها ، قوله تعالى : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (٥) .

قال الماوردي – رحمه الله – : (فبجب على ولي الأمر أن يضع الجزية على رقاب من دخل في الذمة من أهل الكتاب ليقروا بها في دار الإسلام ، ويلتزم لهم ببذلها حقان :

أحدهما : الكف عنهم ، والثاني : الحماية لهم ؛ ليكونوا بالكف آمنين ، وبالحماية محروسين ...) (٦)

٩ . العشور : هي الضرائب المفروضة على أموال التجارة الصادرة من البلاد الإسلامية أو الواردة إليها ، وهي تقابل الضرائب الجمركية في الوقت الحاضر .

وأول من وضع العشور الخليفة عمر – رضي الله عنه – وأساس فرضها هو حماية القوافل التجارية من النهب والسلب ، والإنفاق على إصلاح الطرق وتعبيدها ، وتمهيدها لمرور القوافل التجارية ، والمعاملة بالمثل بالنسبة للحربيين .

١٠ . الغنيمة ، والفيء ، وأموال الضوائع .

أ . الغنيمة : هي ما أخذه المسلمون من غيرهم بطريق القتال (٧) .

قال تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (٨) .

ب . الفيء : وهو ما أخذه المسلمون من غيرهم من غير قتال ، قال تعالى : ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ (٩) .

---

١ . سورة المؤمنون، آية ٧٢ . ٢ . الأحكام السلطانية ، الماوردي ص ١٥٤

٣. مقدار الجزية يختلف باختلاف الزمان والمكان ، وباختلاف حال الذمي عند أبي حنيفة ، ولا تجب على العاجز والفقير ، ولا على امرأة ولا صبي ، ولا مجنون ولا عبد ، وتسقط بالإسلام . الاقتصاد المالي ، عبد الكريم بركات ص ٣١٤ .

٤ . الأحكام السلطانية ، الماوردي ، ص ١٤٧ . ٥ . سورة التوبة ، آية ٢٩ .

٦ . الأحكام السلطانية ، الماوردي ، ص ١٤٨ . ٧ . المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

٨ . سورة الأنفال ، آية ٤١ . ٩ . الأحكام السلطانية ، ص ١٣٠ ، والآية ٧ من سورة الحشر .

ج . أموال الضوائع .

وهي كل لا مالك له ، كالتركات التي ليس لها مستحق ، ومال اللقطة التي وضعت عليها فترة التعريف ولم يظهر صاحبها [١] .

١١ . الضرائب العامة .

الضريبة : هي الأموال التي تفرضها الدولة عند عجز بيت المال (الخزانة العامة للدولة) عن تغطية المتطلبات .

قال الغزالي– رحمه الله – :(وإذا خلت الأيدي من الأموال ،ولم يكن من مال المصالح ما يفي بخراجات العسكر، ولو تفرق العسكر واشتغلوا بالكسب لخيف دخول العدو بلاد الإسلام أو ثوران الفتنة من قبل أهل الشر ،جاز للإمام أن يوظف على الأغنياء مقدار كفاية الجند ؛ لأنا نعلم أنه إذا تعارض شران أو ضرران قصد الشرع دفع أشد الضررين،وأعظم الشررين ، وما يؤديه كل واحد منهم(أي الأغنياء) قليل بالإضافة إلى ما يخاطر به من نفسه وماله لو خلت خطة الإسلام(أي بلاده) من ذوي شوكة(أي حاكم قوي)يحفظ نظام الأمور ويقطع مادة الشرور ...) [٢].

وقال القرطبي – رحمه الله – : واتفق العلماء أنه إذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة يجب صرف المال إليها . قال مالك رحمه الله : يجب على الناس فداء أسراهم وإن استغرق ذلك أموالهم وهذا إجماع أيضاً [٣] .

ثالثاً . الاستهلاك .

مفهوم الاستهلاك في العرف الشرعي ، والمنظور الإسلامي :

هو مجموع التصرفات التي تشكل سلة الخدمات من الطيبات التي توجه للوفاء بالحاجات والرغبات المتعلقة بأفراد المجتمع ، والتي تتحدد طبيعتها وأولوياتها بالاعتماد على القواعد والمبادئ الإسلامية ، وذلك لغرض التمتع والاستعانة بها على طاعة الله سبحانه وتعالى [٤] .

والسلوك الاقتصادي للفرد يتأثر بما يحمله من قيم ومعتقدات ، ففي المجتمع الغربي الذي يسوده النظام الرأسمالي يسعى الفرد لتحقيق أكبر قدر من المنفعة ، فلا حد للاستهلاك عنده ، بل يزيد زيادة مضطردة مع تحقيق السعادة في نظره .

أما في الإسلام فإن الفرد يسعى لتحقيق المتعة المادية نتيجة لإشباع حاجته ولكنه يسعى مع ذلك لتحقيق هدف أسمى وهو عبادة الله ، ونيل ثواب الدنيا واجتناب العقاب في الآخرة . قال تعالى : ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ** ﴾ [٥] ، وقال تعالى : ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ [٦] .

---

١ . النظام المالي ، نورين ص ١٨٢ ، نقلا عن النظم المالية لقطب إبراهيم ، ص ١٦٤ ، الهيئة المصرية للكتاب ، الطبعة الرابعة – ١٩٩٦ م .

٢ . انظر المستصفى ، الغزالي ، ص ١٧٧ .

٣ . الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، ١ / ٦٣٢ ، وذلك عند تفسير الآية ١٧٧ من سورة البقرة .

٤ . النظام المالي ، نورين ، ص ١٥٤ .

٥ . سورة الذاريات ، الآيتان ٥٦ ، ٥٧ .

٦ . المصدر السابق ، ص ١٥٤ ، والآية رقم ٧٧ من سورة القصص .

ضوابط شرعية لترشيد الاستهلاك .

١ . تحريم الترف ، وهو الإغراق في التنعم والكماليات ، والتوسع في الرفاهية والملذات ، ومن نتائجه : تبديد الموارد وإهدارها ، وزيادة الاستهلاك على حساب الادخار والاستثمار ، وتدهور القيم الأخلاقية البناءة في المجتمع .

قال تعالى : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ (١) .

في الآية قراءتان : " أمّرنا مترفيها " – بتشديد الميم ، أي جعلناهم أمراء وحكاما ، فطغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، كقوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٢) .

وأما قراءة التخفيف المشهورة فمعناها : أمرناهم بالطاعة والعدل ، ففسقوا عن أمر الله ، وفعلوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فاستحقوا عقوبة الله تعالى (٣) .

٢ . تحريم الإسراف والتبذير والسفه .

الإسراف : هو تجاوز الحد في الإنفاق والاستمتاع بالطيبات ، وتزداد حرمته عند الإسراف في المحرمات .

والإسراف قد يكون من مترِف ، وقد يكون ممن دونه .

قال ﷻ : ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٤) ، ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً ﴾(٥)

أما السفه فهو ضد الوعي والإدراك ، والسفيه هو الذي لا يجيد التصرف في المال من صبي أو امرأة أو من في حكمهما ، قال تعالى : ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً ﴾ (٦)

٣ . الاعتدال في الإنفاق .

ويتحقق هذا الاعتدال بالتوازن بين الإسراف والتقتير ، قال جل شأنه : ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً ﴾ (٧) .. ومن هنا وصف القرآن عباد الرحمن بقوله : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ (٨) .

قال ابن كثير : أي ليسوا بمبذرين في إنفاقهم ، فيصرفون فوق الحاجة ، ولا بخلاء على أهليهم فيقصرون في حقهم ، فلا يكفونهم ، بل عدلاً خياراً ، وخير الأمور أوسطها ، لا هذا ولا هذا (٩) .

وقال ﷺ : (كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة) (١٠) ، وقال أيضا : (... اتقوا الشح فإن الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم) (١١) .

---

١ . سورة الإسراء ، آية ١٦ .
٢ . سورة الأنعام ، آية ١٢٣ .
٣ . دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي ، القرضاوي ، ص ٢٢٧ .
٤ . سورة الأعراف ، آية ٣١ .
٥ . سورة الإسراء ، الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .
٦ . سورة النساء ، آية ٥ .
٧ . سورة الإسراء ، آية ٢٩ .
٨ . سورة الفرقان ، آية ٦٧ .
٩ . تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ٤ / ٦٠٩ .
١٠ . أخرجه أحمد في مسنده ، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، رقم ٦٦٩٥ ، ٦ / ٢٤٥ ، وقال محقق المسند : إسناده صحيح .
١١ . أخرجه أحمد عن جابر بن عبد الله ، رقم ١٤٣٩٨ ، ١١ / ٤٥٥ ، وقال المحقق : إسناده حسن .

٤ . تحريم استهلاك السلع والأدوات الضارة .

يحرم الإسلام الاستهلاك الضار بالنفس والضار بالآخرين ، سواء كان هذا الضرر في شكل مشاكل صحية أو اجتماعية ، أو كان في شكل تبديد للموارد الاقتصادية والمالية ، قال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (١) ، وقال ﷺ : (لا ضرر ولا ضرار) (٢) .

رابعاً . السوق .

السوق : هو المجال الذي تعمل فيه القوى المحددة للسعر ، والذي تتم فيه نقل الملكية ، والتي تصحب في كثير من الأحوال الانتقال المادي للسلع (٣) .

وقد اهتم الإسلام بالسوق اهتماما بالغا تمثل في حثه على السعي في طلب الرزق وارتياد الأسواق للتجارة ، قال تعالى : ﴿**وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ**﴾ (٤) ، وقال جل شأنه : ﴿**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ**﴾ (٥) ، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ**﴾ (٦) .

ومما يشهد لذلك أيضا ، قوله ﷺ في تحديد السوق وضوابطه : (هذا سوقكم فلا يُنتقصنَّ ، ولا يضربن عليه الخراج) (٧) .

بل إن الرسول ﷺ كان يرتاد الأسواق طلبا للتكسب والرزق ، وفعله هذا استنكره المشركون بقولهم الذي سجله القرآن : ﴿**وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً**﴾ (٨) .

الضوابط الأخلاقية والتشريعية للتعامل في السوق الإسلامي .

وهذه الضوابط تجعل واقع السوق ميدانا للتنافس المحمود ، تزدهر فيه التجارة ، وتنعدم فيه الممارسات الاقتصادية المخالفة للشريعة ، من الغش والاحتيال ، واضطراب الأسعار ، وأكل الربا والاحتكار .

١ . (وجوب عرض السلعة في سوقها وترك صاحبها حتى يصل بها إلى السوق فيعرضها ويعرف سعرها ، وفي ذلك تقليل للوساطة بين المنتج والمستهلك حتى لا تتحمل السلعة زيادة النفقات بزيادة الأيدي التي تتداولها ، وخاصة أنواع الطعام لحاجة الناس إليه .

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال : (لا تلقوا الركبان ولا يبيع حاضر لباد) ، قال ابن عباس : لا يبيع حاضر لباد ، أي لا يكون له سمساراً) (٩) .

---

١ . سورة المائدة ، آية ٩٠ . ٢ . أخرجه أحمد في مسنده ، رقم ٢٨٦٧ ، ٣ /٢٦٧ ،ورواه ابن ماجه في سننه عن عبادة بن الصامت بإسناد رجاله ثقات إلا أنه منقطع ، رقم ٢٣٤٠ ، ٢ / ٧٨٤ .

٣ . النظام المالي ، نورين ، ص ١٥٧ ، نقلا عن النظرية الاقتصادية ، د / سامي خليل ، ص ٣٩ .

٤ . سورة المزمل ، آية ٢٠ . ٥ . سورة الجمعة ، آية ١٠ .

٦ . النظام المالي والاقتصادي ، نورين ، ص ١٥٨ ، والآية ٢٨٢ من سورة البقرة .

٧ . أخرجه ابن ماجه في سننه عن أبي أسيد ، رقم ٢٢٣٣ ، ١ / ٧٥١ ، قال محمد فؤاد عبد الباقي : في الزوائد : رواة إسناده ضعاف ، وهم إسحاق بن إبراهيم ، ومحمد بن علي ، وشيخهما الزبير بن المنذر ابن أبي أسيد الساعدي . ٨ . سورة الفرقان ، آية ٧ .

٩ . انظر النظام المالي ، نورين ، ص١٨١، والحديث أخرجه البخاري عن ابن عباس ، فتح البارئ ، رقم ٢١٥٨ ، ٤ / ٤٥٤ .

٢ . ضبط المقاييس والموازين والمكاييل .

اهتم الإسلام اهتماما بالغا بنظام الموازين والمكاييل والمقاييس ، تمثل هذا الاهتمام في ضبط وحداته والتدقيق في تحديد مقاديره تحديدا علميا دقيقا ، وسبب هذا التدقيق هو أن وحدات الكيل والوزن تؤدي بها حقوق الله ، وحقوق العباد كالكفارات والنذور ، والزكاة والخراج ...الخ [١] .

قال تعالى في توفية الكيل والميزان : ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ [٢] ، ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [٣] ، وفي النهي عن التطفيف وأكل أموال الناس بالباطل ، يقول المولى ﷻ : ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٤] .

٣ . وجوب عرض السلعة بأمانة وصدق ، وعدم التلاعب في أسعارها بالزيادة في ثمنها لجعل المشتري يشتريها بالسعر الزائد ، وهو من بيع النجش الذي نهى الرسول – ﷺ – في حديث أبي هريرة المتقدم [٥] .

٤ . محاربة الاستغلال والاحتكار بشتى أصنافه ، وخاصة في الضروريات التي يحتاج إليها الناس ، قال ﷺ : (من احتكر فهو خاطئ) [٦] .

٥ . (مراقبة أسعار السلع المعروضة في السوق ، والحيلولة دون ارتفاعها فوق سعر المثل ، وتعيين سعر لها وفرضه على التجار إن دعت الحاجة إقامة للعدل ، وتحقيقاً للرخاء ومنعاً للظلم .

أما ما ورد عن أنس – رضي الله عنه – قال : غلا السعر في المدينة على عهد رسول الله ﷺ فقال الناس : يا رسول الله غلا السعر ، فسعر لنا ، فقال رسول الله ﷺ : (إن الله هو المسعر القابض الباسط الرازق ، إني لأرجو أن ألقى الله– ﷻ – وليس أحد منكم يطلبني بمظلمة في دم ولا مال) [٧] .

وما يدل عليه الحديث أن الغلاء كان حالة طارئة ، وأن أسبابه كانت معروفة ، وأن استغلال الحالة من قبل التجار كان قليلاً ، وأن عدم التدخل كان أولى ، وأنه ﷺ وكلهم إلى أخلاقهم وضمائرهم ، وترك القضية حسب قانون العرض والطلب ، وهذا هو الأولى أن تترك الأسواق حرة ، وتهيأ كل الأسباب لعدم التأثير فيها ، فتكفل الوسائل الميسرة لإحضار السلع ، ويمنع تكتل المؤسسات الاحتكارية . أما إذا تبين ظلم التجار للناس وجشعهم ومحاولتهم الكسب أضعافاً مضاعفة ، فقد لزم التسعير في الأقوات وهو ما ذهب إليه الإمام مالك من جواز التسعير في الأقوات ، ووجب التسعير في الأصناف الأخرى ، وهو ما رآه ابن تيمية – رحمه الله – من وجوب التسعير في البضائع والصنائع التي يحتاجها الناس ، وتشح عليهم ، ويمتنع منها أربابها) [٨] .

---

١ . النظام الاقتصادي في الإسلام ، أحمد العسال ، ص ١٦٢ . ٢ . سورة الأعراف ، آية ٨٥ .

٣ . سورة الإسراء ، آية ٣٥ . ٤ . سورة المطففين ، الآيات ١ – ٦ .

٥ . انظر صفحة ١٣ من هذا البحث .

٦ . أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب المساقاة ، رقم ١٦٠٥ ، ٣ / ١٢٢٧ .

٧ . أخرجه أحمد في مسنده عن أنس بن مالك ، رقم ١٣٩٩٩ ، ١١ / ٣٤٠ ، وقال المحقق : إسناده صحيح .

٨ . انظر النظام المالي والاقتصادي في الإسلام ، نورين ، ص ١٨٥ .

١ . بناؤه على أسس اعتقادية قائمة على تصور عام للوجود والإنسان ، وما ينجم من هذه الأسس من دوافع إيمانية بنّاءة [١] .

٢ . أدواته المالية ، ووسائله في جمع إيراداته من موارد كالزكاة والخراج والغنائم ، والنفقات العامة ... وغير ذلك ، هي كأدوات أي نظام مالي حديث .

٣ . يخضع لنظام الرقابة سواء كانت إدارية أو سياسية ، ويمتد هذا الإشراف من أعلى المستويات – رئيس الدولة – إلى المسئولين الآخرين بالولايات ، فرسول الله ﷺ كان يشرف على المال ويراقب المتعاملين فيه بنفسه ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه : (أن رسول الله ﷺ مر على صُبرة طعام فأدخل يده فيها . فنالت أصابعه بللاً ، فقال : " ما هذا يا صاحب الطعام ؟ " قال : أصابته السماء يا رسول الله ! قال : (أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس ؟ من غش فليس مني) [٢] .

٤ . استهدافه لأهداف أخلاقية، بدلا من هدف الإنتاج والربح المادي ، وجعل الدوافع الإنسانية محركات للنظام ومنفذات له [٣] .

٥ . بناء النظام على تشريع مبني على قواعد كلية ، وأهداف اجتماعية واضحة ، ومقترن بتأييد السلطة بالإضافة إلى وازع الضمير والدين [٤] .

٦ . للنظام المالي والاقتصادي في الإسلام قواعده التنفيذية التي تتضافر مع التخطيط المالي لتعبئة موارده ، وضمان توريد المتحصل في موعده لبيت المال – الخزانة العامة للدولة – كما هو الحال في الخراج [٥] .

٧ . يمتاز بأساس التعاون والتكافؤ بدلاً من التنافس والتصارع ، وذلك نتيجة لتطبيق قواعده التشريعية ، وانعكاساً لمفاهيمه العقائدية والأخلاقية [٦] .

٨ . يقوم على مبدأ التوازن بين حرية الفرد ومصلحة المجتمع ، وجمعه بالتالي بين حرية الفرد وتدخل الدولة إقراراً للعدالة والتكافل ، ومنعاً للظلم والاستغلال [٧] .

٩ . اتصافه بثبات الاتجاهات والأسس ، ومرونة التطبيق والأساليب ، وقابليتها للتبديل بحسب الأطوار والملابسات [٨] .

١٠ . (مراعاته للقواعد الحديثة التي أشار إليها علماء المالية العامة ، والقواعد التي وضعها " آدم سميث " ، والتي كان له السبق فيها ، قبل أن تعرفها الإنسانية بقرون طويلة ، وهي : العدالة ، واليقين ، والملائمة ، والاقتصاد :

---

١ . انظر نظام الإسلام (الاقتصاد) ، محمد المبارك ، ص ١٥٧ .

٢ . النظام المالي ، نورين ، ص٢١١ وما بعدها ، والحديث أخرجه مسلم في صحيحه ، رقم ١٤٦ ، ١ / ٩٩ .

٣ . انظر نظام الإسلام (الاقتصاد) ، محمد المبارك ، ص ١٥٧ .

٤ . انظر المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

٥ . النظام المالي ، نورين ، ص٢١١ وما بعدها .

٧ . انظر نظام الإسلام (الاقتصاد) ، محمد المبارك ، ص ١٥٧ .

٨ . انظر المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

أ . فالعدالة تتحقق بنسبة فئة الإيراد أو بتصاعده ، فروعيت النسبية في الزكاة (ربع العشر وغيره) ، والتصاعدية في زكاة الأنعام خاصة ، وروعي التصاعد بحسب حال المكلف في الجزية ، وروعي في فئات الخراج نوعية الأرض وخصوبتها ، وروعي في العشور مبدأ التعامل بالمثل ، وهي الضرائب المفروضة على الحربيين .

ب . اليقين : ويتحقق في الموارد الإسلامية بوضوح أركان المورد كسعره ووعائه والخاضعين له ، والمعفون منه ، ووقت تحصليه كما في الخراج .

ج . الملائمة : فقد روعي في أوقات التحصيل ومواعيد الجباية ملائمتها للدافعين ، تيسيراً ورحمة بهم كما في الزكاة .

د . الاقتصاد : ويتضح في الأساليب الخاصة لتنظيمات النظام المالي والاقتصادي في الإسلام ، وبتطبيق نظم الرقابة المالية ، فمثلاً جباية الزكاة وصرفها لا تكلف الدولة إلا القليل ، والرقابة – أيضا – يقوم بجانب كبير فيها المحتسب المتطوع بدون مقابل) [١] .

معالم من فقه الواقع الاقتصادي في قصة سيدنا شعيب عليه السلام

كانت دعوة سيدنا شعيب – عليه السلام – خالصة في توحيدها لله عز وجل : ﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾ [٢] ، وواقعية في معالجتها للفساد الاقتصادي والفوضى المالية التي كانت تحيط بهذا المجتمع وتزلزل أركانه .

ومعالم فقه الواقع هنا نلمسها في فهم سيدنا شعيب لأحوال بيئته الاقتصادية ، ومعايشته لها عن كثب ، وإدراكه لما ينجم عن هذا الواقع من هبوط في الأخلاق ، وتفكك في البنية الاجتماعية ، لذلك نجده يضع خططاً عملية في تصحيح المسار من خلال الواقع نفسه ، نلخصها فيما يلي :

١ . حذرهم من الغش التجاري والتطفيف في الكيل والميزان : ﴿**قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ**﴾ [٣] ؛ (لأن النشاط الاقتصادي في معظمه نشاط كمي يقوم على المقاييس المختلفة التي تضبط الحقوق والالتزامات في التعامل بين الناس من مكاييل وموازين وعدد ، وأي خلل فيها يربك الحياة الاقتصادية ويؤدي إلى اختلالات عديدة وظلم فادح) [٤] .

وهذه الدعوة تأكدت في رسالة المصطفى – صلى الله عليه وسلم – إلى قومه : ﴿**وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ**﴾ [٥] .

وقد دلت عبارة (**وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ**) على أنهم كانوا يتواصون على هضم الغريب وبخسه ، وإن كانت تشمل بخس أنفسهم كذلك [٦] .

---

١ . انظر النظام المالي ، نورين ، ص ٢١٣ وما بعدها. ٢ . سورة هود ، آية ٨٤ .

٣ . سورة الأعراف ، آية ٨٥ . ٤ . دروس اقتصادية من حياة شعيب ، الموقع العالمي للاقتصاد الإسلامي tiegs .

٥ . سورة المطففين ، الآيات ١– ٣ . ٦ . قصص الأنبياء ، حمزة النشرتي وآخرون ، ٣ / ١١ .

قال الرازي – رحمه الله – في تفسير الآية : والمراد أنه لما منع قومه من البخس في الكيل والوزن منعهم بعد ذلك من البخس والتنقيص بجميع الوجوه ، ويدخل منه المنع من الغصب والسرقة ، وأخذ الرشوة ، وقطع الطريق ، وانتزاع الأموال بطريق الحيل [١] .

٢ . ومن إفسادهم ما كانوا يقومون به من إشاعة الفوضى وقطع الطريق على المارة ونهبهم ، وأخذ أموالهم بالباطل عن طريق المكوس والضرائب الظالمة – غير المباشرة – على السلع والخدمات عند التعامل بها في الأسواق ويفهم ذلك من قوله لهم : ﴿وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ [٢] .

٣ . وفي تدخله – عليه السلام – بإيفاء الكيل والميزان وعدم إنقاصهما وعدم بخس الناس أشياءهم ، تقييد للحرية الاقتصادية المنفلتة من كل قواعد أو ضوابط ، فقد قالوا : ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [٣] ، وهنا درس في عدم ترك السوق حرة طبقاً لقاعدة البقاء للأقوى مما يؤدي إلى انتشار الممارسات الاحتكارية غير الأخلاقية التي تضر بالسوق ، وبالاقتصاد القومي [٤] .

٤ . كان يأمل منهم أن يرجعوا إلى رشدهم ويعودوا إلى ربهم ، بقوله : ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾ [٥] أي : (حذرهم من غلاء السعر وزوال النعمة إن لم يتوبوا فكأنه قال : اتركوا هذا التطفيف وإلا أزال الله عنكم ما حصل عندكم من الخير والراحة) [٦] ، وبقوله ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ [٧] ، كأن أراد أن يقول لهم : راعوا جانب الله . لا تنسوه في بيعكم وشرائكم ، استحضروا هيبته ومحاسبته لكم عند عقد صفاقتكم وجني أرباحكم [٨] .

والنتيجة كانت بأن خسروا ما جنوه من تطفيف في الكيل والوزن ، وخسروا ما كانوا يكتسبونه من وراء الوساطة والسمسرة والتعشير والتمكيس وغير ذلك من وسائل تعرفها الأسواق التجارية جيداً ، قال تعالى واصفاً هذه النتيجة المهلكة : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [٩] ، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ [١٠] .

---

١ . انظر مفاتيح الغيب ، الرازي ، ٧ / ١٤٢ .

٢ . انظر قصص الأنبياء ، حمزة النشرتي ٣ / ١٣ ، وموقع الاقتصاد الإسلامي على الشبكة العنكبوتية ، مقال حول دروس اقتصادية من حياة شعيب ، والآية رقم ٨٦ من سورة الأعراف .

٣ . سورة هود ، آية ٨٧ .

٤ . انظر موقع الاقتصاد الإسلامي tiegs على الشبكة العنكبوتية ، مقال حول دروس اقتصادية من حياة شعيب .

٥ . سورة هود ، آية ٨٤ .

٦ . مفاتيح الغيب ، الرازي ، ٩ / ٣٣ .

٧ . سورة هود ، آية ٨٦ .

٨ . قصص الأنبياء ، حمزة النشرتي وآخرون ، ٣ / ٢٢ .

٩ . سورة هود ، الآيتان ٩٤ ، ٩٥ .

١٠ . سورة الأعراف ، الآيتان ٩١ ، ٩٢ .

المبحث الثالث
فقه الواقع السياسي

أولاً . تعريف فقه الواقع السياسي .

هو فهم ووعي فنون العمل السياسي ومهاراته ، واستيعاب البيئة السياسية وما يحيط بها من مؤثرات ، وذلك لترشيدها والنهوض بها ، والاستفادة منها في الحقل الإسلامي .

وبشيء من التفصيل يمكن القول ، أن فقه الواقع السياسي : هو الوعي والدراية بما يحتويه الواقع السياسي من فنون قيادة وتدبير ، وطرائق حكم وتنفيذ ، مع استصحاب الأسس والقواعد المستمدة من السياسة الشرعية التي تضبط وتنظم الواقع السياسي وتطبيقاته العملية ، وصولاً إلى ترشيد الحكم وبناء الدولة ؛ لتحقيق الشهود الحضاري والحفاظ على مقدرات الأمة وإعمال طاقاتها المعطلة .

هذا النوع من الفقه الواقعي ، له ما يؤيده في مرجعية القرآن والسنة ، وله ما يؤكده في مسيرة التاريخ الإسلامي والعمل الإسلامي المعاصر .

ومما يشهد لذلك قول الله تعالى : ﴿**الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾ [١] ، وهي تشير إلى اهتمام الصحابة – رضوان الله عليهم – بواقعهم السياسي وملابساته ، وبالبيئة العالمية وما يحيط بها من صراعات واستراتيجيات ، قد تؤثر على مستقبل الدعوة وتحركها ، وهي لا زالت وليدة في أكناف البيت الحرام .

فالقصة كما وردت في كتب التفسير تقول : إنه قامت الحرب بين الفرس والروم فانتصر الفرس على الروم ، وحزن المسلمون لهذا الأمر ؛ لأن الروم أهل كتاب بخلاف الفرس ، فقام أبوبكر رضي الله عنه وراهن أحد المشركين على انتصار الروم على الفرس وحدد لذلك أجلاً قصيراً ، فأخبر أبوبكر رضي الله عنه الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك فأقره وأمره بزيادة مدة الأجل إلى عشر سنين ففعل أبوبكر [٢] .

وهذه الآيات الكريمة من كتاب الله تدلنا على أمرين [٣] .

١ . مدى وعي المجموعة المسلمة على قلتها وضعفها المادي بأحداث العالم الكبرى ، وصراع العمالقة من حولها وأثره عليها إيجاباً وسلباً .

٢ . تسجيل القرآن لهذه الأحداث ،وتوجيه النظر إلى عوامل التغير والانتقال من الواقع إلى المتوقع في ضوء السنن .

---

١ . سورة الروم ، الآيات ١ . ٥ .

٢ . انظر التأصيل الشرعي لفقه الواقع ، الهسنياني ، ص ٦٤ ، نقلاً عن تفسير ابن كثير ، ٥ / ٧١ .

٣ . الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة ، القرضاوي ، ص ١٢٢ .

ومما يشهد لهذا الفقه أيضاً ، قول الرسول – ﷺ – لأصحابه : (لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه) [١] .

فتوجيهاته – ﷺ – تدل على معرفته بالظروف السياسية والجغرافية والبيئية للحبشة ، وأن فيها ملكاً عادلاً لا يظلم عنده أحد ، وأن المهاجرين سيجدون عنده الأمن بعد الخوف ، والاستقرار بعد الاضطراب .

ومن ثم كان يبحث الرسول – ﷺ – عن قاعدة أخرى غير مكة ، قاعدة تحمي هذه العقيدة وتكفل لها الحرية ، ويتاح لها أن تخلص من هذا التجميد الذي انتهت إليه في مكة ، حيث تضفر بحرية الدعوة ، وبحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة ... وهذا في تقديري هو السبب الأهم للهجرة [٢] .

فالثقل الكبير للمسلمين قد انتقل إلى الحبشة ، فأن يغادر مكة ثلاثة وثمانون رجلاً وتسع عشرة امرأة يعني هذا أن قوة ضخمة وتجمعاً كبيراً قد قام في قطر آخر وبعيد عن مكة ، وعن متناول يدها ، يستطيع أن ينتشر ويتضخم ويهدد وجود مكة ذاتها [٣] .

بالإضافة إلى ما تقدم من أمثلة في مجال فقه الواقع السياسي ، نلمسه أيضاً في : السياسة الدبلوماسية لرسول الله ﷺ في صلح الحديبية ، وفي رسائله إلى الملوك والرؤساء والأمم ، وفي اختياره المدينة كمعقل جديد للدعوة وموطأ لبناء الدولة . كما نجده في السياسات الداخلية والخارجية التي انتهجها الخلفاء والملوك من بعده ؛ لتوطيد أركان الدولة الإسلامية ، وتقوية لبنات المجتمع المسلم .

ثانياً . مفهوم السياسة الشرعية .

السياسة من مادة سوس ، والسوس : الرياسة ، وساس الأمر سياسة : قام به ، والسياسة : القيام على شيء بما يصلحه ، والسياسة : فعل السائس ، يقال : هو يسوس الدواب إذا قام عليها وراضها ، والوالي يسوس رعيته [٤] .

وفي الحديث : (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ...) [٥] ، أي تشرف على رعايتهم وتتولى قيادتهم .

إن مفهوم السياسة لم يتعامل معه بالتعريف الذي وضعه المسلمون له ، وإنما بالدلالات المعاصرة للمفهوم ، والتي تعني القوة والسلطة والدولة وغيرها ، في حين إن استخدام المسلمين لهذا المفهوم يرتبط بالمصلحة والإصلاح والتدبير والرعاية والتربية والتوجيه ... الخ [٦] .

وهو يعود إلى الانفصام والتنافر الذي حصل ولا يزال بين الدين والسياسة أو الشريعة ومناحي الحياة .

---

١ . السيرة النبوية لابن هشام ، ١ / ٣٢٢ .

٢ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ١ / ٢٩ .

٣ . انظر المنهج الحركي للسيرة النبوية ، منير الغضبان ، ص ٤٩ .

٤ .انظر لسان العرب ، ابن منظور ، ٦ / ١٠٨ .

٥ . متفق عليه ، عن أبي هريرة ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الإمارة ، رقم ١٢٠٨ ، ص ٣٩٩ .

٦ . في مصادر التراث السياسي الإسلامي ، نصر محمد عارف ، ص ٨٦ .

لقد جاء الإسلام نظاماً وإماماً ، ديناً ودولة ، تشريعاً وتنفيذاً ، فبقي النظام وزال الإمام ، واستمر الدين وضاعت الدولة ، وازدهر التشريع وذوى التنفيذ ، أليس هذا الواقع ... [١]

وترتب على هذا الإقصاء بروز السياسة اللادينية الميكافيلية ، التي تقوم على استبعاد العنصر الأخلاقي ، وعلى أن الغاية تبرر الوسيلة ، فتبيح لنفسها الكذب والتضليل والخداع ، والرذائل والمنكرات ، لتحقيق مآربها والضرب بالحديد والنار على خصومها والتنكيل بهم ، وما إلى ذلك من الوسائل الدنيئة المعروفة .

أما عناية القرآن بالواقع السياسي فتنبثق من فكرة شمول الإسلام : (فهو يشمل الحياة كلها بتشريعه وتوجيهه . رأسيا منذ يولد الإنسان حتى يتوفاه الله . بل من قبل أن يولد ، وبعد أن يموت ، حيث هناك أحكام شرعية تتعلق بالجنين ، وأحكام تتعلق بالإنسان بعد موته .
وأفقياً : حيث يوجه الإسلام المسلم في حياته الفردية والأسرية والاجتماعية والسياسية ، من أدب الاستنجاء إلى إقامة الحكم ، وعلاقات السلم والحرب) [٢] .

فالإسلام عقيدة وعبادة ، ووطن وجنسية ، وسماحة وقوة ، وخلق ومادة ، وثقافة وقانون . وأن المسلم مطالب بحكم إسلامه أن يعنى بكل شؤون أمته ، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم [٣] .

قال الإمام الغزالي – رحمه الله – : الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا يتم الدين إلا بالدنيا ، والملك والدين توءمان ، فالدين أصل والسلطة حارس ،وما لا أصل له فمهدوم ، وما لا حارس له فضائع ، ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان [٤].

فالإسلام لا يفرق بين الدين والدولة ، فكما تكلم القرآن الكريم عن الله وقرر وحدانيته ، وعن الجنة والنار ، والثواب والعقاب ، وكما قرر وجوب الصوم والصلاة ، وكما حث على مكارم الأخلاق ، كذلك شرّع القوانين عن البيع والإجارة والرهن والحدود والميراث والحروب والزواج والطلاق وغيرها ، وكان الرسول – ﷺ – يفسر القرآن ويصدر الفتاوى ، ويؤم الناس في الصلاة ، كما كان يقود الجيوش ويضع معاهدات الصلح ويعيّن الولاة ويبعث البعوث ، وكذلك كان خلفاؤه من بعده ، ومن أجل هذا كان من شروط الخليفة أن يكون عالماً علماً يؤدي إلى الاجتهاد [٥] .

إن علم السياسة الشرعية : يبحث فيه عما تدبر به شؤون الدولة الإسلامية من القوانين والنظم التي تتفق وأصول الإسلام ، وإن لم يقم على كل تدبير دليل خاص [٦] .

---

١ . مجموعة الرسائل ، حسن البنا ، ص ٣١٦ .
٢ . من فقه الدولة في الإسلام ، القرضاوي ، ص ٢٣ .
٣ . مجموعة الرسائل ، حسن البنا ، ص ٢٩٧ .
٤ . إحياء علوم الدين ، الغزالي ، كتاب العلم ، ١ / ٥٩ .
٥ . انظر المجتمع الإسلامي ، أحمد شلبي ، ص ١٧٧ ، نقلاً عن الأحكام السلطانية ، الماوردي ، ص ٥ وما بعدها .
٦ . السياسة الشرعية ، عبد الوهاب خلاف ، ص ٥ .

يقول ابن قيم الجوزية – رحمه الله – : (ومن له ذوق في الشريعة ، واطلاع على كمالاتها ، وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد ، ومجيئها بغاية العدل الذي يسع الخلائق ، وأنه لا عدل فوق عدلها ، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح ، تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزائها ، وفرع من فروعها ، وأن من له معرفة بمقاصدها ووضعها وحسن فهمه فيها لم يحتج معها إلى سياسة غيرها البتة .

فإن السياسة نوعان : سياسة ظالمة فالشريعة تحرمها ، وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر ، فهي من الشريعة علمها من علمها وجهلها من جهلها) [١] .

أما الفقه السياسي الإسلامي : فهو الفهم الدقيق لشؤون الأمة الداخلية والخارجية ، وتدبير هذه الشؤون في ضوء أحكام الشريعة وهديها [٢] .

والسياسي الإسلامي : هو الذي يهتم بشؤون أمته ، ويدرك واقعها السياسي بعمق فهمه ، ويعالجه بتوجيهات الإسلام وضوابط الشرع .

فالعلم بالسياسة وواقعها من صفات العالم الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره [٣] ، والعلماء الربانيون كما قال عنهم مجاهد : هم فوق الأحبار ؛ لأن الأحبار هم العلماء ، والرباني الجامع إلى العلم والفقه البصر بالسياسة ، والتدبير والقيام بأمور الرعية ، وما يصلحهم في دنياهم ودينهم [٤] .

ثالثاً . الأصول والقواعد المستصحبة في فقه الواقع السياسي .

يرتكز فقه الواقع السياسي في القرآن الكريم على ست دعائم أساسية ، وهي :

١ . الاحتكام لشريعة الله . ٢ . العدل والمساواة . ٣ . الطاعة .

٤ . تحقيق الحرية . ٥ . الشورى . ٦ . حق الأمة في مساءلة الحاكم والمراقبة والنقد .

١ . الاحتكام لشريعة الله .

هذه هي القاعدة الأساس التي يجب أن نفهم الواقع السياسي من خلالها ، وهي وجوب تحكيم شريعة الله في قمة الهرم السياسي ؛ لأن الإسلام كما هو عقائد وعبادات ، هو أيضا نظام واقعي ، ومنهج حياة عملي : قال تعالى : ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً**﴾ [٥] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [٦] .

والحكم معدود في كتبنا الفقهية من العقائد والأصول لا من الفقهيات والفروع ، فالإسلام حكم وتنفيذ ، كما هو تشريع وتعليم ، كما هو قانون وقضاء ، لا ينفك واحد منهما عن الآخر [٧] .

---

١ . الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ، ابن قيم الجوزية ، ص ١٨ . ٢ . الفقه السياسي الإسلامي ، خالد الفهداوي ، ص ٧٥ .

٣ . انظر الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، ٢ / ٤٨٦ ، نقلاً عن البخاري ، فتح البارئ مع صحيح البخاري ، كتاب العلم ، ١ / ٢٠٠ .

٤ . جامع البيان في تأويل آي القرآن ، الطبري ، ٣ / ٣٢٧ .

٥ . سورة النساء ، آية ٦٥ . ٦ . سورة الجاثية ، آية ١٨ .

٧ . مجموعة الرسائل ، حسن البنا ، ص ١٨٦ .

يقول الأستاذ عبد القادر عودة – رحمه الله – [١] : ولست أدري كيف يؤمن هؤلاء بالإسلام عقيدة ولا يؤمنون به نظاماً ، أتراه عقيدة من عند الله ، ونظاماً من عند غير الله ؟ : ﴿قُل كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾ [٢] .

قال صاحب الظلال : (وليس لأحد من خلق الله أن يشرع غير ما شرع الله وأذن به كائناً من كان . والله وحده هو الذي يشرع لعباده بما أنه – سبحانه – هو مبدع هذا الكون ومدبره بالنواميس الكلية الكبرى التي اختارها الله له . والحياة البشرية إن هي إلا ترس صغير في عجلة هذا الكون الكبير ، فينبغي أن يحكمها تشريع يتمشى مع تلك النواميس ، ولا يتحقق هذا إلا حين يشرع الله المحيط بتلك النواميس . وكل ما عدا الله قاصر عن تلك الإحاطة بلا جدال فلا يؤتمن على التشريع لحياة البشر مع ذلك القصور .

ومع وضوح هذه الحقيقة إلى حد البداهة ، فإن الكثيرين يجادلون فيها ، أو لا يقتنعون بها ، وهم يجرؤن على استمداد التشريع من غير ما شرع الله ، زاعمين أنهم يختارون الخير لشعوبهم ، ويوائمون بين ظروفهم والتشريع الذي ينشئونه من عند أنفسهم . كأنما هم أعلم من الله وأحكم من الله ! أو كأنما لهم شركاء من دون الله يشرعون لهم ما لم يأذن به الله . وليس أخيب من ذلك وأجرأ على الله) [٣] .

قال تعالى في وجوب الاحتكام إلى كتابه ، وسنة رسوله : ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [٤] .

يقول ابن كثير في تفسير الآية : وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع إلى الكتاب والسنة ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [٥] ، فما حكم به الكتاب والسنة ، وشهدنا له بالصحة فهو الحق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ، ولهذا قال تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي : ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله ، فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، فدل على أنه ما لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ، ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمناً بالله واليوم الآخر [٥] .

(إن الحاكم والشعب كليهما مقيد بما جاء به الإسلام في الكتاب والسنة من أحكام تشريعية ، ولا حق لهما معاً ، ولا لأحدهما في التشريع من عند نفسه ، خارجاً عن حدود هذه الأحكام . إن هذا القيد ملزم للحاكم فلا حق له أن يتصرف برأيه وهواه فذلك يعتبر بحقه كفرا لشريعة الله إذا كان الدافع له إنكار أصل الشريعة والإصرار على معارضتها : ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [٦] .

---

١ . محام من علماء الشريعة والقانون بمصر ،كان من قيادات جماعة الإخوان المسلمين ووكيلاً لها، ولما أمر جمال عبد الناصر بتنظيم محكمة الشعب كتب نقداً لتلك المحكمة ، واتهم بالمشاركة في حادث المنشية ، وعلى إثرها أعدم وبعض إخوانه.له تصانيف، منها: الإسلام وأوضاعنا القانونية ، الإسلام وأوضاعنا السياسية،التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي ، الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه .انظر الأعلام ٤ / ٤٢ .

٢ . المال والحكم في الإسلام ، عبد القادر عودة ، ص ٩٣ .

٣ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٢ / ٣١٥٢ .

٤ . سورة النساء ، آية ٥٩ .

٥ . تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ٢ / ٣١٣ .

٦ . سورة المائدة ، آية ٤٤ .

ويعتبر ظلماً وطغياناً إذا كان الدافع له الهوى والمصلحة والإعراض عن الحق من غير إنكار لأصل الشريعة ووجوب تنفيذها وإقامتها : ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١) ، وكذلك الشعب ليس له الخروج على الشريعة أو تبديل شيء منها مما ليس فيه مجال للاجتهاد ، وعليه أن يذعن لحكمها : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾ (٢) ، ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (٣) .

وبناءً على ما تقدم يكون للتشريع نوعين :

أ . تشريع حددته الشريعة ، ولا مجال لتغييره ويجب على الحاكم والشعب التقيد به .

ب . تشريع متروك للاجتهاد ، كتحديد العقوبات التعزيرية ، وتحديد طريقة الشورى في الحكم ، وتحديد حقوق ما سوى الزكاة في الأموال ...الخ) (٤) .

٢ . العدل والمساواة .

العدل من أهم الركائز التي يجب استحضارها عند التعامل مع الواقع السياسي بصفة خاصة ، وفي كل مناحي الحياة بصفة عامة ؛ لأنه به تصان الحقوق وتستقر الأمور ، وتنعم الإنسانية في ظله بالأمن والسلام .

وهو مبدأ أساسي ألحَّ القرآن في طلبه ، وجعل القيام به هدف الرسالات السماوية بعد الإيمان بالله الواحد ، قال ﷻ : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (٥) .

إن الإسلام اهتم بتقرير هذه القاعدة وتأسيسها وتدعيمها فأكثر الحديث عنها في الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة ، فركز على أن الناس سواسية ومتساوون أمام القانون ، وعنى كتّاب الفقه السياسي – كأمثال الماوردي وأبو يعلى الفراء (٦) وابن تيمية – بالكتابة عن هذه القضية وطرق تحقيق العدل في الرعية ، والترغيب في إقامة العدل ، والترهيب من الظلم ، والشروط التي ينبغي أن تتوافر في الحكم ، وموقف الأمة من الحاكم إذا جار وظلم ، وغير ذلك مما يتعلق بهذه القاعدة (٧) .

والعدل الذي أوجبه الله هو العدل المطلق الذي ينتظم جوانب الحياة جميعاً ، فهو عدل في الحكم بين الناس : ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (٨) ، ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (٩) .

وعدل في القول والشهادة : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ (١٠) .

---

١ . سورة المائدة ، آية ٤٥ . ٢ . سورة الأحزاب ، آية ٣٦ .

٣ . سورة النساء ، آية ٦٥ . ٤ . نظام الإسلام – الحكم والمال – ، محمد المبارك ، ص ٣١ .

٥ . انظر المصدر السابق ، ص ٤٥ ، والآية رقم ٢٥ من سورة الحديد .

٦ . هو محمد بن الحسين ابن الفراء ، عالم في الأصول والفروع وأنواع الفنون من أهل بغداد ، وشيخ الحنابلة في عصره ، وولاه القائم قضاء دار الخلافة وحران وحلوان ، ومن تصانيفه : الإيمان ، الأحكام السلطانية ، الكفاية في أصول الفقه ، مقدمة في الأدب ،المجرد في فقه الإمام أحمد ، وتوفي سنة ٤٥٨ هـ . انظر شذرات الذهب ٣ / ٣٠٦ ، طبقات الحنابلة ٢ / ١٩٣ ، الوافي بالوفيات ٣ / ٨ ، الأعلام ٦ / ٩٩ .

٧ . انظر النظام السياسي في الإسلام ، د / محمد عبد القادر أبو فارس ، ص ٥٧ .

٨ . سورة النساء ، آية ٥٨ . ٩ . سورة الأعراف ، آية ١٨١ . ١٠ . سورة الأنعام ، آية ١٥٢ .

وعدل عند كتابة الوثائق : ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ (١) .

وعدل في مقاليد الدولة ، وشؤون الحكم ، قال رسول ﷺ : (في أول السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ...) (٢) .

قال الإمام الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (٣) : أجمعوا على أن من كان حاكما وجب عليه أن يحكم بالعدل (٤) .

وقال ﷺ : (إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا) (٥).

وعدل عند الصلح بين المتخاصمين : ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٦) .

وعدل بين الأولاد ، قال رسول الله – ﷺ – : (... فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم) (٧) .

كما أن الله أمر رسوله ﷺ ، وعباده المؤمنين أن يتجردوا من الهوى ، ويحكموا بالعدل ، ولو مع خصومهم وأعدائهم ، قال تعالى : ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ (٨) ، ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (٩) .

وفي خطاب نبي الله داود – عليه السلام – يقول جل شأنه : ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (١٠) .

نماذج وشواهد للعدل من الواقع السياسي والتاريخي للأمة الإسلامية.

أ . لما أرسل رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحه ليخرص ثمار خيبر حتى يأخذ منهم نصف الثمار للمسلمين بناء على ما عاملهم الرسول ﷺ أن يبقوا في أرضهم ويكون نصف الثمار والزروع للمسلمين .

ولما وصل إليهم قدموا له صرة من الذهب فقال : أترشونني يا أعداء الله ، والله إنكم لأبغض إلي من القردة والخنازير، ولمحمد أحب إلي من نفسي التي بين جنبي ، ولكن بغضي لكم وحبي لمحمد ﷺ لا يمنعني أن أعدل ؛ لأن الله يقول : ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (١١) فخرص الثمار دون أن يظلم طرفاً من الطرفين (١٢) .

---

١ . سورة البقرة ، آية ٢٨٢ . ٢ . متفق عليه ، عن أبي هريرة ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الزكاة ، رقم ٦١٠ ، ص ١٨٤ .
٣ . سورة النساء ، آية ٥٨ . ٤ . انظر مفاتيح الغيب ، الرازي ، ٥ / ١١٣ .
٥ . أخرجه مسلم في صحيحه ، عن زهير ، كتاب الإمارة ، رقم ١٨٢٧ ، ٣ / ١٤٥٨ .
٦ . سورة الحجرات ، آية ٩ . ٧ . أخرجه البخاري عن النعمان بن بشير ، فتح البارئ ، كتاب الهبة ، قم ٢٥٨٧ ، ٥ / ٢٦٤ .
٨ . سورة الشورى ، آية ١٥ . ٩ . سورة المائدة ، آية ٨ .
١٠ . سورة ص ، آية ٢٦ . ١١ . سورة المائدة ، آية ٨ .
١٢ . انظر في ظلال القرآن ، ٢ / ٧٧٦ .

ب . أبوبكر الصديق – رضي الله عنه – يقول في أول خطبة له بعد أن تولى الخلافة : وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن صرفت فأقيموني ، القوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوي حتى آخذ له حقه [١] .

ج . سابق ابن عمرو بن العاص – والي مصر – رجل من أقباط مصر على فرس له فسبقه ، فعز على ابن الحاكم العربي المسلم أن يسبقه أحد الرعية ، فضربه بالسوط ، وهو يقول : خذها وأنا ابن الأكرمين ، فلما عرضت القضية على خليفة المسلمين عمر بن الخطاب أرسل إلى عمرو وابنه أن يوافياه في موسم الحج لهذا العام ، ولما أتياه أعطى المصري درته [٢] ، وقال له : اضرب ابن الأكرمين ، ثم قال قولته الخالدة : متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟! [٣] .

د . عندما استخلف عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – وفد عليه قوم من أهل سمرقند ، فعرضوا إليه أن قتيبة [٤] دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر ، فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروا ، فإن قضى بإخراج المسلمين أخرجوا ، فنصب لهم جميح بن حاضر البادي ، فحكم بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سواء ، فكره أهل سمرقند الحرب ، وأقروا المسلمين فأقاموا بين أظهرهم [٥] .

هـ . أفتقد الخليفة علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – درعه ، فوجدها مع نصراني فأقبل به يقاضيه إلى شريح القاضي [٦] ، وقال : إنها درعي ، ولم أبع ولم أهب ، فسأل شريح النصراني ، ما تقول فما يقول أمير المؤمنين ؟ قال : ما الدرع إلا درعي ، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب ، فالتفت شريح إلى علي يسأله : يا أمير المؤمنين ، هل من بينة ، فضحك علي وقال : أصاب شريح مالي بينة ، فقضى بالدرع للنصراني فأخذها ومشى ، وأمير المؤمنين ينظر .. ثم عاد النصراني بعد خطوات خطاها ، وهو يقول : أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه ، فيقضي عليه ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، الدرع درعك يا أمير المؤمنين ، اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين ، فخرجت من بعيرك الأورق ، فأخذتها ، فقال علي : أما إذ أسلمت فهي لك [٧] .

---

١ . انظر البداية والنهاية ، ابن كثير ، ابن كثير ٦ / ٣٢٠ .

٢ . الدرة : العصا أو السوط ، المعجم الوسيط ، ١ / ٢٧٩ .

٣ . منهج القرآن في إصلاح المجتمع، محمد السيد يوسف، ص ١٧٥، نقلا عن نحو مجتمع إسلامي ، سيد قطب ص ١٢٩، دار الشروق – ١٩٨٧.

٤ . هو قتيبة بن مسلم الباهلي ، فاتح وأمير من مفاخر العرب ، نشأ في الدولة المروانية ، فولي الري وخراسان ، وغزا بلاد ما وراء النهر وافتتح كثيراً من مدنها كخوارزم وسجستان وسمرقند وغزا أطراف الصين ، وأذعنت له بلاد ما وراء النهر واستمرت ولايته ثلاث عشرة سنة ، ومات غيلة في أيام سليمان عبد الملك سنة ٩٦ هـ . كان مع بطولته دمث الأخلاق داهية ، ومكثر لراوية الشعر . انظر وفيات الأعيان ٣ / ٥١٢ ، شذرات الذهب ١ / ١١٢ ، الأعلام ٥ / ١٨٩ .

٥ . النظام السياسي في الإسلام ، أبو فارس ، ص ٥٣ ، نقلا عن فتوح البلدان ، البلاذري ، المطبعة المصرية ، الطبعة الأولى – ١٩٣٢م .

٦ . هو شريح بن الحارث بن قيس الكندي ، من أشهر القضاة الفقهاء في صدر الإسلام ، وأصله من اليمن ، وولي قضاة الكوفة في زمن عمر وعثمان وعلي ومعاوية ، واستعفى في أيام الحجاج فأعفاه سنة ٧٧ هـ ، وكان ثقة في الحديث مأموناً في القضاء ، وله باع في الأدب والشعر ، ومات بالكوفة سنة ٧٨ هـ . انظر وفيات الأعيان ٢ / ٣٨٢، الوافي بالوفيات ١٦ / ٨٢، شذرات الذهب ، الأعلام ٣ / ١٦١ .

٧ . البداية والنهاية ، ابن كثير ، ٧ / ٣٨٢ .

هذا ، ولم تكن نماذج العدل في عصور الإسلام الذهبية ، محصورة في حوادث فردية مما قد يقع نظيره بين الحين والحين ، ولكنها كانت منهاجاً عاماً وخطة ثابتة ، مع الأفراد والجماعات والشعوب على السواء مما يثبت للمجتمع الإسلامي سبقه في العدالة الإنسانية ، وتحقيق هذه العدالة بين الجميع في واقعه التاريخي [١] .

والمساواة هي إفراز طبيعي ، ونتيجة واقعية لترجمة العدل المنصوص عليه في التوجيهات الإلهية ، في مناخ الحياة العام ، وفي تعامل الناس مع بعضهم بعضاً : ﴿**يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً**﴾ [٢] ، ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [٣] .

والمتأمل لأحكام القرآن يجد المساواة واضحة في العبادات والمعاملات والعقوبات وغيرها ، ففي الصلاة يقف المسلمون في صفوف متساوون أمام خالقهم : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [٤] ، والصوم لا يستثنى منه فرد سوى الذين يطيقونه – من المرضى وكبار السن ، وأبناء السبيل ، والذين لم يبلغوا الحلم – ومن في حكمهم ، قال تعالى : ﴿**فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**﴾ [٥] ، والزكاة تجب على كل قادر، ملك نصابها ، واستوفى شروطها : ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا**﴾ [٦] ، والحج يقف فيه المسلمون في صعيد واحد متجردين من المخيط والمحيط ، متساوون أمام خالقهم ، لا فرق بين غني وفقير ، ولا ذكر وأنثى ، ولا أبيض وأسود ، ولا عربي وأعجمي ، إلا بالتقوى والعمل الصالح ،وفي الحدود يقول الرسول ﷺ :(...وايم الله لو أن فاطمة ابنة محمد سرقت لقطعت يدها) [٧] .

بل إن الله – سبحانه – يوم القيامة يضع جميع الأنساب ، ولا يقيم لها وزنا ، ولا يرفع إلا من انتسب إليه سبحانه بعقيدة التوحيد والعبادة والطاعة ، قال تعالى : ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ**﴾ [٨] .

---

١ . منهج القرآن في إصلاح المجتمع ، محمد السيد يوسف ، ص ١٧٧ ، نقلا عن نحو مجتمع إسلامي ، سيد قطب ، ص ١٣٠ ، دار الشروق – ١٩٨٧ م .

٢ . سورة النساء ، آية ١ .

٣ . سورة الحجرات ، آية ١٣ .

٤ . سورة الحج ، آية ٧٧ .

٥ . سورة البقرة ، آية ١٨٥ .

٦ . سورة التوبة ، ١٠٣ .

٧ . متفق عليه ، اللؤلؤ والمرجان ، عن عائشة ، كتاب الحدود ، رقم ١١٠٠ ، ص ٣٤٨ .

٨ . سورة المؤمنون ، آية ١٠١ .

المساواة في السنة النبوية .

اهتمت السنة النبوية بالمساواة بين الناس ، والتي هي ثمرة العدل ، اهتماما بالغا وأولتها عناية فائقة ، وهنا نقتبس بعض الأحاديث التي جاءت في هذا الميدان :

أ . قال رسول الله ﷺ : (تحشرون حفاة عراة غرلا) [١] .

وهذا ما أكده الرسول ﷺ في المساواة في الدنيا قبل الآخرة ، حيث يقول : (يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد ، لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأسود على أحمر ، ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم) [٢] .

وفي ذات الشأن يقول سيدنا عمر – رضي الله عنه – في رسالته إلى أبي موسى الأشعري ، وقد كان والياً على الكوفة : (يا أبا موسى إنما أنت واحد من الناس ، غير أن الله قد جعلك أثقلهم حملاً ، إن من ولي أمر المسلمين يجب عليه ما يجب على العبد لسيده) [٣] .

ب . يقول رسول الله ﷺ : (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) [٤] .

هذا الحديث فيه توجيه لعموم الناس ولأهل الإسلام خاصة ، بأن الأشكال والماديات ليست المقياس في التفاضل بين البشر ، وإنما المعيار الحقيقي هو بالنظر إلى جوهر النفس البشرية وحقيقتها ، وهو القلب الذي بانفعالاته يمد العقل بالأفكار والتصورات التي تترجم في شكل أعمال وسلوكيات في عالم الواقع ، ومحيط الحياة .

٣ . الطاعة .

الطاعة دعامة من دعائم الحكم في الإسلام ، وقاعدة من قواعد نظامه السياسي ، وإن المرء لا يكاد يتصور وجود نظام سليم ، ودولة قوية مستقرة دون أن يكون هناك عدل من الحكام ، وطاعة من الرعية للحكام ، وشورى بين الحكام والمحكومين [٥] .

فلا بد من وجود قيادة – رئيس أو ملك أو وزير – تخطط وتدير شؤون الدولة ، ويكون لها الطاعة والسمع بالمعروف في المصلحة التي ترتئيها لمجتمعها ، ورحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين أشار إلى هذا المعنى بقوله :(يا معشر العرب ، الأرض الأرض إنه لا إسلام إلا بجماعة ، ولا جماعة إلا بإمارة ، ولا إمارة إلا بطاعة) [٦] .

قال ﷻ في وجوب طاعة أولي الأمر : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾ [٧] ، وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول ﷺ قال : (من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن يعصني فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ، ومن يعص الأمير فقد عصاني) [٨] .

---

١ . متفق عليه ، اللؤلؤ والمرجان ، عن عائشة ، كتاب الجنة وصفتها ، رقم ١٨١٧ ، ص ٦٥١ ، وإتمامه ، قالت عائشة: فقلت : يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم لبعض ؟ فقال : الأمر أشد من أن يهمهم ذاك .

٢ . أخرجه البيهقي عن جابر بن عبد الله ، شعب الإيمان ، رقم ٥١٧٣ ، ٤ / ٢٨٩ .

٣ . انظر حياة الصحابة ، الكاندهلوي ، ٢ / ٩١ . ٤ . أخرجه مسلم عن أبي هريرة ، رقم ٢٥٦٤ ، ٤ / ١٩٨٧ .

٥ . النظام السياسي في الإسلام ، أبو فارس ، ص ٦٧ .

٦ . مختصر جامع بيان العلم وفضله ، ابن عبد البر ، عن تميم الداري موقوفاً ، ص ٥٩ . ٧ . سورة النساء ، آية ٥٩ .

٨ . أخرجه مسلم عن أبي هريرة ، كتاب الإمارة ، رقم ١٨٣٥ ، ٣ / ١٤٦٦ .

إلا أن طاعة الحاكم ليست مطلقة ، وإنما هي مقيدة بشروط وضوابط ، نجملها فيما يلي[١] :

أ . أن يكون ولي الأمر مطبقاً للشريعة الإسلامية ، قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾ [٢] .

قال الطبري في تأويل الآية : والصواب في ذلك هو أمر من الله بطاعة رسوله في حياته فيما أمر ونهى ، وبعد وفاته في إتباع سنته ، واختلف أهل التأويل في أولي الأمر، فقال بعضهم الأمراء وقال آخرون هم أهل العلم والفقه ...

ثم قال : والقول في تأويل قوله تعالى : (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول) يعني : إلى كتاب الله ، فإن لم تجدوا إلى ذلك في كتاب الله سبيلاً ، فارتدوا معرفة ذلك في سنة رسول الله – ﷺ – [٣] .

فالله قدم أمره للحكام أولا بأداء الأمانات إلى أهلها ثم أعقبه بأمر المؤمنين بطاعتهم ، إشارة إلى أن هذه الطاعة مشروطة بقيامهم بأداء الأمانات والحكم بالعدل [٤] .

ب . أن يحكموا بالعدل بين الناس ، فإذا قاموا بهذا الواجب فقد وجبت طاعتهم ، وإذا ظلموا وعدوا وجاروا وعسفوا فلا تجوز طاعتهم .

قال الفخر الرازي في تفسيره : اعلم أنه تعالى لما أمر الرعاة والولاة بالعدل في الرعية أمر الرعية بطاعة الولاة ، فقال تعالى :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ** ﴾ [٥] ، وهو يشير إلى الآية التي قبلها في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ﴾ [٦] .

ج . ألا يأمروا الناس بمعصية ، فالأصل في الحاكم المسلم أن يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، فإذا أمر بالمعصية فلا طاعة له ؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

فقد روى الإمام البخاري بإسناده عن علي ابن أبي طالب ﷺ قال : بعث النبي – ﷺ – سرية وأمر عليهم رجلاً من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه ، فغضب عليهم وقال : أليس قد أمر النبي ﷺ أن تطيعوني ؟ قالوا : بلى ، قال عزمت عليكم لما جمعتم حطباً وأوقدتم ناراً ثم دخلتم فيها ، فجمعوا حطباً فأوقدوا ، فلما هموا بالدخول فقام ينظر بعضهم إلى بعض ، فقال بعضهم : إنما تبعنا النبي – ﷺ – فراراً من النار ، أفندخلها ؟ فبينما هم كذلك إذ خمدت النار ، وسكن غضبه ، فذكر للنبي ﷺ فقال : لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً إنما الطاعة في المعروف [٧] .

وعن عبادة بن الصامت [٨] – ﷺ – قال : دعانا النبي ﷺ فبايعناه ، فقال : فيما أخذنا عليه ، أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثره علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله ، إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان [٩] .

---

١ . انظر النظام السياسي في الإسلام ، أبو فارس ، ص ٧١ . ٢ . سورة النساء ، آية ٥٩ .

٣ . جامع البيان ، الطبري ، ٥ / ١٤٧ وما بعدها . ٤ . انظر نظام الإسلام – الحكم والدولة – ، محمد المبارك ، ص ٤٩ .

٥ . سورة النساء ، آية ٥٩ . ٦ . انظر مفاتيح الغيب ، الرازي٥ / ١١١ ، والآية رقم ٥٨ من سورة النساء .

٧ . متفق عليه ، اللؤلؤ والمرجان ، عن علي بن أبي طالب ، كتاب الإمارة ، رقم ١٢٠٦ ، ص ٣٩٨ .

٨ . صحابي من الموصوفين بالورع ، شهد العقبة وكان أحد النقباء ، وبدراً وسائر المشاهد ثم حضر فتح مصر وهو أول من ولي قضاء فلسطين ومات بالرملة أو بيت المقدس سنة ٣٤هـ ، وروي له ١٨١ حديثاً . انظر الطبقات ٣ /٤١٢ ، أسد الغابة ٣ / ١٥٨ ، الأعلام ٣ /٢٥٨ .

٩ . متفق عليه ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الإمارة ، رقم ١٢٠٧ ، ص ٣٩٩ .

قال الخطابي [١] : (إلا أن تروا كفراً بواحاً) أي : يريد ظاهراً بادياً من قولهم باح الشيء يبوح به بوحاً وبواحاً إذا أذاعه وأظهره [٢] .

وقال ابن حجر [٣] : قوله : (عندكم من الله فيه برهان) أي نص آية أو خبر صحيح لا يحتمل التأويل ... ومقتضاه أنه لا يجوز الخروج عليهم ما دام فعلهم يحتمل التأويل [٤] .

٤ . تحقيق الحرية .

مما لا جدال فيه أن الإسلام دين الحرية ، جاء ليعلنها ويحققها ويوسع مداها ، ويجعلها غاية ووسيلة ، ونهاية وبداية ، وجوهراً ومظهراً ، وسلاحاً يدفع به وحمى يُدفع عنه [٥] .

والحرية هي الأساس الركين ، والدعامة التي يقوم عليها البناء الإسلامي ، إذ لا يتصور تحقق منهج الإسلام في عالم الواقع إلا في جو تسوده الحرية ، وينعم فيه الفرد والجماعة بالأمن والاستقرار .

لذلك نجد القرآن يقرر هذا المبدأ في كثير من آياته ، ومن ذلك قوله تعالى في حرية الاعتقاد : ﴿**فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ [٦] ، وفي حرية الاختيار المطلق ، يقول جل شأنه : ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾ [٧] ، ﴿**لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ**﴾ [٨] ، ﴿**لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ**﴾ [٩] .

ورسالة الإسلام تقوم على بسط الحريات ، وفك القيود ، وإقامة العدل ، فهاهو ربعي بن عامر [١٠] ، يرسلها مدوية أمام رستم عظيم الفرس : (نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام) [١١] .

---

١ . هو حمد بن محمد بن البستي ، من أهل البيت من بلاد كابل ، من نسل زيد بن الخطاب (أخي عمر بن الخطاب) ، له : معالم السنن ، بيان إعجاز القرآن ، شرح البخاري المسمى تفسير أحاديث الجامع الصحيح للبخاري . وتوفي رحمة الله في بست سنة ٣٨٨ هـ . انظر شذرات الذهب ٣ / ١٢٧ ، الأعلام ٢ / ٢٧٢ .

٢ . فتح البارئ ، العسقلاني ، ١٣ / ١١ .

٣ . هو أبو الفضل ، شهاب الدين أحمد بن حجر الكناني العسقلاني ، من أئمة العلم والتاريخ ، أصله من عسقلان بفلسطين ، ومولده بالقاهرة ووفاته بها سنة ٨٥٢ هـ . ولع بالأدب والشعر ، ثم أقبل على الحديث ، ورحل إلى اليمن والحجاز وغيرهما لسماع الشيوخ ، وعلت له شهرة وقصده الناس للأخذ عنه وأصبح حافظ الإسلام في عصره ، وولي القضاء مرتين ثم اعتزل . له تصانيف كثيرة جليلة منها : تهذيب التهذيب ، لسان الميزان ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ، الإصابة في تمييز الصحابة ، تقريب التهذيب ، بلوغ المرام من أدلة الأحكام ، نخبة الفكر في مصطلح الحديث ، فتح البارئ في شرح صحيح البخاري . انظر شذرات الذهب ٧ / ٢٧٠ ، البدر الطالع١ / ٦١ ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ١ / ٣ ، الضوء اللامع ، ٢ / ٣٣ ، الأعلام ١ / ١٧٨ .

٤ . فتح البارئ ، العسقلاني ،١٣ / ١١ . ٥ . الإسلام والمسلمون ، فتحي رضوان السيد ، ص ٣٢٤ . ٦ . سورة الكهف ، آية ٢٩ .

٧ . سورة البلد ، آية ١٠ . ٨ . سورة الغاشية ، آية ٢٢ . ٩ . سورة التكوير ، آية ٢٨ .

١٠ . هو ربعي بن عامر بن خالد ، من بني تميم ، قال الطبري : كان عمر أمد به المثنى بن حارثة . وكان من أشراف العرب ، وأدرك النبي ﷺ وشهد فتح دمشق ثم خرج إلى القادسية ، وشهد فتح خراسان وله ذكر في غزوة نهاوند . وهو أول من أرسله سعد بن أبي وقاص للتفاوض مع الفرس ، وله قولته المشهورة أمام رستم عظيم الفرس . انظر تاريخ دمشق ، ابن عساكر ، ١٨ / ٤٩ ، الإصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر العسقلاني ، ٢ / ٤٥٤ .

١١ . انظر البداية والنهاية ، ابن كثير ، ٧ / ٤٢ .

فالحاكم الصالح هو الذي يحقق لأفراد مجتمعه الحرية ، ويصونها من كل عبث سواء في ذلك الحرية السياسية أو الدينية أو الفكرية أو المدنية ما دامت مقيدة بنصوص الشريعة الإسلامية . وهذه الحرية هي مقتضى التكريم الذي كرم الله به الإنسان [١] .

والناظر للتراث الإسلامي ، يرى مواقف شاخصة ، ونماذج واقعية ، تبين نطاق الحرية ومجالها الفسيح في واقع الفرد والأسرة ، وعلى مستوى المجتمع والدولة ، ومع غير المسلمين من أصحاب الملل الأخرى القابعة تحت راية الإسلام .

وفي إطار الواقع السياسي الذي نحن بصدده ، نكتفي بذكر موقفين لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ،وفيهما – بإذن الله – الترجمة الحقيقية لتطبيق الحرية في المجال السياسي :

أ . روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال على المنبر : يا معاشر المسلمين ماذا تقولون لو ملت برأسي إلى الدنيا كذا ، وميّل رأسه ، فقام رجل فسل سيفه وقال : أجل ! كنا نقول بالسيف – كذا وأشار إلى قطعه – فقال : إياي تعني بقولك ؟ قال : نعم إياك أعني بقولي ، فنهره عمر ثلاثاً وهو ينهر عمر ، فقال عمر : رحمك الله ! الحمد لله الذي جعل في رعيتي من إذا تعوجت قومني [٢] .

ب . حدث أن غنم المسلمون أبرداً يمانية فأخذ عمر برداً كأي فرد من عامة المسلمين ، وأخذ ابنه عبد الله برداً واحتاج عمر إلى قطعة من برد ولده ليصل بها برده ؛ لأنه رجل طويل ثم وقف يخطب الناس وعليه هذا الثوب وقال : اسمعوا يرحمكم الله ، فقال سلمان الفارسي [٣] – رضي الله عنه – والله لا نسمع ، فقال عمر . لم يا أبا سلمان ؟ فقال له : ميزت نفسك علينا في الدنيا إذ أعطيت كلاً منا ثوباً بردة واحدة ، وأخذت أنت بردتين . فأجال أمير المؤمنين بصره في صفوف الحاضرين ثم قال : أين عبد الله بن عمر ؟ فنهض ابنه عبد الله وقال : ها أنذا يا أمير المؤمنين . فسأله عمر على مشهد من الحاضرين : من صاحب البردة الثانية ؟ فأجاب عبد الله : أنا يا أمير المؤمنين ، ثم قال عمر : إنني كما تعلمون رجل طوال . ولقد جاءت بردتي قصيرة فأعطاني عبد الله بردته ، فأطلت بردتي ببردته . فقال سلمان : الحمد لله ، والآن قل نسمع ونطع يا أمير المؤمنين [٤] .

فهذه هي الحرية التي يدعو لها الإسلام ، ولكنها ليست الحرية المنفلتة من الضوابط الأخلاقية ، والموازين الإلهية ، بل التي تراعي حقوق الآخرين ، كما قيل : إن حريتك تنتهي عندما تبدأ حرية الآخرين ، وتتحرك في حدود الشرع ، وتقف عند المصلحة العامة للأمة وإن تعارضت مع مصلحتها .

---

١ . منهج القرآن في إصلاح المجتمع ، محمد السيد يوسف ص ١٨٢ ، نقلا عن دعوة الإسلام ، السيد سابق ص ٣٠ .

٢ . الرياض النضرة في مناقب العشرة ، المحب الطبري ، ص ٣٨١ وقال : خرّجه الملاء في سيرته .

٣ . صحابي أصله من مجوس أصبهان ، عاش عمراً طويلاً ، ورحل إلى الشام والعراق ، وقرأ كتب الفرس والروم واليهود ، وقصد بلاد العرب فلقيه ركب من بني كلدة فاستخدموه ثم استعبدوه وباعوه فاشتراه رجل من قريظة فجاء به إلى المدينة ، وقصد النبي ﷺ ولازمه ، وأعانه المسلمون على شراء نفسه من صاحبه . كان عالماً بالشرائع كلها ، صحيح الرأي وقوي الجسم زاهداً في العيش ، وهو الذي دل المسلمين على حفر الخندق في غزوة الأحزاب ، وقال عنه ﷺ : سلمان منا أهل البيت ، وقد استعمل على المدائن إلى أن توفي فيها سنة ٣٦ هـ . له في كتب الحديث ٦٠ حديثاً انظر الطبقات الكبرى ٤ / ٥٦ ، صفة الصفوة ١/ ٢٩٦ ، أسد الغابة ٢ / ٥١٠ ، الوافي بالوفيات ١٥ / ١٩٢ ، شذرات الذهب ١ / ٤٤ ، الأعلام ٣ / ١١٢ .

٤ . مناقب عمر بن الخطاب ، ابن الجوزي ، ص ١٤٦ .

٥ . ممارسة الشورى .

تعريف الشورى :

الشورى لغة : من شار الشيء : عرضه ليبدي ما فيه من محاسن [١] ، أي استخراج الرأي السديد من جملة الآراء ، ولها أصل آخر في اللغة بمعنى اختيار الشيء بمعرفة ظروفه وملابساته ، يقول القرطبي : (قال أهل اللغة : الاستشارة مأخوذة من قول العرب : شرت الدابة وشورتها إذا علمت خبرها بجري أو غيره) [٢] .

وكلا المعنيين يصلح أصلاً لمادة الشورى المتعارف عليها ، فالاستشارة تأتي بمعنى استخراج الرأي الصائب من صاحب الخبرة والشأن ، وتأتي بمعنى الاستجلاء والتبصر والاختبار لجوانب الأمور ، وذلك بالاستعانة برأي الغير [٣] .

أما في الاصطلاح فالشورى هي : التشاور أي حرية التعبير وتبادل الرأي ، وهي خلاصة رأي أغلبية المستشارين ، وتكون في كل أمور الحياة التي نعيشها ، وفي كافة المستويات ، في مستوى الفرد والجماعة ، والدولة والأمة ، والحاكم والمحكوم .

وهي لب السياسة ومحورها الذي تدور حوله ، وبغير هذه الشورى يكون الاستبداد ، والظلم وقهر الإنسان بإهدار حقوقه [٤] .

أهمية الشورى ومكانتها .

الشورى لها مكانة رفيعة في القرآن ، فهي من صفات المؤمنين ، وكفاها منزلة أن ذكرت بين الصلاة الزكاة : ﴿**وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾ [٥] ، وأطلق اسمها على سورة (الشورى) ، وأشير إلى الشورى في موضعين من القرآن الكريم ، الأول هو الآية : ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾ [٦] وهي مدنية ، والثاني هو الآية : ﴿**وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾ وهي مكية ، وفي ذلك دلالة على شمول مبدأ الشورى للمجتمع الإسلامي في كل مراحله وأطواره وتطوراته .

وعن علة نزول الآية السابقة في مكة ، يقول سيد قطب : إن نزول هذه الآية في مكة يوحي أن وضع الشورى أعمق في حياة المسلمين من مجرد أن تكون نظاماً سياسياً للدولة ، فهي طابع أساسي للجماعة كلها ، يقوم عليها أمرها كجماعة ، ثم يتسرب من الجماعة للدولة بوصفها إفرازاً طبيعياً للجماعة [٧] .

---

١ . المعجم الوسيط ، ١ / ٥١٨ .

٢ . الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، ٢ / ٥٩٧ .

٣ . الطريق إلى جماعة المسلمين ، حسين بن محسن بن علي جابر ، ص ٤١ .

٤ . التربية السياسية ، د / علي عبد الحليم محمود ، ص ١٤٥ .

٥ . سورة الشورى ، آية ٣٨ . ٦ . سورة آل عمران ، آية ١٥٩ .

٧ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٥ / ٣١٦٠ .

وفي معرض توضيح صفات المؤمنين ، يقول الله ﷻ : ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١) .

توضح الآيات السابقة ثلاثة عشر صفة جاءت صفة الشورى بينها كواسطة العقد ، ست صفات قبلها وست بعدها ، فالصفات التي قبلها : الإيمان بالله ، والتوكل عليه ، واجتناب كبائر الإثم والفواحش ، والتسامح والمغفرة عند الغضب ، والاستجابة لأمر الله ونهيه ، وإقامة الصلاة . والصفات التي بعدها : الإنفاق في سبيل الله ، والانتصار من البغاة ، والعفو عن المسيء ، والإصلاح بين الناس ، والصبر على الطاعات والمعاصي ، والغفران والصفح .

فالشورى بهذا الوضع هي واسطة العقد أي أكرم جوهرة فيه وأغلاها ، وأرفعها قدراً وحسبها شرفاً أن جاءت بين الصلاة والزكاة (٢) .

الشورى في السنة النبوية :

اهتم النبي – ﷺ – بالشورى قولاً وعملاً ، وجاءت أحاديثه وتوجيهاته ترجمة واقعية لتنزيل هذا المبدأ على أرض الواقع ، وإفراغه في قالب الحياة ، ومن ذلك قوله ﷺ : (إذا كان أمراؤكم خياركم ، وأغنياؤكم سمحاءكم ، وأمركم شورى بينكم ، فظهر الأرض خير لكم من بطنها ، وإذا كان أمراؤكم شراركم ، وأغنياؤكم بخلاءكم ، وأموركم إلى نساءكم ، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها) (٣) .

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : ما رأيت أحداً قط كان أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ (٤) .

قال الفخر الرازي : الفائدة في أنه تعالى أمر الرسول ﷺ بمشاورتهم ؛ وجوه ، ومنها :

أنه – ﷺ – وإن كان أكمل الناس عقلا ، إلا أن علوم الخلق متناهية ، فلا يبعد أن يخطر ببال إنسان من وجوه المصالح ما لا يخطر بباله ، لاسيما فيما يفعل من أمور الدنيا ، فإنه ﷺ قال : أنتم أعرف بشئون دنياكم ، وأنا أعرف بأمور دينكم ، ولهذا قال الحسن : ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم (٥) .

وقال الطبري – رحمه الله – عند تفسير قوله تعالى : (وشاورهم في الأمر) : إنما أمر الله نبيه ﷺ بمشاورتهم فيه تعريفاً منه أمته ليقتدوا به في ذلك عند النوازل التي تنزل بهم فيتشاورا فيما بينهم (٦) .

---

١ . سورة الشورى ، الآيات ٣٦ – ٤٣ .

٢ . انظر التربية السياسية ، علي عبد الحليم ، ص ١٤٩ .

٣ . أخرجه الترمذي في سننه عن أبي هريرة ، كتاب الفتن ، رقم ٢٢٦٦ ، ٤ / ٢٦٤ ، وقال عنه : هذا حديث غريب .

٤ . أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الجهاد ، رقم ١٧١٤ ، ٣ / ٦٠٨ .

٥ . انظر مفاتيح الغيب ، الرازي ، ٩ / ٥٤ .

٦ . انظر جامع البيان ، الطبري ، ٤ / ١٥٣ .

ولقد سجل التاريخ الإسلامي للنبي – ﷺ – حرصه على الممارسة الفعلية للشورى مع أمته في مجالي الحرب والسلم .

. ففي غزوة بدر انعقد مجلس الشورى قبل المعركة لمعرفة الاستعداد التام للقتال ، وفي أثنائها لتحديد المكان وتهيئة جو المعركة ، وبعدها للحكم في الأسرى .

. وشاور ﷺ أصحابه يوم أحد في الخروج للقاء العدو ، وبعد هذه الغزوة نزل قوله تعالى : (وشاورهم في الأمر) ، ليؤكد مشروعية هذا المبدأ ، وأهميته في تنظيم شئون الجماعة المسلمة .

. وفي يوم الأحزاب أخذ – ﷺ – بمشورة سلمان الفارسي في حفر الخندق حول المدينة .

. وفي غزوة الحديبية عقدت مجالس عدة للشورى ، منها ما أخرجه البخاري في صحيحه : (... وسار النبي ﷺ حتى كان بغدير الأشطاط أتاه عينه . قال : إن قريشاً جمعوا لك جموعا ، وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ومانعوك ، فقال : (أشيروا أيها الناس عليّ ، أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت فإن يأتونا كان الله عز وجل قد قطع عيناً من المشركين ، وإلا تركناهم محروبين) ، قال أبوبكر : يا رسول الله ، خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد ، فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه . قال : امضوا على اسم الله) [١] .

وهكذا ، فإنك لا تكاد تجد غزوة من غزواته ﷺ إلا وخططت لها مجالس الشورى في إطارات لتلك المجالس ، مختلفة بحسب الزمان والمكان والحال (أي بفقهٍ للواقع الحربي) ، حيث الشكل الذي تتم به الشورى ليس مصبوباً في قالب من حديد لا تخرج الأمة عنه ، بل هو متروك للأمة تحدد إطاره ، وتضبط صورته وهيئته [٢] .

هذا في مجال الحرب ، ولقد استشار رسول الله – ﷺ – غيره في مجالات السلم ، نذكر بعضاً منها :

. استشارته جبريل – عليه السلام – فيما اقترح عليه موسى عليه السلام بخصوص الصلاة في ليلة الإسراء والمعراج ، ثم نزل على رأي موسى عليه السلام فيما أشار عليه بسؤال الله تعالى شأنه التخفيف على الأمة [٣] .

. استشارته في خاصة نفسه في قصة الإفك ، فقد قال : (... أشيروا عليّ في أناس أبَنُوا أهلي ، وايم الله ما علمت على أهلي من سوء) [٤] .

. وقبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، امتنع – ﷺ – عن الوصية بالخلافة لمن يختاره ، وفيه إشارة إلى أن من واجب الأمة الأخذ بالشورى والاستشارة في وضع النظم الاجتماعية والسياسية التي ترعى الحقوق ، وتؤسس لغدٍ أفضل .

وتوالت مجالس الشورى بعد رسول الله ﷺ عند وزيريه – أبي بكر وعمر – ، وبقية الخلفاء ، والأمراء ، إلى أن أُقصي هذا المبدأ من الواقع السياسي ، وبقي مظهراً شكلياً في الدوائر الأخرى من حياة المجتمع المسلم .

---

١ . أخرجه البخاري عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ، فتح البارئ ، كتاب المغازي ، رقم ٤١٧٨ ، ٧ / ٥٦٠ .

٢ . انظر الطريق إلى جماعة المسلمين ، ص ٥٣ ، نقلاً عن في ظلال القرآن ، في تفسير سورة الشورى .

٣ . المصدر السابق ، ص ٥٣ .

٤ . أخرجه البخاري عن عائشة ، فتح البارئ ، كتاب التفسير ، رقم ٤٧٥٧ ، ٨ / ٥٩٩ ، وذكره ابن كثير في تفسيره ٤ / ٥١٧ .

حكم الشورى :

إن الشورى مفتاح كل خير ومغلاق كل شر ، وهي الرئة السليمة التي تتنفس الأمة المسلمة من خلالها ؛ لتعيش عزيزة بين الأمم ، قادرة على مواجهة الظالمين ، واستبداد المستبدين ، وقادرة على ممارسة الحياة الإنسانية الكريمة التي أرادها الله تعالى لكل بني آدم مسلمين وغير مسلمين [١] .

ولأهمية الشورى ومكانتها – كما أسلفنا – ، في إصلاح المجتمع ، وترتيب نمط الحياة ، وترشيد الواقع المعاش ؛ اعتنى العلماء بالنص على وجوبها ، وبالأخص في علاقة الحكام بالرعية .

ومعنى ذلك أن الشورى واجبة وملزمة حتى لو كان هناك احتمال في أن يكون رأي الأغلبية خاطئاً أو ضاراً ؛ لأن الضرر الناتج عن خطأ الأغلبية أخف من الضرر الناتج عن ترك الشورى واستبداد الحكام بالرأي دون الالتزام برأي عامة الناس وجمهورهم [٢] .

وهنا نسوق آراء ثلة من علماء الأمة وفقهائها – قديماً وحديثاً – في وجوب الشورى على أولي الأمر تجاه الرعية :

نقل القرطبي الإجماع في هذه المسألة عن ابن عطية[٣] ، فقال : الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام ، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب . هذا لا خلاف فيه ، وقد وصف الله المؤمنين بقوله : (وأمرهم شورى بينهم) [٤] .

ونقل القرطبي أيضاً عن ابن خويز منداد [٥] ، قوله : واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون ، وفيما أشكل عليهم من أمور الدين ، ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب ، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح ، ووجوه الكُتّاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها [٦] .

رأي شيخ الإسلام ابن تيمية :

قال – رحمه الله – : لا غني لولي الأمر عن المشاورة ، فإن الله تعالى أمر بها نبيه ﷺ ، فقال تعالى : ﴿**فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾ [٧] ، ثم قال : إن الله أمر بها نبيه ﷺ ؛ لتأليف قلوب أصحابه ، وليقتدي به من بعده ، وليستخرج بها منهم الرأي فيما لم ينزل فيه وحي من أمر الحرب ، والأمور الجزئية ، وغير ذلك ، فغيره ﷺ أولى بالمشورة [٨] .

---

١ .انظر التربية السياسية،علي عبد الحليم، ص ١٧٤وما بعدها. ٢ .الفكر السياسي المعاصر عند الإخوان المسلمين،أ. د/ توفيق الواعي،ص ٦٧ .

٣ . هو عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي الغرناطي ، مفسر وفقيه أندلسي عارف بالأحكام والحديث ، وله شعر ، وولي قضاء المرية ، وكان يكثر الغزوات في جيوش الملثمين ، وتوفي بلورقة سنة ٥٤٢ هـ ، وله : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز . انظر الوافي بالوفيات ١٨ / ٤٠ ، الأعلام ٣ / ٢٨٢ .

٤ . الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، ٢ / ٥٩٧ . ٥ . هو محمد بن أحمد بن عبد الله خويز منداد المالكي العراقي ، فقيه وأصولي صاحب أبي بكر الأبهري ،قال القاضي عياض : وقد تكلم فيه أبو الوليد الباجي ،وقال : لم أسمع له من علماء العراقيين ذكراً ، من تصانيفه : كتاب كبير في الخلاف، وكتاب في أصول الفقه،واختيارت في الفقه خالف فيها الإمام مالك ،وتوفي سنة ٣٩٠هـ .انظرالوافي بالوفيات ٣٩/٢ ،والديباج المذهب لابن فرحون ٤٣/١ .

٦ . الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، ٢ / ٥٩٧ .

٧ . سورة آل عمران ، آية ١٥٩ . ٨ . السياسة الشرعية ، ابن تيمية ، ص ٤٣٥ .

رأي الإمام الشهيد حسن البنا :

يقول في رسالة مشكلاتنا الداخلية في ضوء النظام الإسلامي – نظام الحكم – : ومن حق الأمة الإسلامية أن تراقب الحاكم أدق مراقبة ، وأن تشير عليه بما ترى فيه الخير ، وعليه أن يشاورها وأن يحترم إرادتها ، وأن يأخذ بالصالح من آرائها ، وقد أمر الله الحاكمين بذلك ، فقال : (وشاورهم في الأمر) ، وأثنى به على المؤمنين خيراً ، فقال : (وأمرهم شورى بينهم) ، ونصت على ذلك سنة رسول الله – ﷺ – [١] .

رأي الشيخ عبد الوهاب خلاف [٢] :

قال رحمه الله : والناظر في آيات القرآن الكريم وصحاح السنة يتبين له أن الحكومة الإسلامية دستورية ، وأن الأمر فيها ليس خالصاً بفرد ، وإنما هو للأمة متمثلة في أهل الحل والعقد ؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعل أمر المسلمين شورى بينهم ، وساق وصفهم بهذا مساق الأوصاف الثابتة ، والسجايا اللازمة كأنه شأن الإسلام ومن مقتضياته ..

في المقابل نجد أن المسلمين قد أهملوا تنظيم هذه الشورى حتى ذهبت روحها ، وجرؤ بعضهم أن يقول : أنها مندوبة لا محتومة ، وأغفلوا المسؤولية حتى استقل بأمرهم ولاتهم ، وخرست الألسنة عن النصيحة ، وصمت الآذان عن سماعها ، وأضاعوا البيعة ومسخوها حتى جعلوها أمراً صورياً ، لا يحقق الغرض منها ولا يشعر بإرادة الأمة [٣] .

ويقول صاحب الظلال عند قوله تعالى :(وشاورهم في الأمر) : وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكاً في أن الشورى مبدأ أساسي لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه [٤] .

ويؤكد وجوب أخذ الحاكم بمبدأ الشورى مؤيدات كثيرة ، منها [٥] :

أ . قوله تعالى : (وشاورهم في الأمر) .

ب . تطبيق النبي ﷺ لهذا المبدأ ، ونهج خلفائه من بعده على هذه القاعدة وهم قدوتنا .

ج . كون الله سبحانه وتعالى يجعل من هذا المبدأ صفة لكل المسلمين في كل أمر من أمورهم في قوله تعالى : (وأمرهم شورى بينهم) . وهذا دليل على أن الأمة هي الملتزمة بإقامة الشورى ، وملزمة بأن تفرضها على حكامها ، وأولي الأمر الذين تختارهم ليديروا شئونها [٦] .

د . كون الشورى خلقا إنسانيا أصيلا ، والإسلام يزكي الأخلاق الإنسانية الأصيلة .

ع . كون الشورى طريقاً إلى عصمة الرأي من الخطأ ، واستكمالاً للنقص الإنساني ؛ لأنها تنقحه وتغربله .

غ . كون الشورى تمنع الاستبداد بالأحكام من قبل الحاكم .

---

١ . مجموعة الرسائل ، حسن البنا ، ص٢٢٩ .

٢ . هو عبد الوهاب بن عبد الواحد خلاف ، من علماء مصر وفقهائها ، كان أستاذاً للشريعة الإسلامية بكلية الحقوق في جامعة القاهرة ، ومفتشاً في المحاكم الشرعية ، وأحد أعضاء مجمع اللغة العربية ، ولد بكفر الزيات ، وتوفي بالقاهرة سنة ١٩٥٦ م ، له تصانيف ، منها : نور من القرآن الكريم في التفسير ، علم أصول الفقه ، السياسة الشرعية ، الأحوال الشخصية ، أحكام المواريث ، تاريخ التشريع الإسلامي ، الاجتهاد والتقليد . انظر الأعلام ٤ / ١٨٤ .

٣ . السياسة الشرعية ، عبد الوهاب خلاف ص ٢٥ وما بعدها .

٤ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ١ / ٥٠١ .

٥ . انظر الطريق إلى جماعة المسلمين ، محمد بن محسن بن علي جابر ، ص ٤٧ .

٦ . الفكر السياسي المعاصر ، توفيق الواعي ص ٦٥ ، نقلا عن الإسلام وأوضاعنا السياسية ، عبد القادر عودة ، ص ١٢٠ ، ١٩٦٧ م .

و . إطباق المفسرين على أن في الشورى تطييبا وتأليفا لنفس المستشار ، الأمر الذي يجعل الأمة متماسكة متآلفة .
هـ . وتجب الشورى ؛ لأننا في عصر من سماته التخصص والتشعب في المعارف ، فلابد من مشاورة أهل الاختصاص ، وذلك في القضايا المصيرية ، وفي مجال القضاء والإفتاء ، وفي مجال الاجتهاد الجماعي حيث يلزم الأخذ بمشورة خبراء العصر مضافاً إليها أقوال علماء الشرع .

(ووجه آخر لوجوب الشورى ، والالتزام بما تقضي إليه ، هو أنها فرع من أصل كبير من أصول الإسلام الثابتة الدائمة الواجبة ، وذلك الأصل هو : " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "
قال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١) ، وقوله جل شأنه : ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .
وهذا الخطاب الموجه للجماعة يعني أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عمل جماعي، ولا يكون هذا العمل إلا بالتشاور والحوار أي الشورى) (٣) .

نتيجة الشورى :

إن الشورى ملزمة بمعنى أن الأخذ بما أفضت إليه من رأي – وهو رأي جمهور المسلمين وجماعتهم – واجب على كل المسلمين (٤) .

قال فخر الدين الرازي : (فإذا عزمت فتوكل على الله) أي : إذا عزمت بعد المشاورة في الأمر على إمضاء ما ترجحه الشورى وأعددت له عدته ، فتوكل على الله في إمضائه ، وكن واثقاً بمعونته وتأييده لك فيه ، ولا تتكل على حولك وقوتك (٥) .

وما لم يتم الواجب إلا به فهو الواجب ، ووجوب الشورى لا يتحقق إلا إذا التزم المستشير برأي الذين استشارهم ، ورأي جمهور المسلمين هو ما يسمى في الاصطلاح المعاصر برأي الأغلبية أو الأكثرية .
فالخليفة أو رئيس الدولة بالمنظار المعاصر ما هو إلا أداة لتنفيذ ما يصدر عن الأغلبية من رأي لصالح الجماعة المسلمة ، فهو ملزم بتنفيذ نتيجة الشورى ، ولا يجوز له العدول عنها ، وإتماماً للفائدة نسرد بعض الأدلة التي تلزم الحاكم برأي الأغلبية :

أ . عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ : (إن أمتي لا تجتمع على ضلالة فإذا رأيتم اختلافاً فعليكم بالسواد الأعظم) (٦) ، والسواد الأعظم هو الأغلبية أو النسبة الأعظم .
ونزوله ﷺ على رأي أغلبية الشبان المتحمسين للقاء العدو خارج المدينة في معركة أحد .

---

١ . سورة آل عمران ، آية ١١٠ . ٢ . سورة التوبة ، آية ١١٢ .
٣ . انظر التربية السياسية ، علي عبد الحليم ، ص ١٧٢ . ٤ . المصدر السابق ، ص ١٧٣ .
٥ انظر مفاتيح الغيب ، الرازي ، ٩ / ٥٥ . ٦ . أخرجه ابن ماجه في سننه ، عن أنس بن مالك ، كتاب الفتن ، رقم ٣٩٥٠ ، ٢ / ١٣٠٣ . قال العراقي : قد جاء هذا الحديث بطرق في كلها نظر، وفي كشف الخفاء رقم ٢٩٩٩ ، ٢ / ٣٥٠ ، وقال العجلوني : والحديث مشهور المتن وله أسانيد كثيرة ، وشواهد عديدة في المرفوع وغيره .

ب . ذكر الطبري في تأويل قوله تعالى : (وشاورهم في الأمر) : يتشاورون ثم يصدروا عما اجتمع عليه ملؤهم [١] .

قال الإمام الغزالي : فإن اختلفوا كان النظر إلى الأكثرية [٢] .

وقال الماوردي : إذا اختلف أهل المسجد في اختيار إمام ، عمل على قول الأكثرية [٣] .

وأما الذين يحتجون على عدم الأخذ بالأغلبية بحادث أبي بكر الصديق يوم الردة ، وإصراره تولية أسامة على الجيش ، فأمر مردود ؛ لأن المسألتين المشار إليهما ليستا من موضوع الشورى لوجود النص فيهما إذ لا شورى مع النص ، ولاقتناع جبهة المعارضة برأي أبي بكر رضي الله عنه .

ففي يوم الردة استند إلى الحديث المتواتر : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله) [٤] ، وأما في تولية أسامة فقد كانت التولية أصلاً من رسول الله ﷺ ، فلا يحق لأحد أن يقيل أو يعارض في ذلك [٥] .

فالنزول عند نتيجة الشورى ، وإعمال رأي الأكثرية ، يؤدي إلى توزيع المسؤوليات وتحمل التبعات من كل الأطراف ، سواء كانت المحصلة إيجابية أو سلبية ، وهذا يحافظ على تماسك الأمة ووحدتها في كيانها الداخلي ، وعلاقاتها بالآخر [٦] .

ومن العبث أن نستشير الأمة ثم نضرب برأيها عرض الحائط ، فإن هذا من شأنه أن يربك المواقف ، ويشتت الجهود ، ويوغل الصدور ، قال تعالى : ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [٧] .

القرارات الهامة التي تتخذ عبر تطبيق مبدأ الشورى [٨] :

أ . اختيار الحاكم وتحديد سلطاته ، ومراقبة تصرفاته .

ب . وضع السياسة العامة للدولة – الحكومة – ، وذلك بتحديد اختصاص كل مسئول ، ومراقبة أعماله .

ج . وضع نظام للفصل بين السلطات : التشريعية والقضائية والتنفيذية ؛ لأن تداخل هذه السلطات يؤدي إلى الاستبداد والطغيان .

د . وضع هياكل تنظم كل العلاقات في المجتمع : العلاقات السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والعسكرية ، والتشريعية ، والثقافية ، وما سوى ذلك .

---

١ انظر جامع البيان ، الطبري ، ٤ / ١٥٢ .

٢ . انظر إحياء علوم الدين ، الغزالي ، الباب الرابع : في الإمامة والقدوة ، ١ / ٢٧٣ .

٣ انظر الأحكام السلطانية ، الماوردي ، ص ١٠٥ .

٤ . متفق عليه ، اللؤلؤ والمرجان ، عن ابن عمر ، كتاب الإيمان ، ص ١٥ .

٥ . انظر الطريق إلى جماعة المسلمين ، حسين بن محسن ، ص ٦٥ .

٦ . انظر حكم الشورى ونتيجتها ، محمد أبو فارس ، ص ١٨٧ وما بعدها .

٧ . انظر المصدر السابق ، ص ١٨٧ وما بعدها ، والآية رقم ٤٦ من سورة الأنفال .

٨ . انظر التربية السياسية ، د / علي عبد الحليم ، ص ١٥٨ .

أهل الشورى .

أهل الشورى هم أهل الحل والعقد ، وهم أولو الأمر ، وأصحاب الروية ، الذين يقدرون على إبداء الرأي وحل المشكلات ، فإليهم يرجع الأمر قال تعالى : ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ (١) .

ويمثل المجلس التشريعي أو مجلس الشورى ، المنتدى الجامع لأهل الشورى أو نواب المجتمع ، وهو سلطة تشريعية تضاف إلى السلطة القضائية والتنفيذية .

شروط عضو مجلس الشورى (٢) :

أ . العدالة الجامعة لشروطها ، وشروط العدالة : الإسلام ، والعقل ، والحرية ، والذكورة ، والبلوغ .

ب . العلم بالكتاب والسنة وما يصاحبهما من علوم اللغة والتفسير والرواية ... الخ .

ج . الخبرة في الجانب المستشار فيه .

د . الأمانة والصدق .

هـ . الرأي السديد والحكمة في كيفية الاختيار .

ولأهل الشورى اختصاصات ، فهم الذين يقومون باختيار رئيس الدولة اختياراً أولياً أي يرشحونه للخلافة ، ويبايعونه البيعة الخاصة ثم يعرض الأمر على الأمة فتبايعه البيعة العامة ...

وأهل الشورى يملكون محاسبة رئيس الدولة وغيره من كبار الموظفين كالأمراء والوزراء ، وهذا يتم تحت إطار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومبدأ عموم النصيحة بين المسلمين ، ومبدأ التعاون على البر والتقوى والتناهي عن الإثم والعدوان ، بالإضافة إلى الاختصاصات السابقة يوكل إليهم سن القوانين وتعديلها ، ومساعدة الجهات الأخرى في إدارة شؤون البلاد وعلاج القضايا العامة للأمة (٣) .

كيفية الشورى .

مما يجدر ذكره هنا أن رسول الله ﷺ لم يعتمد أسلوباً واحداً في الشورى ، كما أنه لم يرد نص في كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ يبين كيفية ممارسة الشورى ، والالتزام بهذه الكيفية ورفض غيرها ، كما لم يرد نص يلزم الأمة بعدد معين لمجلس الشورى ، وطريقة مجيء هذا العدد (٤) .

وهذا يعني أن هذه النصوص فيها من العموم والشمول ما يجعلها مرنة ، ومنسجمة مع التطبيقات في كل بيئة ، وتحت أي ظرف ، وهذه الخصيصة من طبيعة هذا الدين الذي جاء ليساير تطور البشرية في بعديها الزماني والمكاني .

---

١ . انظر النظام السياسي في الإسلام ، محمد أبو فارس ص ١١٢ ، والآية ٨٣ من سورة النساء .

٢ . انظر الأحكام السلطانية ، الماوردي ، ص ٨ .

٣ . انظر الشورى ونتيجتها ، محمد أبو فارس ، ص ١٤ .

٤ . المصدر السابق ، ص ١٢ .

إن أصحاب السير نقلوا إلينا أن الرسول ﷺ مارس الشورى بطرق متعددة ، فأحياناً يشير عليه الواحد بالرأي الصائب فيعمل به وإن خالف ما رآه ، ومثل هذا أخذه برأي حباب بن المنذر[١] في بدر ، وسلمان الفارسي في غزوة الخندق ، وأحياناً يستشير الاثنين والثلاثة كمشورته لأبي بكر وعمر في كثير ما يخص واقع المسلمين [٢] .

وأحياناً يستشير جمهور الحاضرين ، ويخاطبهم عامة بقوله : أشيروا عليّ أيها ، كما حصل في غزوة بدر الكبرى عندما نجت القافلة ، وخرجت قريش لقتال المسلمين ، وأحياناً يستشير جمهور الناس عن طريق نواب وممثلين لهم ينقلون إليه آراء من يمثلهم ، كما حصل بعد غزوة حنين حين اقتسم المسلمون الغنائم ثم جاء وفد من هوازن يطلب المن من رسول الله- ﷺ - [٣] .

وبناء على ما تقدم ، لا مانع من استخدام الأساليب العصرية الحديثة في كيفية الشورى ، واختيار أعضاء المجلس التشريعي – البرلمان – ، وفي الغالب يتم ذلك عن طريق الاقتراع أو الانتخاب المباشر من قبل مجلس الشعب ، ومن قبل مجلس آخر يضم العلماء والفنيين والمتخصصين ، حيث يتم التنسيق بين المجلسين ، والاستفادة من القاعدة الشعبية والكفاءة العلمية في اختيار ممثل الأمة الأصلح لرعاية شؤونها [٤] .

وهذا الجمع بين آليات الديمقراطية ومبادئ الشورى ، يطلق عليه ما يسمى بالشورقراطية ، وفيها يتم الاستفادة من وسائل الديمقراطية – من انتخاب وبرلمان وأحزاب – بعد ضبطها بقواعد الشورى وإدراجها في المنظومة الشرعية .

مجالات الشورى [٥] .

أ . المجال الاجتهادي : أي حيث لا يوجد نص في القضية المطروحة على بساط البحث ، فأهل الرأي مجتهدون في معرفة الحكم الشرعي ، أو يجتهدون في إصابة المصلحة العامة في الأمور المصيرية كاتخاذ قرار الحرب أو الصلح أو غير ذلك .

ب . مجال النصوص الظنية : فمن المعلوم أن معظم النصوص في الكتاب والسنة ظنية الدلالة ، والناس يختلفون في فهمها واستنباط الأحكام الشرعية منها ، والشورى هنا لا تعدو محاولة فهم النص ، وما يدل عليه من حكم أو أحكام بدلالة العبارة أو الإشارة أو النص أو الاقتضاء ... الخ ، كما هو مفصل في علم أصول الفقه .

ج . المجال التطبيقي : في كيفية تطبيق الحكم الشرعي وإسقاطه على الواقع ، كإقامة العدل ، فالعدل بين الناس فرض من فرائض هذا الدين ، أما وسائل تنفيذ هذا الفرض فيمكن الاجتهاد فيها ، وتبادل الآراء ووجهات النظر ، فعلى سبيل المثال هل تتعدد المحاكم أم يكفي درجة واحدة فقط ، وهل يحكم القاضي على الغائب أم لا ؟ ... الخ .

---

١ . هو الحباب بن منذر بن الجموح الأنصاري الخزرجي ، صحابي من الشجعان الشعراء ، ويقال له (ذو الرأي) ، قال الثعالبي : هو صاحب المشورة يوم بدر أخذ النبي ﷺ برأيه ، ونزل جبريل فقال : الرأي ما قال حباب . وكانت له في الجاهلية أراء مشهورة ، ومات رحمه الله في خلافة عمر سنة ٢٠ هـ . انظر الطبقات الكبرى ٣ / ٤٢٧ ، الوافي بالوفيات ١١ / ٢١٦ ، الأعلام ٢ / ١٦٣ .

٢ . انظر النظام السياسي في الإسلام ، محمد أبو فارس ، ص ١٠٩ .

٣ . الشورى ونتيجتها ، محمد أبو فارس ، ص ١٣ .

٤ . انظر النظام السياسي في الإسلام ، محمد أبو فارس ، ص ١١٠ وما بعدها .

٥ . انظر الشورى ونتيجتها ، محمد أبو فارس ، ص ١١

٦ . حق الأمة في مساءلة الحاكم والمراقبة والنقد .

إن تدخل أفراد الشعب في عمل الحكام وعلى رأسهم رئيس الدولة نفسه ، وفي سيرتهم وتصرفاتهم كان أمرا معروفا شائعا ومألوفا لدى جمهور الشعب عامة في صدر الإسلام ، بل كان واقعاً بالفعل ، فكانت المراقبة للسلطة والنقد وحرية إبداء الرأي في مجال الحكم ، والمحاسبة للحكام مالياً وسياسياً مبادئ دستورية معترفاً بها ومنصوصاً عليها في الكتاب والسنة ، وعرفاً من الأعراف السياسية يومئذ [١] .

و ليس الحكم في المنظور الإسلامي تشريف وامتياز ، ولكنه أمانة وتكليف تقتضي المساءلة والنقد البناء ، كما وصفه الرسول – ﷺ – حين قال لأبي ذر الغفاري [٢] : (... يا أبا ذر إنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها) [٣] ، ووصف الرسول ﷺ الحاكم بأنه مسئول : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته ...) [٤] . وقال عمر مخاطباً أبا موسى الأشعري ، وكان أحد عماله ، في رسالة وجهها إليه : إنما أنت امرؤ منهم ، وقد جعلك الله أثقلهم حملاً [٥] .

ويندرج هذا الحق تحت عدة مبادئ وأسس ، منها مبدأ الأمر والنهي عن المنكر ، ففي الحديث : (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقابه) [٦] ، وقال رسول الله – ﷺ – : (... إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيروه أوشك الله أن يعمهم بعقابه) [٧] ، ومن المعلوم أن أفضل الشهداء هو ذلك الذي يصدع بكلمة الحق في وجه الطغيان ، ويثور على الظلم ، ويقاوم الاستبداد ، قال – ﷺ – : (سيد الشهداء حمزة ، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله) [٨] .

ومن هذه المبادئ مبدأ النصيحة للحكام من عامة الناس ولاسيما العلماء والمصلحين والرواد ، الذين نضجت معارفهم واكتملت خبرتم في شؤون السياسة والقيادة ، فقد جاء في الحديث : (الدين النصيحة ، قلنا: لمن ، قال : لله ولكتابه ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم) [٩] .

---

١ . نظام الإسلام – الحكم والدولة – ، محمد المبارك ، ص ٤٠ .

٢ . هو جندب بن جنادة ، أبو ذر الغفاري من بني غفار ، صحابي قديم الإسلام ، ويقال أنه أسلم بعد أربعة وكان خامساً ، وهو أول من حيا رسول الله ﷺ بتحية الإسلام ، وهاجر إلى بادية الشام في عهد أبي بكر وعمر ، وكان ديدنه تحريض الفقراء على مشاركة الأغنياء في أموالهم وذلك في عهد عثمان . مات بالربدة من قرى المدينة سنة ٣٢ هـ ، ولما مات لم يكن في داره ما يكفن به ، وروى له البخاري ومسلم ٢٨١ حديثاً . انظر الطبقات الكبرى ٤ / ١٦٥ ، صفة الصفوة ١ / ٢٩٨، الوافي بالوفيات ١١ / ١٤٩، شذرات الذهب ١ / ٣٩ ، الأعلام ٢ / ١٤٠ .

٣ . أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإمارة ، باب كراهة الإمارة من غير ضرورة ، رقم ١٨٢٥ ، ٣ / ١٤٥٧ .

٤ . متفق عليه ، اللؤلؤ والمرجان ، عن ابن عمر، كتاب الإمارة ، رقم ١١٩٩ ، ص ٣٩٥ ، مع اختلاف يسير في اللفظ .

٥ . انظر حياة الصحابة ، الكاندهلوي ، ٢ / ٩١ .

٦ . أخرجه أحمد في مسنده عن أبي بكر ، رقم ٣٠ ، ١ / ١٨٠ ، وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح ، وبداية الحديث ، قال أبوبكر : يا أيها الناس إنكم تقرؤن هذه الآية : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ** ، وإن رسول عليه الصلاة والسلام قال ، ثم ذكر الحديث .

٧ . أخرجه أحمد في مسنده عن أبي بكر ، رقم ١٦ ، ١ / ١٧٥ ، وهو صحيح .

٨ . أورده الألباني في الصحيحة بطريق رجاله كلهم ثقات ، وذلك بعد أن تتبع طرقه الضعيفة ، رقم ٣٧٤ ، ١ / ٧١٦ .

٩ . أخرجه أحمد في مسنده ، عن تميم الداري ، رقم ١٦٨٨٤ ، ١٣ / ٢٠٨ ، وقال محقق المسند : إسناده صحيح .

تأتي هذه الممارسات بعد ذكر القواعد والأصول المؤسسة للواقع السياسي – الإسلامي – ، وذلك للربط بين القاعدة والواقع من جهة ، ولضبط هذه المنظومة السياسية بالتعاليم الإلهية العادلة من جهة أخرى ، قال تعالى : ﴿**وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ**﴾ (١) ، ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ (٢) .

مع العلم أن الواقع السياسي لا يقتصر على نظام الحكم ، وتداول السلطة ، ولكن يتعداه إلى كل شعب الحياة التي تبنى على التدبير والحنكة والتخطيط ، بيد إننا في هذه التطبيقات نركز على رأس الواقع السياسي ، وهو شؤون الحكم ، لما لها من أهمية ومسؤولية قصوى في تصريف الأمور ، وقيادة قضايا البلاد والعباد . يقول الماوردي : (وصلاح الدنيا لا يكون إلا بستة أشياء : دين متبع ، وسلطان قاهر ، وعدل شامل ، وأمن عام ، وخصب دائم ، وأمل فسيح) (٣).

وهنا تفصيل لبعض التطبيقات السياسية الهامة :

أولاً. الدولة ومكوناتها .

تعريف الدولة : مجموعة كبيرة من الناس ، يقطنون على وجه الدوام إقليماً معيناً ، ويتمتع هذا الإقليم بالشخصية المعنوية ، والنظام والاستقلال السياسي (٤) .

إذاً الدولة في الفقه الدستوري المعاصر تتكون من ثلاثة عناصر أساسية هي : الشعب ، والإقليم أو الأرض ، والنظام والاستقلال الذي يمثل سلطة الدولة وكيانها .

ومفهوم الدولة في كتب التراث يعني التداول والتغير ، ويطلق على النظم السياسية أو العهود السياسية ، وليس على شعب يسكن إقليماً تنظم شؤونه حكومة بما يتضمنه من صفات الثبات والديمومة (٥) .

وهذا المفهوم في الفقه السياسي الإسلامي ، يرتكز على كيانين (٦) :

١ . الكيان المادي : وهو الشعب ، والإقليم ، والسلطة السياسية ، كما هو الحال في الفقه الدستوري المعاصر .

٢ . الكيان الروحي : وهو الذي يشمل مجموعة القواعد والأحكام المتعلقة بالعقيدة والتشريع الذي فرضه الشارع الحكيم على خلقه في الكتاب والسنة .

(هذه التعاليم الكلية هي التي ترسم الإطار الروحي الذي يكيف بنيان الدولة الإسلامية في جميع أوضاعه التنظيمية وجزئياته المادية ، وفكرة الدولة في الإسلام لا تتم إلا بوجود الدعامة الأخلاقية ، والدعامة الاقتصادية ، والدعامة السياسية ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾ (٧) .

---

١ . سورة المائدة ، آية ٤٩ .
٢ . سورة المائدة ، آية ٥٠ .
٣ . أدب الدنيا والدين ، الماوردي ، ص ١٣٦ وما بعدها .
٤ . الفقه السياسي في الإسلام ، محمود الديك ، ص ٢٧ .
٥ . انظر في مصادر التراث السياسي الإسلامي ، نصر محمد عارف ، ص ٨٧ .
٦ . انظر المصدر السابق ، ص ٢٩ .
٧ . سورة الحج ، آية ٤١ .

فالصلاة هي عنوان الصلة بين العبد وربه ، وتقوم عليها الدعامة الأخلاقية ، والزكاة هي الدعامة الاقتصادية ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الدعامة السياسية ، وهذه هي الأصول الثلاثة العامة التي لابد منها لقيام ووجود الدولة الإسلامية) [١] .

أنواع الدول :

وتنقسم الدول من حيث تكوينها المادي إلى : دول بسيطة ، ودول مركبة [٢] ، ومن حيث مركزها السياسي إلى : دول تامة السيادة ، ودول ناقصة السيادة ، ومن حيث النظام الداخلي فيها إلى : ملكية دستورية ، وملكية مطلقة ، وجمهورية برلمانية ، وجمهورية رئاسية ، ودكتاتورية ، إلى غير ذلك [٣] .

والنظام الإسلامي أقرب إلى النظام الجمهوري بالرغم من اختلافه مع الأنظمة المعاصرة التي تجعل رأي الشعوب المجرد عن هداية الوحي وإرشاده حكماً قاطعاً في جميع الأفعال والتصرفات ، ويختلف معها أيضاً في طريقة الانتخاب العارية من القيم الأخلاقية ،فالإسلام له مبادئه الخاصة وقواعده المحددة وأحكامه المنصوص عليها من الكتاب والسنة ، فإذا روعيت تلك المبادئ والقواعد ، وهذه الأحكام ، فلا مانع من الخبرة البشرية في مجال طرق الانتخابات لاختيار رئيس الدولة ، ومن يساعدونه في أداء الأمانات العامة [٤] .

وبشكل عام يمكن تقسيم نظام الحكم إلى ثلاثة أقسام [٥] :

١ . الحكم السياسي الإسلامي : وهو حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية .

١ . الحكم السياسي الديمقراطي : وهو حمل الكافة على النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار .

٣ . الحكم الطبيعي : أي الاستبدادي الذي يرمي به الحاكم إلى إرضاء شهواته ، وهو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة .

المقومات الأساسية للدولة :

وهي عناصر تكوين الدولة كما بينا سابقاً ، وتتمثل في : الأرض أو الإقليم ، والشعب ، والسلطة السياسية .

١ . الإقليم : لقد أشار القرآن الكريم إلى الأرض أو الدار أو الديار باعتبارها مقترنة مع الدين والقائمين بأمر الدين ، وذلك في قوله تعالى : ﴿**إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [٦] ، فقرن القتال في الدين بالإخراج من الأرض والديار ، وقد جعلها في موضع آخر مسوغاً للقتال : ﴿**قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا**﴾ [٧] ، بل كانت

---

١ . انظر نظام الإسلام الاقتصادي والسياسي ، يوسف حامد العالم ، ص ٩١ .

٢ . مثل الاتحاد المركزي " الفدرالي " الذي تتحد فيه مجموعة من الدول في تجمع سياسي ، يعبر عن سيادتها الخارجية ، وتتوزع فيه مظاهر السيادة الداخلية بين الحكومة المركزية وبين دول الأعضاء .

٣ . نظام الإسلام الاقتصادي والسياسي ، يوسف حامد العالم ، ص ١٠٤ .

٤ . المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

٥ . انظر السياسة والاقتصاد في التفكير الإسلامي ، أحمد شلبي ، ص ٣٨ ، نقلا عن مقدمة ابن خلدون ، ٢ / ٥٤٢ .

٦ . سورة الممتحنة ، آية ٩ .

٧ . سورة البقرة ، آية ٢٤٦ .

سبباً لتشريع القتال في أول آية نزلت في القتال ، قال تعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ (١) .

٢ . الشعب :

في المنظور الإسلامي يضم كل المواطنين الذين يدينون بالإسلام ويخضعون لحكمه مهما تكون أصولهم العرقية وانتماءاتهم القومية (٢) ، فالذي يجمعهم هو رابطة الأخوة : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (٣) ، والمساواة ووحدة الأصول البشرية : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (٤) ، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ (٥) ، والكرامة والعزة الإنسانية : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (٦) ، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧) ، ورابطة العقيدة والإيمان في إطار الأمة الواحدة : ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (٨) ، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (٩) ، وقال ﷺ : (المسلمون تتكافأ دماؤهم ، وهم يد على من سواهم ، يسعى بذمتهم أدناهم ...) (١٠) .

كما يجوز أن يدخل في هذا المفهوم السابق ، كل ذمي أو معاهد من غير المسلمين ، وتكفل لهم الدولة إقامة شعائرهم التعبدية وممارسة حقوقهم المدنية .

٣ . السلطة السياسية :

السلطة أو الولاية أو الحكم هي صفة من يتولى سياسة الدولة ، وتنظيم شؤونها والفصل في مشكلاتها ، وقضاياها في علاقات أفراد شعبها ، وشؤون معاشهم وعمرانهم ، والدفاع عنهم ، وفي العلاقات بينهم وبين الدول والشعوب الأخرى (١١) .

والنظام السياسي المعاصر يقوم على ثلاث سلطات ، هي : السلطة التنفيذية ، والسلطة التشريعية ، والسلطة القضائية ، وهو تقسيم يتماشى مع الهيكل السياسي للدولة الإسلامية في العصور الماضية ، ومع الاصطلاحات الزمنية التي ذكرها علماء الفقه السياسي ، من وزارة وإمارة ، وقضاء وديوان ، وولاية وحكم ، وتشريع وشورى .

فلا ضير في الاستفادة من الأشكال الحديثة في نطاق التطبيق السياسي مادامت تحقق أهداف الدولة الإسلامية وغاياتها من إحقاق الحق ، ومنع الاستبداد والطغيان ، وتنضبط بالقواعد والمبادئ الإسلامية ، وهذا يدل على المرونة التي تبديها النظم الإسلامية للصور والهيئات التي تتطور وتتحور بحسب تغير العصر والمكان والحال .

---

١ . سورة الحج ، الآيتان ٣٩ ، ٤٠ .
٢ . انظر نظام الإسلام – الحكم والدولة – ، محمد المبارك ، ص ١٠٠ .
٣ . سورة الحجرات ، آية ١٠ .
٤ . سورة الحجرات ، آية ١٣ .
٥ . سورة النساء ، آية ١ .
٦ . سورة الإسراء ، آية ٧٠ .
٧ . سورة المنافقون ، آية ٨ .
٨ . سورة الأنبياء ، آية ٩٢ .
٩ . سورة التوبة ، آية ٧١ .
١٠ . أخرجه ابن ماجه ، كتاب الديات ، رقم ٢٦٨٤ ، ٢ / ٨٩٥ .
١١ . نظام الإسلام – الحكم والدولة – ، محمد المبارك ، ص ٥٨ .

السلطة التنفيذية :

وتشمل في الاصطلاح الحديث : رئيس الدولة ، ورئيس الوزراء والوزراء ، وجميع موظفي الوزارات . ورئيس الدولة هو همزة الوصل بين السلطتين التشريعية والتنفيذية .

وما كتبه الفقهاء كالماوردي وأبي يعلى الفراء ، في موضوع الوزارة والإمارة والأمراء وسائر الولايات والوظائف ، هي أمور اصطلاحية زمنية واجتهادية وليست ملزمة لنا وللأجيال المقبلة ، وإنما يسترشد بها وينظر إلى تجاربنا المعاصرة ومشكلاتنا الحديثة وواقع مجتمعاتنا ، ويتخذ من ذلك ما يحقق الأهداف التي قصد إليها الإسلام (١) .

السلطة التشريعية :

تتمثل في مجلس يسمى مجلس النواب أو مجلس الشعب أو المجلس الوطني ، وتقوم بوظيفة التشريع أو إصدار القوانين والنظم ، كما تقوم ببعض الأمور التي هي في الأصل تنفيذية كالموافقة على الوزارة ، والمصادقة على المعاهدات ، وإعلان الحرب وما شابه ذلك ، وهذه الأمور تعود إلى تقييد الحاكم في سلطته التنفيذية لئلا يستبد برأيه وينفرد في حكمه (٢) .

ويراعي في التشريع وسن القوانين ، عدم الاجتهاد في القضايا النصية القطعية إذ لا اجتهاد في محل النص ، وألا تتصادم الإجراءات والقرارات الإدارية مع نصوص الكتاب والسنة ، وأن يبتعد عن صياغة القوانين الوضعية التي لا تتوافق مع محكمات الشرع .

كما يجب أن يكون هذا التشريع متحرراً من أهواء الحكام ومصالحهم ، ومراعياً لأحكام الشريعة ومصلحة الأمة ، ويتم ذلك بتأليف هيئة تشريعية تجمع العلماء في الفقه الإسلامي ، وأهل الخبرة والدراية في علوم العصر ، وواقع الحياة ، على أن يتصف الفريقان بالتقوى والاستقامة والتنزه عن الأغراض والمصالح والمطامع والأهواء الخاصة (٣) .

السلطة القضائية :

وتشمل في الاصطلاح المعاصر : السلك القضائي متمثلاً في القُضاء ووكلاء النيابة والمحامين ومحرري العقود ، والكتبة والمستشارين والخبراء ، ومأموري الضبط القضائي ، ومن البناء القضائي الذي يتمثل في المحاكم بأنواعها : المحكمة العليا ، والاستئناف ، والابتدائية ، والجزئية ، ومن محاكم فرعية : كالمحكمة الجنائية ، والمدنية ، والأحوال الشخصية ، ... الخ .

ولقد أكدت الشريعة على استقلال القضاء ، واستقلال القاضي بحيث يستطيع اتخاذ الحكم وتقرير الحق ، بعيداً عن المؤثرات النفسية : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ (٤) ، وبعيداً عن المؤثرات الخارجية ، بل يقضي بما أراه الله حسب

---

١ . انظر نظام الإسلام – الحكم والدولة – ، محمد المبارك ، ص ٨٤ .

٢ . انظر المصدر السابق ، ص ٨٢ .

٣ . انظر المصدر السابق ، ص ٨٢ .

٤ . سورة المائدة ، آية ٨ .

اجتهاده ، وحسب أحكام الشرع في المسائل المنصوص عليها ، قال ﷻ : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾ (١) ، ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ (٢) .

الفصل بين السلطات :

وهو فصل تقتضيه طبيعة التخصص ، بحيث يفسح لكل سلطة مباشرة مهامها باستقلالية وحرية ، وهذا الفصل لا يمنع من التنسيق والتكامل بين هذه السلطات ، كما لا يمنع من المراقبة والمساءلة والنقد فيما بينها .

فمن النصوص التي تدل على استقلال السلطة القضائية وحصانة القضاء ، قول أبو يعلى الفراء : (ولو مات الإمام لم ينعزل قضاته ، وقيل لا ينعزلون لأنه ناظر للمسلمين لا لمن ولاه ، ولهذا لو أراد عزله لم يملك ذلك) (٣) .

وما يشير إلى الفصل بين السلطات أيضاً ، ما ورد في كتاب الذخيرة في الفصل بين السلطة القضائية والتنفيذية : (أن ولاية القضاء تتناول الحكم ولا تتناول تنفيذه ، وليس للقاضي السياسة العامة ، وليس له قسمة الغنائم ، ولا تفريق بيت المال على المصالح ، وإقامة الحدود ، وترتيب الجيش وقتال البغاة) (٤) .

المراحل التكوينية للدولة الإسلامية الأولى(٥) :

١ . بدأ رسول الله – ﷺ – بتكليف من ربه ، يبلغ الدعوة الإسلامية سراً ثلاث سنوات ، فأسلم معه عدد قليل من الناس ، ثم أمره ربه أن يوسع محيط الدعوة بالجهر بها ، وإنذار عشيرته الأقربين ، قال تعالى : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٦) ، وقال تعالى : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٧) ، وقال تعالى مخاطباً الرعيل الأول للدعوة : ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (٨) .

وبذلك تكونت نواة المجتمع الإسلامي في مكة من الصفوة الأولى من الصحابة ، لتشكل الركن الأساس للدولة وهو الشعب الذي ينضوي تحت قيادة الرسول ﷺ التي تمثل السلطة السياسية للدولة .

٢ . لتكتمل أركان الدولة ، كان الرسول ﷺ يسعى جاهداً لإيجاد أرض تكون موطناً للمسلمين ، ومحضناً للدعوة الإسلامية ، وتكون له السيادة الكاملة عليها ، حتى ينظم شؤونه ويدير أموره .

وبعد الدراسة المستفيضة للواقع ، والاستقصاء الشامل لأحوال البلاد والعباد ، اهتدى رسول الله – ﷺ – إلى يثرب لتكون موطن الدولة وإقليمها ، وهذا حدث إثر بيعتي العقبة الأولى والثانية ، وبعد إرسال مصعب بن عمير(٩) ليقوم بمهام الدعوة ، وليمهد لهجرة المسلمين والرسول ﷺ من بعدهم .

---

١ . سورة النساء ، آية ١٠٥ . ٢ . سورة المائدة ، آية ٤٩ .

٣ . الأحكام السلطانية ، أبو يعلى الفراء ، ص ٨٤ . ٤ . السياسة والاقتصاد ، شلبي ، ص ٣٨ ، نقلا عن الديمقراطية في الإسلام ، العقاد ، ص١١٦.

٥ . انظر النظام السياسي ، أبو فارس ، ص ١٣٢ وما بعدها . ٦ . سورة الحجر ، آية ٩٤ .

٧ . سورة الشعراء ، آية ٢١٤ . ٨ . سورة النساء ، آية ٧٧ .

٩ . هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف القرشي ، من بني عبد الدار : صحابي من السابقين إلى الإسلام ، ومن العشرة المبشرين بالجنة وأول سفير في الإسلام ، هاجر إلى الحبشة ثم إلى إلى المدينة ، وكان أول من جمع الجمعة فيها ، وأسلم على يده أسيد بن حضير وسعد بن معاذ ، وشهد بدراً وحمل اللواء يوم أحد فاستشهد ، وكان في الجاهلية شاباً ذا جمال ونعمة ولما ظهر الإسلام زهد في النعيم ، وفيه وفي أصحابه نزل قوله تعالى : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) انظر الطبقات الكبرى ٣ / ٨٥ ، صفة الصفوة ١ / ٢٠٥ ، أسد الغابة ٥ / ١٧٥ ، الأعلام٧ / ٢٤٨ .

٣ . تنظيم شؤون الدولة الإسلامية ، ورسم سياستها الداخلية ، فعلى المستوى الداخلي كتب – ﷺ – كتاباً نظم فيه شعب المدينة على اختلاف فئاته وديانات وحدد حقوق وواجبات كل منها ، وأنشأ المؤسسات العامة وفي مقدمتها المساجد التي تعد المحاضن التربوية للشعب المسلم ، ومركزاً للإعلام ، وداراً لدراسة القضايا الواقعية ، ومجمعاً لتلقي الأمور العلمية .

وفي الجانب الاقتصادي بنى النبي ﷺ السوق التجارية في مواجهة المكر اليهودي ، ووجهه الوجهة الإسلامية الخالية من الاستغلال والجشع والاحتكار .

وفي مجال التكافل الاجتماعي آخى بين المهاجرين والأنصار في رباطٍ فريد ، وحبٍ وثيق ، لم تعرف البشرية مثله .

ثم على الصعيد العسكري قام – ﷺ – بإنشاء القوة الضاربة للدولة الإسلامية ، وهي الجيش الإسلامي المتحضر الذي استوعب قضايا عصره ومتطلباته من حيث التدريب وأدوات القتال .

أما على المستوى الخارجي فقد أرسل الرسول ﷺ السفراء والرسل إلى الملوك والرؤساء والأمراء يدعوهم إلى الإسلام ، ويوضح لهم معالم الدين الجديد .

وقبل أن يلحق بالرفيق الأعلى عين الولاة والقضاة والجباة ، فكان لديه الجهاز الإداري الملائم لذلك الواقع ، وكانت أسس الاختيار للولاة والأمراء والقضاة تقوم على المؤهلات العلمية والمسلكية أو على الكفاءة والأمانة ، قال تعالى على لسان بنت شعيب : ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (١) ، وقال صاحب مصر ليوسف : ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (٢) ، وفي صفة جبريل : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (٣) .

ثانياً . رئاسة الدولة في الفقه الإسلامي .

تسمى رئاسة الدولة في النظام الإسلامي الخلافة أو الإمامة الكبرى ، ويسمى رئيس الدولة خليفة ، وإماماً ، وملكاً ، وأميراً للمؤمنين ، وهي اصطلاحات زمنية لا مشاحة فيها ، ويمكن تغييرها وتحويرها انسجاماً مع الواقع ، وتوافقاً مع المعطيات والتقلبات البيئية والوقتية والظرفية .

فالإمامة كما يقول الماوردي : الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين ، وسياسة الدنيا (٤) .

وعن الخلافة يقول ابن خلدون : هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أن أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فحقيقة هذا المنصب أنه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به (٥) .

---

١ . سورة القصص ، آية ٢٦ .

٢ . سورة يوسف ، آية ٥٤ .

٣ . سورة التكوير ، الآيات ١٩ – ٢١ .

٤ . الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، الماوردي ، ص ٧ .

٥ . مقدمة ابن خلدون ، ٢ / ٥٧٨ .

إن نصب الإمام واجب قد عُرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين ؛ لأن أصحاب رسول الله – ﷺ – عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر – رضي الله عنه – وإلى تسليم النظر في أمورهم إليه ، وكذا في كل عصر من بعد ذلك ، ولم يترك الناس فوضى في عصر من العصور ، واستقر ذلك إجماعاً دالاً على وجوب نصب الإمام [١] .

وإن الغايات التي تعطي للدولة الإسلامية معناها ومبررات وجودها تنحصر في أن تجعل من شريعة الإسلام القانون المهيمن على شؤون الحياة ، كما يسود الحق والخير ... بصورة تتيح لجميع الأفراد أن يحظوا بالحرية والأمن والكرامة ... وأن تحمي الوطن من العدوان الخارجي وتصونه من التصدع الداخلي ، وأن تحتضن تعاليم الإسلام ، وتنشر رسالته في ربوع العالم على أوسع نطاق ممكن ... [٢] .

الشروط التي يجب توافرها في رئيس الدولة الإسلامية :

ويمكن إجمال هذه الشروط في : الإسلام [٣] ، البلوغ ، العقل ، الحرية ، العلم[٤] ، الذكورة ، العدالة ، الكفاءة [٥] ، المواطنة ، سلامة الحواس والأعضاء .

اختيار رئيس الدولة :

يتم اختيار رئيس الدولة في العرف الإسلامي عن طريق الترشيح المباشر من قبل أفراد الأمة ، ولا توجد كيفية ملزمة منصوص عليها لهذا الاختيار، وهذه الجزئية تدخل ضمن السياسة الشرعية التي قد تتبدل طبقاً لعوامل الواقع ، ووفقاً للوقائع والمستجدات التي تواجهها الأمة .

فأبوبكر وعلي – رضي الله عنهما – تم ترشيحهما بالانتخاب ،ثم تمت لهما البيعة الخاصة عن طريق أهل الشورى ، وتلتها البيعة العامة من عموم الأمة ، و سيدنا عمر رضي الله عنه تم ترشيحه بالاستخلاف ثم بايعه الناس البيعة العامة بعد وفاة أبي بكر ، أما عثمان رضي الله عنه فقد تم ترشيحه من بين الستة الذين عهد إليهم عمر ، ثم بويع بالبيعة الخاصة والعامة .

(فإذا توفرت في الرئيس المرشح للرئاسة الشروط السابقة ، وتحقق في هذا الاختيار العدل والشورى ، فلا حرج في طريقة الاختيار ، ولكن الذي جرت عليه سنة المسلمين في الصدر الأول أن اختيار رئيس الدولة كان يتم على مرحلتين :
١ . الترشيح : ويقوم به أهل الحل والعقد من وجهاء الأمة ، وهم أهل الشورى الذين يمثلون الأمة ويختارون باسمها الحاكم ثم يرشحونه للأمة لترى رأيها فيه ، وهذه المرحلة تسمى البيعة الخاصة .

---

١ . مقدمة ابن خلدون ، ٢ / ٥٧٩ . ٢ . منهاج الحكم في الإسلام ، محمد أسد ، ص ٧٣ .

٣ . يقول محمد أسد : إن رئاسة الدولة لا يمكن أن توسد إلا إلى شخص يؤمن بهذه الشريعة ، وبالمصدر الإلهي الذي جاءت من عنده أي أن يكون مسلماً ... إننا يجب أن لا نتعامى عن الحقائق ، فنحن لا نتوقع من شخص غير مسلم مهما كان نزيهاً مخلصاً وفياً محباً لبلاده ، متفانياً في خدمة مواطنيه ، أن يعمل من صميم فؤاده لتحقيق الأهداف الإيديولوجية للإسلام ، وذلك لعوامل نفسية محضة لا نستطيع أن نتجاهلها . المصدر السابق ، ص ٨٢ .

٤ . وهو العلم الذي يمكنه من استشارة مجلس الشورى المتكون من الخبراء بالواقع ، والفقهاء المجتهدين في أحكام النوازل والطوارئ .

٥ . بأن يكون ذا نجدة وشجاعة ، ورأي سديد ، وحنكة سياسية ، ويقظة واعية ، وله علم بأحوال الرجال وأخلاقهم وكفاءاتهم . انظر النظام السياسي في الإسلام ، د / محمد أبو فارس ، ص ١٨٧ .

٢ . البيعة العامة : وهي أشبه ما تكون بالاستفتاء ، فبعد أن يتم ترشيح الرئيس من أهل الحل والعقد ، يعرض الأمر للاستفتاء العام ، فإذا بايعه الناس أصبح ببيعتهم إماماً ورئيساً ، وإذا لم يبايعه الناس لم تنعقد إمامته ، ويطلب من أهل الحل والعقد ترشيح غيره ، وعرضه على الأمة للاستفتاء في اختياره) [١] .

واجبات رئيس الدولة [٢] :

١ . حفظ الدين على أصوله المستقرة ، وما أجمع عليه سلف الأمة ، فإذا ظهر مبتدع أو ذو شبهة أوضح له الحق ، وأقام عليه الحجة ، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود ؛ ليكون الدين محروساً من الخلل ، والأمة ممنوعة من الزلل .

٢ . تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بين المتنازعين ، حتى تعم النصفة– العدل – فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم .

٣ . حماية الإسلام وتوفير الأمان ،ليتصرف الناس في المعايش، وينتشروا في الأسفار آمنين على أنفسهم وأموالهم .

٤ . إقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك ، وتحفظ حقوق عباده من إتلاف واستهلاك .

٥ . تحصين الثغور بالعدة المانعة ، والقوة الدافعة ، حتى لا يظهر الأعداء بثغر ينتهكون فيها محرما ، أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دما .

٦ . جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة ، ليقام بحق الله تعالى في إظهاره على الدين كله .

٧ . تحصيل الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصاً واجتهاداً من غير خوف ولا عسف – ظلم – .

٨ . تقدير العطايا وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقتير ، ودفعه لمستحقيه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير .

٩ . استعمال الأمناء وتقليد النصحاء ، فيما يفوض إليهم من العمال ويكله إليهم من الأموال ، لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة ، والأموال بالأمناء محفوظة .

١٠ . أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور ، وتصفح الأحوال ، لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة ، ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة ، فقد يخون الأمين ويغش الناصح ، وقد قال الله تعالى : ﴿**يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ [٣] .

وقد زاد بعض العلماء واجبين آخرين ، هما :

(١١. دوام التمسك بحبل الشريعة والتزامها ، واعتماده في أمره على نقضها وإبرامها ، واعتبار أمور القائمين بأحكامها ، واغتناؤه بإقامة قضائها وحكامها .

١٢ . نشر العلم والعمل على توفير الحياة الكريمة لكل فرد من أفراد الرعية) [٤]

---

١ . انظر الفقه السياسي في الإسلام ، د / محمود الديك ، ص ٨٠ .

٢ . انظر الأحكام السلطانية ، الماوردي ، ص١٨ وما بعدها .

٣ . سورة ص ، آية ٢٦ .

٤ . النظام السياسي في الإسلام ، محمد أبو فارس ، ص ٢٠٠ .

هذه الواجبات أجملها أول خليفة في الإسلام ، فبعد أن تمت له البيعة ، قال : (أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني . الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، الضعيف فيكم قوي عندي حتى

أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله) (١) .

وقال عمر بن خطاب – رضي الله عنه – موضحاً برنامج ولايته : (أيها الناس اقرءوا القرآن تعرفوا به ، واعلموا بما فيه تكونوا من أهله ، ولن يبلغ ذو حق حقه أن يطاع في معصية الله ، ألا وأنه لن يبعد من رزق ولن يقرب من أجل أن يقول المرء حقاً ، ألا وإني ما وجدت صلاح ما ولاني الله إلا بثلاث : أداء الأمانة ، والأخذ بالقوة ، والحكم بما أنزل الله ، ألا إني وجدت صلاح المال إلا بثلاث : أن يؤخذ بحق ، وأن يعطى في حق ، وأن يمنع من باطل ...) (٢) .

فإذا فرّط في هذه الواجبات ، فقد انطبق عليه قول الرسول ﷺ : (ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة) (٣) .

حقوق رئيس الدولة :

يقول الماوردي : وإذا قام الإمام بما أوجب عليه من حقوق الأمة ، فقد أدى حق الله تعالى فيما لهم وعليهم ، ووجب له عليهم حقان : الطاعة ، والنصرة ، ما لم يتغير حاله ... (٤) .

وبشيء من التفضيل تكون حقوق الرئيس الثابتة له ، هي :

١ . حق السمع والطاعة : وهو يقتضي طاعة الرئيس فيما أمر ونهى ، شريطة ألا يأمر بمعصية ، قال تعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ** . قال – رضي الله عنه وأرضاه – : (على المرء السمع والطاعة فيما أحب وكره ، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية ، فلا سمع ولا طاعة) (٥) ، وقال ﷺ : (لا طاعة في معصية الله إنما الطاعة في المعروف) (٦) .

٢ . حق الإمام في مال المسلمين : فالإمام حينما يتولى أمر المسلمين يتفرغ لإدارة شؤونهم ، فيصرف نهاره وجل ليله في التفكير لهم والعمل لتحقيق مصالحهم ، فلا يجد وقتاً يكسب لعياله فيه . لهذا أوجب الإسلام له حقا في مال المسلمين ، يأخذ راتبا من بيت مال المسلمين (الخزانة العامة للدولة) ما يكفيه ومن يعول من أهله وذريته (٧) .

فعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : لما ولي أبوبكر قال : قد علم قومي أن حرفتي لم تكن لتعجز عن مئونة أهلي ، وقد شغلت بأمر المسلمين وسأحترف للمسلمين ، وسيأكل آل أبي بكر من هذا المال (٨) .

ولما رأى أبوبكر أن ما خصص له من بيت المال لا يكفيه ومن يعول ، طلب من المسلمين أن يزيدوه فزادوه خمسمائة درهم (٩) .

---

١ . البداية والنهاية ، ابن كثير ٦ / ٣٢٠ . ٢ . الأحكام السلطانية ، الماوردي ، ص ١٧٩ .

٣ . أخرجه البخاري عن معقل بن يسار ، فتح البارئ ، كتاب الأحكام ، باب من استرعي رعية فلم ينصح ، رقم ٧١٥١ ، ١٣ / ١٥٧ .

٤ . الأحكام السلطانية ، الماوردي ، ص ١٨ . ٥ . أخرجه مسلم عن ابن عمر ، كتاب الإمارة ، رقم ١٨٣٩ ، ٣ / ١٤٦٩ .

٦ . أخرجه مسلم عن علي ، كتاب الإمارة ، رقم ١٨٤٠ ،١٤٦٩/٣ . ٧ . انظر النظام السياسي ، محمد أبو فارس ٢٠٢ .

٨ . الطبقات الكبرى لابن سعد ، ٣ / ١٣٨ ، وفتح البارئ ، كتاب البيوع ، باب كسب الرجل وعمله بيده ، رقم ٢٠٦٩ ، ٤ / ٣٧١ .

٩ . انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ، ٣ / ١٣٨ .

٣ . النصرة : ويجب على الأمة أن تنصر الإمام ، وتقف بجانبه إذا تعرض للأذى أو تمرد على طاعته وخرج عليه فرد أو فئة من الناس بغير سبب موجب للخروج [١] .

٤ . النصيحة : ومن حق الإمام على الأمة أن تنصحه ، وأن تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر ، فإن الدين النصيحة ، كما قال – ﷺ – : (الدين النصيحة ثلاثاً ، قلنا : لمن ؟ ، قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) [٢] .

ولاية العهد :

درج كثير من الخلفاء المسلمين قبل موتهم أن يعهدوا إلى أشخاص يخلفونهم بعد موتهم في حراسة الدين ، وسياسة الدنيا به . فيكونوا خلفاء من بعدهم . وأول من عهد بالخلافة (الرئاسة) لغيره خليفة رسول الله ﷺ أبوبكر – رضي الله عنه – ، فإنه لما شعر بدنو أجله استشار بعض أهل الحل والعقد في المدينة فيمن يستخلف عليهم ، فرأي الأكثرية تميل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فعهد إليه بالخلافة من بعده ، وأمر عثمان بن عفان بكتابة كتاب الاستخلاف . وقد عهد عمر بن الخطاب إلى ستة من أصحاب رسول الله ﷺ ليختاروا من بينهم خليفة ، فاتفقوا على عثمان – رضي الله عنه – [٣] .

لذلك فإن الإسلام يأبى أن يجعل الخلافة وراثية تنحصر في نسل رجل معين ، تكون لأبنائه وأحفاده ، كما درج على ذلك بنو أمية فحصروا الخلافة فيهم طوال حكمهم ، وسار بنو العباس على منوالهم في هذا الشأن فجعلوها فيهم ، مما عرض البلاد إلى ثورات متعاقبة أنهكت الأمة الإسلامية وأضعفتها [٤] .

شروط انعقاد ولاية العهد [٥] :

١ . أن تتوافر في المعهود إليه الشروط نفسها المطلوبة في رئيس الدولة الإسلامية ، كالإسلام ، والحرية ، والبلوغ والعقل ، والذكورة ، والعدالة والكفاءة ، والمواطنة ، وغيرها .

٢ . أن يقبل المعهود إليه العهد ويرضاه ، فإن لم يقبل المعهود إليه العقد فلا ينعقد عهده ، ولا يجبر على ذلك ؛ لأن العهد عقد بين طرفين يحتاج إلى الرضى والموافقة منهما .

٣ . أن يكون المعهود إليه حاضراً ، أو في حكم الحاضر بحيث يكون معلوم الإقامة ، أما إذا كان مفقوداً أو مجهولاً فلا يجوز العهد إليه واستخلافه .

٤ . ألا يعهد المستخلِف إلى أصوله أو فروعه ، كآبائه وأجداده وأولاده وأحفاده ؛ ذلك لأن العهد كالشهادة والحكم ، ولا تقبل شهادة الرجل لأصوله ولفروعه ؛ لوجود التهمة بحقه في الانحياز لهم ، والتعاطف معهم .

---

١ . النظام السياسي في الإسلام ، د / محمد أبو فارس ، ص ٢٠٦ .

٢ . المصدر السابق ، ص ٢٠٧ ، والحديث أخرجه أحمد في مسنده ، عن تميم الداري ، رقم ١٦٨٨٤ ، ١٣ / ٢٠٨ ، وقال محقق المسند : إسناده صحيح .

٣ . انظر المصدر السابق ، ص ٢٤٦ .

٤ . انظر المصدر السابق ، ص ٢٥٠ .

٥ . انظر الأحكام السلطانية ، الماوردي ، ص ١٢ وما بعدها .

مدة رئاسة الدولة :

قال الإمام الجويني [١] – رحمه الله – : (ولا يجوز خلع الإمام من غير حدث ، ولا تغيير أمر ، وهذا مجمع عليه) [٢] ، أي يبقى في رئاسة الدولة طيلة حياته ، ولا يعزل من منصبه ؛ لأن الخلافة عقد ، إلا إذا طرأ عليه عارض يبطل أهليته للخلافة ، ويستوجب عزله ، وهذا من اجتهاد الجويني ولا يوجد نص شرعي يؤيده . ولذلك لا بأس من توقيت مدة الرئاسة بفترة معينة ، فإذا انتهت وبقى الحاكم أهلاً للمنصب وقادراً على تولي المسئولية ومستوفٍ لشروط الخلافة فلا مانع من ترشيحه وتجديد البيعة له ؛ لأن الرسول ﷺ كان يجدد البيعة بينه وبين أصحابه من فترة لأخرى .

وإذا طرأ على الإمام ما يفسقه فإن الأمة تتخلص منه بعدم اختياره لجولة أخرى ، وهذا خير طريق للتخلص من الإمام الجائر الفاسق دون إراقة الدماء ، كما أنه خير طريق لإبراز الكفاءات والخبرات [٣] .

الحالات التي تستوجب عزل رئيس الدولة [٤] :

١ . زوال العقل .
٢ . فقدان بعض الحواس التي تؤثر في الإدراك كفقد البصر .
٣ . فقدان الأطراف كاليدين أو الرجلين .
٤ . وقوع الخليفة في الأسر .
٥ . الكفر والردة .
٦ . فسق الإمام المنافي للعدالة .

طريقة العزل :

إذا كان الإمام يستحق العزل لفسقه أو لعدم أهليته ، فما هي الطريقة الشرعية المثلى التي تنتهج لعزله ؟

الطريقة الأنجع في ذلك هي التي تراعي درجات إنكار المنكر ، وما يترتب على إزالته ، قال رسول الله ﷺ : (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبقلبه ، فإن لم يستطع فبلسانه وذلك أضعف الإيمان) [٥] .

إن عزل الرئيس بالثورة أو استخدام القوة يدخل في درجة تغيير المنكر باليد ، وفي ذلك أقوال ، (ولكن أهل السنة إجمالاً يوازنون بين أمرين :

١ . ما يترتب على استخدام القوة ، وسل السيف من ضرر .
٢ . ما يترتب على بقاء الإمام الفاسق من ضرر .

وهم يختارون تحمل أخف الضررين لدفع أشدهما ، فهم يرون باختصار أنه إذا ترتب على عزل الإمام الفاسق فتنة أعظم من فتنة بقائه فلا يحل الخروج عليه ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : (ومتى كان السعي في عزله مفسدة أعظم من مفسدة بقائه لم يجز الإتيان بأعظم الفسادين لدفع أدناهما) [٦]) [٧] .

---

١ . هو أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني ، الملقب بإمام الحرمين ، من فقهاء الشافعية ، ولد في جوين بنيسابور ورحل إلى بغداد فمكة حيث جاور أربع سنين ،وذهب إلى المدينة فأفتى ودرس جامعاً طرق المذاهب ، ثم عاد إلى نيسابور وتوفي سنة ٤٧٨ هـ . له مصنفات كثيرة منها : غياث الأمم والتياث الظلم ، العقيدة النظامية ، البرهان في أصول الفقه ، مغيث الخلق ، نهاية المطلب في دراية المذهب في فقه الشافعية ، الورقات في أصول الفقه ، الإرشاد في أصول الفقه . انظر طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ، الوافي بالوفيات١١٦/١٩ ، شذرات الذهب ، الأعلام ٤ / ١٦٠ .

٢ . الفقه السياسي في الإسلام ، محمود الديك ، ص ١٠٨ ، نقلا عن نظام الحكم في الإسلام ، محمد يوسف موسى ، ص ١٠١ .

٣ . النظام السياسي في الإسلام ، محمد أبو فارس ، ص ٢٧٤ . ٤ . انظر الأحكام السلطانية ، الماوردي ، ص ١٨ وما بعدها، والنظام السياسي في الإسلام ، أبو فارس ، ٢٥٨ . ٢٦٧ .

٥ . أخرجه مسلم في صحيحه عن سعيد ، كتاب الإيمان ، رقم ٤٩ ، ١ / ٦٩ .

٦ . منهاج السنة النبوية ، ابن تيمية ، ٣ / ٣٩١ .

٧ . انظر النظام السياسي ، أبو فارس ، ص ٢٦٩ .

وإذا عجزت الأمة عن العزل بالوسيلة الأولى – القوة– ، يتم الانتقال إلى الوسيلة الثانية وهي تغيير المنكر باللسان ، وهو لون من ألوان النصيحة يقوم به أهل الحنكة والسياسة عن طريق مجلس الشورى الذي يمثل الأمة وله الصلاحية في إنهاء مدة الرئيس ، وخلعه من منصبه ، أما الوسيلة الثالثة وهي التغيير بالقلب والعزل بالمقاطعة ، فمن صورها المعاصرة ما يسمى بالعصيان المدني ، وهو فعل إيجابي له تأثيره الفعال في الضغط على الحاكم لكي يصلح حاله أو ينعزل .

ثالثاً . تكوين الحكومة الإسلامية .

في النظم السياسية المعاصرة تتكون الحكومة أو الهيكل الوظيفي للدولة من المؤسسة اللصيقة بالرئيس والتي يوكل إليها إدارة شؤون الدولة العليا ، وتتمثل في أعوان الرئيس ، وبطانته ومساعديه ، ونوابه ووزرائه ، ورئيس مجلس وزرائه .

النصوص الشرعية لم تحدد شكلاً معيناً لهيكل الدولة الإسلامية ، بل تركت الأمر موقوفاً على المصلحة العامة للأمة ، ومرتبطاً بالهدف الأسمى للدولة من حراسة الدين وسياسة الدنيا به .
وبعد اختيار الخليفة أو رئيس الدولة من قبل أهل الحل والعقد – المجلس التشريعي – ومبايعة الأمة له البيعة العامة ، فإنه يباشر عمله باختيار معاونيه ووزرائه ، بشرط أو يتوفر فيهم الصلاح والكفاءة ، وفي ذلك يقول ابن تيمية – رحمه الله – : (يجب على ولي الأمر أن يولي على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لهذا العمل ؛ لأنه من تأدية الأمانة ، في الآية التي نزلت في ولاة الأمور ، وهي قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [1] ، فإن عدل – أي مال – ولي الأمر عن الأحق والأصلح إلى غيره لأجل قرابة ، أو صداقة، أو مذهب ، أو جنس ، فقد خان الله ورسوله ، ودخل فيما نهى الله عنه في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾) [2] .

ولأهل الحل والعقد الاعتراض على الاختيار أو إقراره ، وللرعية – الشعب – حق إبداء الرأي ، وتوجيه النقد ، تجاه ممارسات وسلوك من يختارهم الخليفة ، ليتم تنبيههم أو عزلهم إذا رأى الخليفة ذلك .

الوزراء وأنواع الوزارات :

أ . التعريف بالوزارة :

الوزارة في اللغة مأخوذة من الفعل وزر ، والوزر : الملجأ ، لذلك قيل : وزير الخليفة معناه الذي يعتمد على رأيه ويلتجئ إليه ، والوزر : الحمل الثقيل ، ومنه قيل لوزير السلطان وزير ؛ لأنه يزر عن السلطان أثقال ما اسند إليه من تدبير المملكة [3] .

---

١ . سورة النساء ، آية ٥٨ .
٢ . انظر السياسة الشرعية ، ابن تيمية ، ص ١٩ ، والآية رقم ٢٧ من سورة الأنفال .
٣ . انظر لسان العرب ، ابن منظور ، ٥ / ٢٨٢ .

وقال الإمام الماوردي رحمه الله :
(اسم الوزارة مختلف في اشتقاقه على ثلاثة أوجه :

أحدهما : أنه مأخوذ من الوزر وهو الثقل ؛ لأنه يحمل عن الملك أثقاله .
الثاني : أنه مأخوذ من الوزر وهو الملجأ ، ومنه قوله تعالى : (كلا لا وزر) أي لا ملجأ ، فسمي بذلك ؛ لأن الملك يلجأ إلى رأيه ومعونته .
والثالث : أنه مأخوذ من الأزر ، وهو الظهر ؛ لأن الملك يقوى بوزيره كقوة البدن بالظهر ، ولأي هذه المعاني كان مشتقاً ، فليس في واحد منها ما يوجب الاستبداد بالأمور) [١] .

فالوزارة إعانة ومؤازرة ، والوزير هو الشخص المناسب – ذو الكفاءة والخبرة والأمانة – الذي يختاره رئيس الدولة ليساعده برأيه وقوته في إدارة دفة الحكم ، وتصريف شؤون الدولة ، وهي أعمال ومهمات تتطلب توزيع الجهود ، ولا يستطيعها الرئيس بمفرده .

ومشروعية الوزارة في كتاب الله ، جاءت في قوله تعالى : ﴿**وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي**﴾ [٢] ، وفي قوله سبحانه : ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً**﴾ [٣] .

فإذا جاز ذلك في النبوة كان في الإمارة أجوز ؛ ولأن ما وكل إلى الإمام من تدبير الأمة لا يقدر على مباشرة جميعه إلا بالاستنابة ، ونيابة الوزير المشارك له في التدبير أصح في تنفيذ الأمور من تفرده بها ليستظهر به على نفسه ، وبها يكون أبعد من الزلل ، وامنع من الخلل [٤] .

أما في السنة ، فقد جاء عن عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق : إن نسي ذكره ، وإن ذكر أعانه ، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء ، إن نسي لم يذكره ، وإن ذكره لم يُعِنْه) [٥] .

ونقل البخاري أن أبا بكر رضي الله عنه ،عقب أحداث سقيفة بني ساعدة ، قال للأنصار: بل نحن الأمراء وأنتم الوزراء[٦] ، وهو يقصد أن المهاجرين هم الحكام ، والأنصار يعنونهم في تحمل أعباء الحكم .

ويمكننا القول أن منصب الوزارة عرف في القديم ، وفي صدر الإسلام ، وتطور في العهد العباسي حتى أصبح لمنصب الوزارة أنظمة وقوانين وأحكام وشروط [٧] .

ولا مانع من مجاراة الصيغ العصرية الحديثة في المؤسسات الوزارية ، واستحداث نظم وأساليب جديدة تفي بالغرض مما تقتضيه مصلحة الدولة وسياسة الأمة ، وذلك تحت مظلة الشريعة ومنهاجها القويم .

---

١ . انظر الأحكام السلطانية ، الماوردي ، ص ٢٧ . ٢ . سورة طه ، آية ٢٩ .
٣ . سورة الفرقان ، آية ٣٥ . ٤ . الأحكام السلطانية ، الماوردي ، ص ٢٥ .
٥ . أخرجه أبو داود في سننه عن عائشة ، كتاب الخراج والإمارة والفيء ، رقم ٢٩٣٢ ، ٣ / ٢٣٣ .
٦ . أخرجه البخاري عن عائشة ، فتح البارئ ، كتاب فضائل الصحابة ، رقم ٣٦٦٨ ، ٧ / ٣٤ .
٧ . الفقه السياسي في الإسلام ، د / محمود الديك ، ص ١٤٢ .

ب . أنواع الوزارات في الدولة الإسلامية .

يقسم كتّاب الفقه السياسي الوزارات في العصور الذهبية للإسلام ، إلى قسمين : وزارة التفويض ، ووزارة التنفيذ .

وزارة التفويض .

وهي أن يستوزر الإمام أو رئيس الدولة أو غيره من حكام الأقاليم في الدولة الإسلامية رجلاً يفوض إليه تدبير الأمور برأيه ، وإمضاءها على اجتهاده ، والقيام بجل ما على عاتق المولي من واجبات . وله أن يستعين بمن شاء من المسلمين ، ويعزل من الولاة غير الأكفاء ، حتى يتمكن من الوفاء بما تعهد به من تحقيق مصلحة العباد ورعاية شؤون البلاد ، والقيام بما التزم به من تحصين الثغور وإقامة الحدود واقتحام الحروب [١] .

شروط وزير التفويض :

ويشترط فيه الشروط التي يجب توافرها في رئيس الدولة ، وهي ذات الشروط سالفة الذكر ، كالإسلام ، والبلوغ ، والعقل ، والحرية ، والعلم ، والذكورة ، والعدالة ، والكفاءة ، والمواطنة ، وسلامة الحواس والأعضاء .

وهناك شروط فنية ومسلكية نادى بها بعض العلماء ، وهي تندرج إجمالاً تحت هذه الشروط .

اختصاصات وزير التفويض[٢] :

١ . تولي النظر في المظالم .

٢ . له أن يتولى ولاية الجهاد .

٣ . وله أن يقوم بتنفيذ الأمور التي يدبرها .

٤ . وله أن يستنيب عنه .

٥ . أن يطلع رئيس الدولة على المسائل التي تصرف فيها بناء على تدبيره وفكره ، لكي ينال موافقته عليها ، ولئلا يستبد بالرأي وحده .

هذه الواجبات تشير إلى أن وزير التفويض له ما لرئيس الدولة من صلاحيات. ويستثنى من ذلك ثلاثة أمور،هي[٣] :

١ . **ولاية العهد** ، فليس للوزير أن يعهد إلى من يرى من الناس ليتولى أمر الخلافة – الرئاسة – من بعد الخليفة الحالي ، وينفرد الخليفة بهذا الحق دون الوزير .

٢ . **الاستعفاء من الخلافة** ، فللإمام أن يستعفي الأمة من الإمامة ، وليس ذلك للوزير .

٣ . **العزل** ، للإمام أن يعزل من قلده وزير التفويض ، وليس لوزير التفويض أن يعزل من قلده الإمام .

وتتفرع وزارة التفويض إلى نوعين[٤] :

١ . وزارة تفويض عامة مركزية ، يكون وزير التفويض مسئولاً عن إدارة شؤون الدولة في جميع الأقاليم ، وله ما للإمام من الصلاحيات التي ذكرت سابقاً .

٢ . وزارة تفويض إقليمية ، يكون وزير التفويض مسئولاً عن إدارة شؤون الإقليم الذي اختاره وفوضه والي الإقليم عنه ، وعلى هذا يمكن أن تكون لكل إقليم وزارة تفويض إقليمية ، ويكون لمن يتقلدها ما لوالي الإقليم من صلاحيات .

---

١ . انظر الأحكام السلطانية ، الماوردي ، ص ٢٧ .

٢ . انظر المصدر السابق ، ص ٢٨ .

٣ . انظر المصدر السابق ، ص ٢٨ ، والأحكام السلطانية للفراء ، ص ٣٦ .

٤ . انظر الأحكام السلطانية ، الماوردي ، ص ٣٢ .

وزارة التنفيذ .

إن هذه الوزارة أقل شأناً وأدنى مرتبة من وزارة التفويض ، فالذي يتقلد هذه الوزارة لا يشارك في رسم خطة الدولة غالبا ، بل تقتصر وظيفته على تنفيذ ما يوكل إليه الخليفة من أمور ، وينقل أخبار الولاة والرعية إليه ، كما ينقل تعليماته وأوامره إلى الولاة والأمراء والقضاة وسائر الرعية [١] .

فهو لا يملك إصدار أمر ما في شؤون الدولة ، ومن ثم فهو الواسطة بين الدولة وأجهزتها المختلفة ، وبين الحاكم والرعية ، وعليه أن يعرض على رئيس الدولة ما يرد من أمر مهم ، وما تجدد في استجلاب منفعة أو دفع ضرر ، وعليه أن يكتم أسرار رئيس الدولة ، وأن يكون عيناً له ... [٢] .

شروط وزير التنفيذ[٣] :

وهي : الذكورة ، والأمانة ، وصدق اللهجة ، والقناعة وقلة الطمع ، وخلوه من العداوة والشحناء بينه وبين الناس ، وقوة الذاكرة ، والذكاء والفطنة ، وألا يكون من أهل الأهواء ، والحنكة والتجربة .

يلاحظ أن بعض الفقهاء كالماوردي والفراء لم يشترطوا في وزير التنفيذ الحرية والإسلام والعلم بالأحكام الشرعية وهي صفات لازمة لوزير التفويض بالإضافة إلى الصفات السابقة ، وحجتهم في ذلك أن وزارة التنفيذ أقل شأناً ، وتقليدها العبد أو غير المسلم أو الجاهل بالأحكام الشريعة لا يشكل خطورة كبرى على كينونة الدولة المسلمة .

في المقابل نجد فريق آخر ، جعل شرط الإسلام شرطاً أساسياً لوزير التنفيذ ، وبذلك قال بعدم تقلد الذمي من أهل الكتاب وغيرهم منصب وزير التنفيذ ، (فقد نقل عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أن الذمي يمنع من تولي وزارة التنفيذ ، فقد سئل رحمه الله : نستعمل اليهودي والنصراني في أعمال المسلمين مثل الخراج . فقال : لا يستعان بهم في شيء) [٤] .

ومن الآيات المؤيدة لهذا الفريق ، قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ [٥] .

قال ابن كثير في تفسير الآية : أي من غيركم من أهل الأديان ، وبطانة الرجل خاصة أهله الذين يطلعون على داخل أمره [٦] .

وقيل لعمر بن الخطاب – رضي الله عنه – : أن هاهنا غلاماً من أهل الحيرة حافظ كاتب ، فلو اتخذته كاتباً ، فقال :قد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين [٧] . قال ابن كثير : (في هذا الأثر مع الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين واطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب ولهذا قال تعالى : (لا يألونكم خبالا) [٨] .

---

١ . انظر الأحكام السلطانية ، الفراء ، ص ٣٧ ، و الماوردي ، ص ٢٨ . ٢ . انظر الفقه السياسي في الإسلام ، محمود الديك ، ص
٣ . انظر الأحكام السلطانية ، الماوردي ، ص ٢٩ . ٤ . الأحكام السلطانية ، الفراء ، ص ٣٩ .
٥ . سورة آل عمران ، آية ١١٨ . ٦ . تفسير ابن كثير ، ٢ / ٩٥ .
٧ . المصدر السابق ، ٢ / ٩٥ . ٨ . المصدر السابق ، ٢ / ٩٥ .

وقال القرطبي رحمه الله معقباً على هذا الأثر : (وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كتبة وأمناء ، وتسودوا بذلك عند الجهلة الأغبياء من الولاة والأمراء) [١] .

والراجح في قول الفريقين هو التوسط بين المنع والإباحة ، فالأصل هو تقليد هذا المنصب للمسلم المؤتمن ، وذلك لانتفاء التهمة ، وتوفر العدالة العامة بالانتماء لهذا الدين ، ويجوز تقليد غير المسلمين بعض الوظائف التي تدخل ضمن وزارة التنفيذ – كالصناعات واللغات ، والشؤون الزراعية والحربية – كما عمل به في فترات تاريخية سابقة ، بشرط عدم وجود البديل الإسلامي ، وأن تكون لهم الكفاية في المهنة ، والإتقان في العمل ، وهذا التعامل يدل على سماحة الإسلام مع غير المسلمين بوصفهم من جملة الشعب ، ولهم حق المواطنة ، طالما التزموا بقوانين الدولة ، وتوفرت فيهم الشروط اللازمة في وزارة التنفيذ كالأمانة والحنكة والكفاءة والتجربة في تدبير الأمور .

أما شرط الحرية فهو ضروري ولازم لتولي هذا المنصب ، فلا يعقل أن يكون فاقد الحرية وزير تنفيذ يطلع على أسرار المسلمين ويشارك برأيه غالبا في قضاياهم الحساسة والكبرى ، وهو لا يملك النظر في خاصة نفسه ، وأمره معلق بأمر سيده .

وبالنسبة لشرط العلم بالأحكام الشرعية فهو شرط تكميلي وليس أساس في وزير التنفيذ . لأن وظيفته ليست الحكم بين الناس بل تقوم على تنفيذ ما يطلب منه ، وتبليغ الأوامر والتعليمات من الخليفة إلى الرعية والولاة ، خلاف ما عليه الحال في وزير التفويض الذي يشترط فيه العلم بالأحكام الشرعية ؛ لأنه ينوب عن الحاكم في حفظ الدين وسياسة الدنيا به .

اختصاصات وزير التنفيذ [٢] :

١ . ينفذ الوزير ما يصدره الخليفة من أحكام .

٢ . يخبر بتقليد الولاة وتسيير الجيوش وتجهيزها .

٣ . يطلع على أسرار الدولة من الخليفة وينقلها إلى الولاة والأمراء .

٤ . يطلع أسرار الأقاليم ومشكلات الرعايا وتحركات الجيوش وينقلها إلى الخليفة .

٥ . يشارك في الرأي إذا أراد الخليفة ذلك .

وتتفرع وزارة التنفيذ أيضاً إلى نوعين [٣] :

١ . وزارة تنفيذ عامة مركزية ، وهي وزارة تنبثق عن رئيس الدولة الإسلامية ، الخليفة أو الإمام ، فهو الذي يختار لهذا النوع من يريد ويأذن له ، ويكون هذا وزير تنفيذ للخليفة ، يقوم باطلاعه على أحوال الولاة والرعايا ، وينقل إليهم ما يريد الخليفة ، كما يقوم بإمضاء أحكامه وتنفيذ أوامره ، ومجال عمله جميع أقطار الدولة الإسلامية إلا إذا حدد له الخليفة جهة معينة .

٢ . وزارة تنفيذ خاصة إقليمية ، وهي تنبثق عن والي الإقليم ، وتكون صلاحيات من يتقلد هذه الوزارة متعلقة بهذا الإقليم فقط دون سائر الأقاليم .

---

١ . الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، ٢ / ٥٣٥ . ٢ . انظر الأحكام السلطانية ، الماوردي ، ص ٢٨ وما بعدها .

٣ . انظر النظام السياسي في الإسلام ، د / محمد أبو فارس ، ص ٣٤٢ .

مما سبق نستطيع حصر الفرق بين وزارتي التفويض والتنفيذ في جهتين ، من جهة الشروط ، ومن جهة الاختصاصات ، فمن ناحية الشروط يشترط في وزارة التفويض الإسلام والحرية والعلم بالأحكام الشرعية ، وعلى العكس في وزارة التنفيذ ، مع الاختلاف بين الفقهاء على الوجه الذي بينا سابقاً .

ومن ناحية الاختصاصات فإنه يظهر الفرق في الآتي [١] :

١ . يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم ، والنظر في المظالم ، وليس ذلك لوزير التنفيذ .

٢ . يجوز لوزير التفويض أن يستبد بتقليد الولاة ، وليس ذلك لوزير التنفيذ .

٣ . يجوز لوزير التفويض أن ينفرد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب ، وليس ذلك لوزير التنفيذ .

٤ . يجوز لوزير التفويض أن يتصرف في أموال بيت المال بقبض ما يستحقه له ، ودفع ما يجب فيه ، وليس ذلك لوزير التنفيذ .

وخلاصة القول في الوزارة والوزراء ، أن رؤساء الوزارات في النظم الدستورية المعاصرة هم وزراء تفويض ينوبون عن الملوك والرؤساء في إدارة شؤون الدولة ، أما الوزراء في داخل الحكومة فهم وزراء تنفيذ ، ووزراء تفويض في نطاق اختصاصهم ، وهناك ما يعرف بوزراء الدولة وهم ما يطلق عليهم وزراء الأقاليم ، وصلاحياتهم تحدد ضمن هذه الأقاليم ، كما أن اصطلاح الوزارة العامة يشير إلى مركزية الدولة ، وحسم قرارها في رأس السلطة .

ونظراً لتطور العصر ، وتعقد الواقع ، فلا بأس من استحداث مناصب بهياكل ومسميات جديدة ، وتعدد الوزراء بحسب مهامهم واحتياجات الدولة لهم ، كوزير العدل ، والخارجية ، والتعليم ، والصحة ، وغير ذلك ، بشرط التقيد بقوانين العدالة الإلهية ، وبأحكام الشريعة الإسلامية .

رابعاً . الدولة الإسلامية وعلاقاتها الخارجية .

تستند الدولة الإسلامية في علاقاتها الخارجية ، إلى أن الإسلام دين إنساني يقوم على المساواة والتعارف : ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [٢] ، وأنه دين عالمي ورسوله للإنسانية جمعاء : ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً**﴾ [٣] ، ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [٤] ، وأن العلاقة بين المسلمين وغيرهم تسير وفق قوله تعالى : ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [٥] . ولذلك كانت النتيجة أن امتدت رسالة الإسلام إلى الأمم والملوك ، وتجاوزت الحدود والرسوم .

---

١ . انظر الأحكام السلطانية ، الماوردي ، ص ٣٠ .

٢ . سورة الحجرات ، آية ١٣ .

٣ . سورة الأعراف ، آية ١٥٨ .

٤ . سورة سبأ ، آية ٢٨ .

٥ . سورة الممتحنة ، الآيتان ٨ ، ٩ .

والسياسة الخارجية للدولة الإسلامية لها أهداف ؛ منها : حماية السيادة الإقليمية ، ودعم الأمن القومي ، وتنمية مقدرات الدولة وإمكاناتها ، وكذلك إثراء الاقتصاد ، ومن أهدافها أيضاً الدفاع عن أيديولوجية الدولة ، أو العمل على نشرها في الخارج ، كما لها أهداف ثقافية متنوعة [١] .

أ . العلاقات الدبلوماسية ، ونظام السفارات .

تعد الدبلوماسية العبقرية والعقلية في السياسة الخارجية ، التي تمثل توجهات الدولة ورؤاها في المحافل الدولية ، ومع الدول الصديقة والشقيقة ، والحليفة ، وغيرها ، ويشكل القانون الدولي قطبها الرئيسي بجانب ارتباطها بالقوانين الأخرى ، وبسياسة الدولة الداخلية واقتصادها .

وهي كما هو الحال في السياسة العامة فن الممكن الذي يحمل من يحترفها على المرونة في التعامل ، وعلى العقلانية والواقعية في تحديد المواقف ، وتقدير الإمكانات .

والسلك الدبلوماسي في الدولة المعاصرة مرتبط بوزارة الخارجية ، وهو يتكون من السفراء وسفاراتهم ، ومن القناصل والمكاتب القنصلية ، ويعاونهم في ذلك : الاستشاريون ، والوكلاء والمندوبون ، والفنيون والإداريون .

ومن هنا ، فإن السفير هو الرسول الذي تبعثه إحدى الدول لتحقيق أي غرض دبلوماسي تسعى لتحقيقه وإنجازه ، عن طريق المباحثات أو المفاوضات وغيرها من الأساليب الدبلوماسية مع ممثلي الدول الموفد إليها [١] .

(وقد لعبت الدبلوماسية دوراً كبيراً ومهماً في تقريب وجهات النظر بين الدول ، والحد من المنازعات ، ووضع أسس التفاهم بين الدول .

ويرجع تاريخ الدبلوماسية الإسلامية إلى عهد الرسول- ﷺ - ، فقد أسس دولته في المدينة المنورة ، ودعا إلى الإسلام بالوسائل السلمية ، فبعث السفراء في بداية ذي الحجة من السنة السادسة للهجرة إلى الملوك ورؤساء الدول ، امتثالاً لأمر الله : ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [٢] . ثم تطورت في الأزمنة اللاحقة العلاقات الدبلوماسية بين الدولة الإسلامية والدول المعاصرة لها ، في النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية والعسكرية ، حتى غدت الدولة الإسلامية مستودعاً للفكر والمعرفة ، ومركز إشعاع للعلوم والآداب والفنون) [٣] .

لقد كانت سياسته ﷺ في مخاطبة الملوك تقوم على اختيار صفوة الدعاة الذين يجيدون فن الدبلوماسية ، وكانوا قبل الإسلام من جهابذة العرب ودهاتها ، كعمرو بن العاص ، وعمرو بن أمية الضمري ، وعبد الله بن حذافة السهمي ، وحاطب بن أبي بلتعة ، وكان يخاطب الملوك بألقابهم كعظيم الروم ، وعظيم الفرس ، وعظيم الحبشة ؛ لكي يضرب على الأوتار النفسية التي يخشاها الحاكمون ،ويطمئنهم على ملكهم إذا دخلوا الإسلام ، أو لم يحاربوه والتزموا بعهده .

أغراض الدبلوماسية الإسلامية :

١ . الهدف الأساسي لها هو نشر الدعوة الإسلامية ، ودعوة رؤساء الدول للدخول في الإسلام ، ونقل الشعوب من مجاهل الظلم إلى نور العدل .

---

١ . الفقه السياسي الإسلامي ، خالد فهداوي ، ص ٢٥٢ ، نقلاً عن العلاقات السياسية الدولية ، إسماعيل صبري ، دار ذات السلاسل ، الكويت ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨٧ م . ٢ . سورة النحل ، آية ١٢٥ . ٣ . انظر الفقه السياسي في الإسلام ، محمود الديك ، ص ٣٦٨ وما بعدها .

٢ . توثيق الروابط السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي ترسي قواعد السلم ، وتدعم التعاون وتبادل الخبرات مع هذه الدول .

٣ . كانت تستخدم الدبلوماسية لإنهاء الحرب ، وتبادل الأسرى ، وعقد الهدنة أو ما يسمى في اصطلاح العصر بالتهدئة .

٤ . استطلاع قوة الآخر وعدده ، وإمكاناته البشرية والمادية .

٥ . بناء العلاقات العسكرية التي تفضي إلى تبادل الخبرات الحربية ، وتمتين الروابط السلمية .

٦ . توطيد العلاقات الثقافية ، وذلك عن طريق فتح مراكز ثقافية ، وتبادل البعثات العلمية ، سعياً إلى نقل الحضارة من وإلى الآخر .

٧ . كانت الدبلوماسية تستخدم لنقل التهاني والرسائل الودية ، في المناسبات التي تخص الحكام أو شعوبهم .

الشروط الواجب توافرها في السفير[١] ، وحقوقه :

فالشروط هي :

١ . الكفاءة العلمية ، ووفور العقل الذكي . ٢ . قوة الحجة وطلاقة اللسان .

٣ . الولاء والإخلاص للدولة المبعوث منها ، وهو الإخلاص لله ورسوله والمؤمنين .

٤ . الأمانة في النقل وصدق اللهجة . ٥ . قوة الشخصية حتى لا يضعف أمام المبعوث إليهم .

٦ . أن يكون حسن الوجه كامل الخلقة بالإضافة إلى كمال الخُلق وطلاقة اللسان .

٧ . يفضل السفير الذي يحسن لغة القوم المبعوث إليهم .

أما حقوق السفراء أو الحصانة الدبلوماسية التي نص عليها القانون الدولي الحديث ، فهي [٢] :

١ . عدم التعرض لأشخاصهم ، لا من قبل الدولة ولا من قبل فرد من أفرادها .

٢ . عدم خضوعهم للقضاء الجنائي أو المدني في الدولة التي هم مبعوثون إليها .

٣ . عدم خضوع دار الوكالة السياسية ومحتوياتها للقضاء الإقليمي .

٤ . الإعفاء من بعض الضرائب والرسوم الجمركية .

٥ . عدم التعرض لرسائلهم الشفرية وغيرها ، ولا يجوز فضها أو الإطلاع عليها .

وهذه الامتيازات هي حقوق مبالغ فيها ، فالفقهاء في الدولة الإسلامية لا يعطون السفراء تفاضلاً يزيدون به عن أي مستأمن عادي ، كما أن المسلمين من أصحاب الهيئات الدبلوماسية مسائلين أمام القانون الإسلامي كشأن أي فرد من أبناء المجتمع ، ولا حرج من اعتماد النقاط التي لا تتنافى مع قواعد العدالة والشرع مثل الإعفاء من الضرائب ، وعدم المساس بالأشياء الخاصة كالدور والرسائل ، خصوصاً إذا كان هناك تعامل بالمثل من الجانب الآخر .

---

١ . انظر الفقه السياسي في الإسلام ، محمود الديك ، ص ٣٩٨ .

٢ . انظر المصدر السابق ، ص ٣٨٥ .

ب . المعاهدات السلمية ، والتحالفات السياسية .

التعايش السلمي هو القاعدة الطبيعة في العلاقات السياسية الإنسانية ، ومن أدواته الاتفاقيات ومعاهدات الصلح التي تبرمها الدول مع بعضها ، وإذا قامت الحرب تلجأ الدول إلى تسوية النزاعات ، وعقد الهدنة ، والمسالمة والموادعة ، كنوع من تصفية الجو والرجوع إلى المربع السلمي مرة أخرى .

إن شعار الإسلام هو السلام ، قال تعالى :﴿ **تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً** ﴾ (١) ، والله هو السلام ، والسلام أقصر الطرق لتحقيق الهدف ، ولذا ؛ يقول **سبحانه** : ﴿**ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً** ﴾ (٢) ، وليست الحرب والمقاطعة وأساليب العنف إلا وسائل اضطرارية شاذة على خلاف الأصول الأولية الإسلامية ، والحرب تقدر بقدرها على ما تقتضيه السياسة الشرعية ، فقد تكون المصلحة في المعاملة بالمثل : ﴿**فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ** ﴾ (٣) ، وقد تكون بالعفو والصفح : ﴿**وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى** ﴾ (٤) .

وهذا يعني أن المسلم بحكم عقيدته مفطور على هذه العاطفة الإنسانية العميقة ، ويؤمن بأن الحدود الجغرافية والتقسيمات السياسية ، واختلاف الأشكال والأجناس واللغات ، لا يقف حائلاً بين الإنسان وبني جنسه ، لذلك فإن الدولة الإسلامية هي دولة تنأى عن العزلة ومنفتحة على العالم ، تتبادل معه المعارف والمصالح بميزان العدل من غير ظلم ، والأعداء ليسوا على درجة واحدة ، كما أنه لا مانع من الدخول في المواثيق الدولية العالمية كميثاق الأمم المتحدة الذي يشبه حلف الفضول في زمن الرسول ﷺ (٥) .

وليس في الإسلام حق النقض المسمى الفيتو للدول الكبرى صاحبة القوة ، فالرسول ﷺ عاهد أمماً وأقواماً ضعفاء ، كان يستطيع أن يقطع دابرهم في أي وقت يشاء ، ولكنه عاهدهم على الوفاء ؛ لأن الإيمان الحق معناه الوفاء والعدل ولو مع الخصوم (٦) . وكان ﷺ لا يلتجئ إلى الحرب الدفاعية إلا بعد فقدان الخيارات التي كانت عبارة عن الأمور الآتية : الحياد ، أو العهد – عقد الذمة (٧) – ، أو معاهدة عدم الاعتداء ، فإذا أسلم الطرف الآخر فقد حقن ماله ودمه ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، والإسلام ليس أمراً قسرياً كما هو واضح ، وإنما هو عبارة الأدلة القاطعة التي توجب اقتناع العقل بصحة المبدأ ، والمعاد ، والرسول ، والشريعة ، وغيرها (٨) .

---

١ . سورة الأحزاب ، آية ٤٤ .

٢ . سورة البقرة ، آية ٢٠٨ .

٣ . سورة البقرة ، آية ١٩٤ .

٤ . سورة البقرة ، آية ٢٣٧ .

٥ . انظر الفقه السياسي في الإسلام ، محمود الديك ، ص ٤٣٢ .

٦ . انظر المصدر السابق ، ص ٤٥٣ .

٧ . هو عقد تجريه السلطة التنفيذية في الدولة الإسلامية مع غير المسلمين ، وهو أبدي غير مؤقت ، ويصبح المعقود لهم عقد الذمة مواطنين من مواطني الدولة ، ولهم حرياتهم الدينية ، مقابل ضريبة يدفعونها تسمى الجزية ، وذلك نظير أمنهم والدفاع عنهم .

٨ . انظر الفقه السياسي الإسلامي ، خالد الفهداوي ، ص ٢٧٦ .

دليل مشروعية المعاهدات والتحالفات من الكتاب والسنة :

يقول الله تعالى في وصف المؤمنين : ﴿**الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ** ﴾ (١) ، ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ** ﴾ (٢) . وقال ﷻ : ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا** ﴾ (٣) .

يقول ابن كثير في الآية السابقة : هذا أمر من الله تعالى يوجب الوفاء بالعهود ، والمحافظة على الأيمان المؤكدة (٤) .

ومن السنة قول رسول الله – ﷺ – : (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً : إذا حدث كذب ، وإذا وعد خلف ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر) [٥] . وأول معاهدة دولية عقدها الرسول الكريم كانت بين المسلمين واليهود والمشركين بعد هجرته من مكة إلى المدينة .

غايات السلام في الإسلام[٦] :

١ . أن يعيش الناس كلهم متضامنين متضافرين في مهمة بناء المجتمع وتحقيق التنمية ، وليس أمراً كالحرب يؤدي إلى الخراب الاجتماعي والسياسي والأسري .

٢ . عدم الدخول في السلم يؤدي إلى إتباع خطوات الشيطان التي تؤدي إلى نشوب القتال والتصارع بين بني الإنسان ، فلا يبقى للغة الحوار معنى ولا مكان : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ** ﴾ [٧] .

٣ . السلام إرجاع للإنسان إلى فطرته التي فطره الله عليها في تغليب طابع الإخاء الإنساني ، والتعاوني البشري ، والتعامل المتحضر ، ووسيلة ذلك كله الإقناع والحوار : ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [٨] .

٤ . السلام وسيلة من وسائل الثروة والتمكين والتنمية ، بينما تكون الحرب طريقاً إلى الفقر والحاجة التي تفضي غالباً إلى التبعية : ﴿**وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** ﴾ [٩] .

ضوابط السلام في الإسلام [١٠] :

١ . أن لا تكون الدعوة إلى السلام مفضية إلى الهوان ، بل لا بد أن يكون السلام نابعاً من قناعات الطرف المحارب الآخر أيضاً ، يدفع لهذه الحقيقة يقين المؤمنين أنهم هم الأغلبون في الأرض ، وأن الله تعالى معهم تأييداً ونصراً ، وذلك مما يمكن فهمه من قوله تعالى : ﴿**فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ** ﴾ [١١] .

---

١ . سورة الرعد ، آية ٢٠ . ٢ . سورة المؤمنون ، آية ٨ .

٣ . سورة النحل ، آية ٩١ . ٤ . انظر تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ٤ / ٦٦ .

٥ . متفق عليه ، عن عبد الله بن عمرو وأبي هريرة ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الإيمان ، رقم ٣٧ ، ص ٢١ ،

٦ . الفقه السياسي الإسلامي ، خالد الفهداوي ، ص ٢٠٦ . ٧ . سورة البقرة ، آية ٢٠٨ .

٨ . سورة الحجرات ، آية ١٣ . ٩ . سورة الأنفال ، آية ٤٦ .

١٠ . انظر الفقه السياسي الإسلامي ، خالد الفهداوي ، ٢٠٧ .

١١ . سورة محمد ، آية ٣٥ .

٢ . قرار السلام ينبغي أن يكون نابعاً من مصلحة الأمة عبر مؤسسة أهل الحل والعقد ، وألا يلغي خيار الجهاد .

٣ . أن لا يؤدي إلى التنازل عن حق مقدس ؛ مثل تنازل البعض عن القدس ومسجدها الأقصى ، فهي أرض وقفية لا يجوز التنازل عنها بأي حال من الأحوال .

٤ . أن يكون جنوح المسلمين تالياً لجنوح الآخرين ، وإلا سيصبح السلام هدفاً تكتيكياً يسلكه الخصم ، ثم يتخلى عنه في الوقت الذي يريد ، قال تعالى : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١) .

٥ . أن لا يكون السلام مبرراً لأن تتخلى الأمة عن رسالتها المكلفة بها ومشروعها الحضاري الذي تدافع عنه بالجهاد والسلام على حد سواء .

ج . العلاقات الخارجية في الظروف الطارئة ، والأوضاع الحربية .

قواعد الحرب في الإسلام (٢) :

١ . لا حرب بدون دعوة وإنذار لرؤوس القوم ، ومن ذلك رسائل النبي محمد – ﷺ – للموك والرؤساء التي دعاهم فيها إلى الإسلام بقوله : (أسلم تسلم يؤتيك الله أجرك مرتين) (٣) .

٢ . الأصل في العلاقة مع المجتمع الدولي هي السلم والحوار ، ما دامت لغة التفاهم هي السائدة .

٣ . يعد الاعتداء على المسلمين سبباً من أسباب القتال ، وكذلك الاعتداء على أهل الذمة ؛ لأنهم في حماية الدولة الإسلامية ، ويضاف إلى ذلك الظلم الواقع على غير المسلمين من الحلفاء .

غايات الحرب في القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة (٤) :

إن الحرب أنواع ؛ فمنها الحرب الوقائية ، ومنها الحروب المحدودة ، وحروب الاستنزاف ، والحروب الأهلية ، والحروب الثورية ، والحرب العادلة ، وكذلك الحرب بطريق الخطأ .

إن إعلان حالة الحرب في مفهوم الفقه السياسي الإسلامي يأتي ضمن سياسة عامة مفصلة وتدريجية ، ولم يكن إعلانها يرمي إلى تلبية رغبات العدوان أو تطلعاً لإذلال الآخرين ، بل يكون إعلان الحرب تلبية لفريضة الجهاد التي ترمي إلى تحقيق غايات وأهداف محددة وسامية من عملية الحرب ، وهذه أهمها من خلال القرآن الكريم والسنة المطهرة :

١ . الإطاحة بالأئمة المضلين الذين يحجبون الناس عن التعرف على الهدى ، حتى يكون الجمهور وجهاً لوجه أمام دعوة الحق ونداء الفطرة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ (٥) .

٢ . مقاتلة الكفار الذين يلون المسلمين في الموقع الجغرافي ، ولم سياسة دائمة في التحشيد والتمكن مالياً وعسكرياً ، وذلك في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٦) .

---

١ . سورة الأنفال ، آية ٦١ .
٢ . الفقه السياسي الإسلامي ، د / خالد فهداوي ، ص ٢٧٣ .
٣ . البداية والنهاية ، ابن كثير ، ٤ / ٢٧٩ .
٤ . انظر الفقه السياسي الإسلامي ، د / خالد فهداوي ، ص ١٩٩ .
٥ . سورة التوبة ، آية ١٢ .
٦ . سورة التوبة ، آية ١٢٣ .

٣ . إعلان الحرب والقتال بهدف إيقاف طائفة البغي عند حدودها ، حتى تتحقق العدالة في المجتمع ، ويعيش الناس بأمان ، وتمارس المؤسسات المدنية صلاحياتها كاملة في ذلك المجتمع ، وذلك مفهوم قوله تعالى : ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (١) .

٤ . يكون القتال والجهاد بإعلان الحرب لرفع الظلم عن أهل الإسلام ، وذلك مضمون قوله تعالى : ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** ﴾ (٢) ، فالحرب بهذا المعنى رد للعدوان ودفاع عن الحرمات .

٥ . إعلان حالة الحرب والقتال والعقوبة على المفسدين في الأرض بقصد القضاء عليهم بوصفهم قد أصبحوا عنصراً مخلاً بأمن المجتمع ومُدجنًّاً للجريمة ، وذلك منطوق قوله تعالى : ﴿**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ (٣) .

٦ . يكون إعلان الحرب والبدء بالقتال مبرراً عندما تكون اهتمامات الخصم كلها منصبة على التهيئة للحرب ، فكأنه فيها ، ومن ثم تكون حالة الحرب بهدف تفتيت تجمع الكفر المقاتل وتشريدهم ، وذلك يفهم من قوله تعالى : ﴿**فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** ﴾ (٤) .

٧ . بناء أنموذج ظاهره الإيمان وباطنه الكيد للدين وتجميع المنافقين لإيجاد البديل ، مبرر واضح وسبب مقبول لإعلان الحرب على ذلك التجمّع ، وذلك مفهوم قوله تعالى : ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴾ (٥) .

٨ . رفع الذل عن الأمة ، وجعلها أمة عزيزة مرهوبة الجانب مبرر لعودة النخبة فيها إلى فريضة الجهاد ، وذلك واضح في حديث أبوبكر الصديق – رضي الله عنه – : (... ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا ، ولن يرفع الله عنهم ذلك الذل حتى يعودوا إلى دينهم) (٦) .

٩ . الثابت في التاريخ الإسلامي أن إعلان الحرب قد كان سبباً مهماً من أسباب نشر الدين وتعاليمه في أرجاء العالم البشري : ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ (٧) ، وجاء في الحديث الشريف أن رسول الله – ﷺ – قال : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله) (٨) .

---

١ . سورة الحجرات ، آية ٩ .

٢ . سورة الحج ، آية ٣٩ .

٣ . سورة المائدة ، آية ٣٣ .

٤ . سورة الأنفال ، آية ٥٧ .

٥ . سورة التوبة ، آية ١٠٧ .

٦ . البداية والنهاية ، ابن كثير ، ٦ / ٣٢٠ .

٧ . سورة سبأ ، آية ٢٨ .

٨ . متفق عليه ، عن ابن عمر ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الإيمان ، رقم ١٥ ، ص ١٥ .

١٠ . الحرب ضرورة اجتماعية ، فالإسلام دين يواجه الواقع ، ولا يفر منه . وما دامت في الدنيا نفوس لها نوازع وأهواء ومطامع ، وما دام هنالك هذا الناموس الذي يطبق على الأفراد والجماعات على السواء ، ناموس تنازع البقاء ، حينها

تكون الحرب لردع المعتدي وكف الظالم ونصرة الحق فضيلة من الفضائل ، وحين تكون تحيزاً وفساداً في الأرض واعتداءً على الضعفاء تكون رذيلة اجتماعية .

ضوابط الحرب في القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة :

لابد من مراعاة أخلاقيات الحرب ، ووضع الضوابط التي تجعلها حرباً ذات أبعاد ومضامين حضارية ، تحقق الأهداف السابقة ، وهذه الضوابط نجملها في الآتي :

(١ . أن لا يعلن المسلمون الحرب على من يحمل ديناً آخر لمجرد كونه يختلف عنهم دينياً وعقائدياً ، بل جعل إعلان الحرب والقتال مقروناً بإضافة صفة أخرى مع الكفر ؛ وهي تلبسهم بإعلان القتال والحرب ، وذلك وفق قوله تعالى : ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ (١) .

٢ . لابد من أن يسبق حالة الحرب إنذار الناس ودعوتهم إلى دين الإسلام ، فالحرب تسقط شرعيتها إذا لم تسبقها دعوة : ﴿**وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ**﴾ (٢) ، ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾ (٣) ، وعند عدم استجابتهم للدخول في الإسلام فإنهم يخيرون بين إعطاء الجزية ليعيشوا مواطنين في الدولة الإسلامية ، لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، وبين حالة القتال والجهاد ، هذا كله في حالة قيام دولة الإسلام ، أما في حالات ما قبل الدولة أو التهيئة لها فليس هناك إلا الصبر والعمل .

٣ . أن لا تستهدف الحرب إهلاك الحرث والنسل والأطفال وكبار السن والمزروعات ، وكل ما يعد من المصالح العامة للمجتمع ، وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿**فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً**﴾ (٤) ، قال القرطبي : في هذه الآية دليل على إثبات الموادعة بين أهل الحرب وأهل الإسلام إذا كان في الموادعة مصلحة للمسلمين (٥) ، وكذلك طبقاً لوصية الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام : (اغزوا باسم الله ، وفي سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً) (٦) والحديث واضح من حيث الدلالات والمفاهيم .

وخلاصة القول إن المستثنين من القتل في الحرب التي يخوضها المسلمون هم الفئات الآتية :

١ . الأطفال ٢ . النساء ٣ . الشيوخ ٤ . الرهبان .

٥ . العسفاء والأجراء ٦ . الفلاحون ٧ . من أسلم حال القتال .

وفي هذه المسائل السبع كلها خلاف واسع ليس هذا محله .) (٧) .

---

١ . سورة الممتحنة ، الآيتان ٨ ، ٩ . ٢ . سورة النور ، آية ٥٤ .

٣ . سورة الإسراء ، آية ١٥ . ٤ . سورة النساء ، آية ٩٠ .

٥ . الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، ٣ / ٢٧١ . ٦ . أخرجه ابن ماجه في سننه عن ابن بريرة عن أبيه،باب الجهاد ،رقم ٢٨٥٨ ، ٩٥٣/٢ .

٧ . انظر الفقه السياسي الإسلامي ، د / خالد فهداوي ، ص ٢٠٣ .

بعض مميزات النظام السياسي الإسلامي عن النظم البشرية الأخرى (١) .

١ . فكرة الحرية الفردية في الإسلام مرتبطة بفكرة المسئولية أمام الله ، وتنظمها ضوابط وقواعد ليست من صنع البشر ، قال تعالى : ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) ، وفي الحديث : (... الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك) (٣) .

٢ . فكرة المساواة والعدالة مرتبطة بالإيمان ، ومختلجة بالوجدان مع شمولها لجميع الإنسانية ، ولا عبرة بالفوارق التي جعلها الله آية من آياته ، وامتحاناً لعباده ، قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ (٤) ، وقال سبحانه : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (٥) ، وقال – ﷻ – : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ (٦)
أما فكرة العدالة والمساواة في الأنظمة البشرية بجميع أنواعها فهي حبر على ورق من حيث الواقع والتطبيق .

٣ . فكرة الشورى مرتبطة بقيم أخلاقية مثل الأمانة والصدق وتحري الأفضل لمصلحة الأمة دون اعتبار آخر ، وهذا الجانب مفقود في الأنظمة البشرية وخاصة الدكتاتورية منها .

٤ . الولاء في نظام الإسلام لله وحده رغبة ورهبة ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ ﴾ (٧) ، أما في الأنظمة البشرية فالولاء للدكتاتور أو الطاغية أو الحزب الحاكم المتسلط ، فهو ولاء إكراه وتسلط ، وغالباً ما يكون ولاء نفاق وتملق ؛ لأنه إما أن يكون نتيجة للضغط والإرهاب والقهر البوليسي ، أو رغبة لما بيد ذلك الطاغية أو الحزب من نعم المال والجاه والمنصب ، وفي المقابل نجد أن المجتمع الإسلامي يقوم على المحبة والمودة والإخاء في الله ، والتعاون على البر والتقوى لوجه الله ومرضاته ، وتنفيذاً لأمره .

٥ . الغاية الحميدة لا تبرر في نظر الحكم الإسلامي الوسيلة الدنيئة ، فلابد من الهدف النبيل الذي يؤدى بأداة أو وسيلة نظيفة ، فلا مكان للميكيافلية في مجتمع يسوده عمق الإيمان ، وروح الإسلام .

---

١ . انظر نظام الإسلام الاقتصادي والسياسي ، يوسف حامد العالم ، ص ١٤٤ وما بعدها .
٢ . سورة التوبة ، آية ١٠٥ .
٣ . أخرجه البخاري عن أبي هريرة ، فتح البارئ ، كتاب الإيمان ، رقم ٥٠ ، ١ / ١٤٣ .
٤ . سورة الأنعام ، آية ١٦٥ .
٥ . سورة الحجرات ، آية ١٣ .
٦ . سورة الروم ، آية ٢٢ .
٧ . سورة الصف ، آية ١٤ .

قصة موسى عليه السلام هي أكثر القصص وروداً في القرآن ، فهي وردت في أكثر من ٣٠ موضعاً ، ولكن ورودها مفصلاً اقتصر على عشرة مواضع في عشر سور منها ستة مواضع هي أكثرها تفصيلاً ، وكان أول تفصيل في سورة الأعراف [١] .

لذلك اشتملت على كل المحاور الحياتية ، وتطرقت إلى معطيات الواقع من مسائل سياسية واجتماعية واقتصادية ، فالشق السياسي تركز حول معالجة الفساد في المحيط الفرعوني ، والشق الاقتصادي يدور حول علاج انحراف فاروق وطغيانه ، أما الجانب الاجتماعي فيرسم نشأة موسى عليه السلام رضيعاً ، إلى اصطفائه لحمل الرسالة ، وما تخلل هذه الفترة من ظواهر اجتماعية وأحداث واقعية .

وسوف نتناول في هذا البند مفردة واحدة من مفردات الواقع ، وهي الواقع السياسي ، وكيف استطاع نبي الله موسى أن يلم بهذه البيئة ويفهم جزئياتها ، ومن ثم ينطلق إلى علاج الاستبداد السياسي الفرعوني والطغيان المادي القائم آنذاك .

والنقاط التالية توضح لنا بعضاً من معالم فقه الواقع السياسي في دعوة نبي الله موسى – عليه السلام – :

١ . ليضع دعاة الإسلام في حسبانهم وهم يشقون طريقهم لتكوين دولة الإسلام الخالدة أن الطريق شاق ، والابتلاء سنة إلهية لمجابهة الظلم المتعالي في الأرض ، فقد واجه سيدنا موسى عليه السلام أعتى الطغاة : ﴿ **إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ** ﴾ [٢] . قال ابن كثير : أي مستكبراً جباراً عنيداً ، كقوله عز وجل : ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ** ﴾ [٣] ،وقوله تعالى :﴿**وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ** ﴾ [٤] ، وقوله جلت عظمته : ﴿**فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ** ﴾ [٥] ، (من المسرفين) أي : مسرفاً في أمره ، سخيف الرأي على نفسه [٦] .

٢ . سلاح المعاندين دائماً هو محاولة تقسيم المجتمع المسلم ، وهو السلاح القديم الجديد على يد النظام العالمي الدولي الجديد ذو القطب الواحد : ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ** ﴾ [٧] .

٣ . أراد موسى – عليه السلام – البداية بالرأس الفرعوني من حيث التأثير دون المرور بالجمهور : ﴿**ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ [٨] ، وذلك باعتبار أن إسلام صاحب القرار يؤدي إلى إسلام الأتباع [٩] .

بينما نجد الرسول – صلى الله عليه وسلم – قد بدأ بالرأس والقاعدة معاً ، فقد كان يدعو الناس جميعاً الدعوة العامة ، ويربي أصحابه في مدرسة الأرقم بالدعوة الخاصة ، وهكذا امتازت دعوته بالتنوع والتكامل .

---

١ . انظر في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٣ / ١٣٢٩ .
٢ . سورة الدخان ، آية ٣١ .
٣ . سورة القصص ، آية ٤٦ .
٤ . سورة الفجر ، الآيتان ١٠ ، ١١ .
٥ . سورة المؤمنون ، آية ٤٦ .
٦ . انظر تفسير ابن كثير ، ٥ / ٥٤٦ .
٧ . سورة القصص ، الآيتان ٤ ، ٥ .
٨ . سورة الأعراف ، آية ١٠٣ .
٩ . انظر الفقه السياسي الإسلامي ، د / خالد الفهداوي ، ص ١٦٠ .

٤ . من مستلزمات الخطاب السياسي الوضوح المتناهي ، ويتجلى ذلك في مخاطبة نبي الله موسى فرعون بأنه رسول من رب العالمين ، فلا مرونة في الثوابت ولا يجوز تجاوزها على الإطلاق ، وإنما المرونة والاجتهاد في المتغيرات والفروع : ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١) .

٥ . موسى يعاهد ربه ألا يكون ظهيراً للمجرمين .

قال ﷻ : ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ (٢) . أي من المعرفة والحكم والتوحيد ، (فلن أكون ظهيراً للمجرمين) أي عوناً للكافرين ، وقال صاحب الكشاف : في ذلك استعطاف كأنه قال : ربي اعصمني بحق ما أنعمت علي من المغفرة فلن أكون إن عصمتني ظهيراً للمجرمين ، سواء بصحبة فرعون وانتظامه في جملته أو بمظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم (٣) .

وحكي القرطبي عن عطاء أنه قال : فلا يحل لأحد أن يعين ظالماً ولا يكتب له ولا يصحبه ، وأنه إن فعل ذلك صار معيناً للظالمين (٤) .

فالذي تحث عليه الآية هو حرمة مناصرة الظالمين ومعاونتهم ، قال تعالى : ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾ (٥) ، وفي ذلك إرساء لقاعدة مهمة من قواعد فقه الواقع السياسي ، وهي العدل الذي هو مغاير للظلم .

٦ . لابد أن يسعى الرسول إلى تكوين الأمة ، أو القوم الذين يتحملون أعباء الدعوة ، ومن دون ذلك تبقى الدعوة في حيز الفردية والاستضعاف : ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ (٦) .

وهذا الجهد الجماعي الضخم يحتاج إلى حسن سياسة وقوة تخطيط ، ولا يتم إلا بمعرفة مفاصل الأمة وقضاياها للرجوع بها إلى حظيرة الإسلام ، وحقل الدعوة إلى الله .

٧ . القول اللين من الحنكة السياسية التي تتبع في التأثير على الجبابرة والمعاندين ، لعلهم يرجعون إلى خطاب العقل والمنطق ، أو يتم مجانبة الاصطدام بهم ولو بعد حين ، قال ﷻ مخاطباً موسى وأخاه هارون : ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (٧) .

٨ . الخوف الفطري من ذي السلطة لا يعيب الداعي ، ولا ينقص من قدره ، ولا يقدح في توكله على الله ، وإنما يحمله على الحذر ، والتعامل بحس أمني رفيع مع الواقع المتوتر ، وهذا يستفاد من قوله تعالى : ﴿قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (٨) ، ومن قول موسى لربه : ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (٩) .

---

١ . انظر الفقه السياسي الإسلامي ، خالد فهداوي ، ص ١٥٣ ، والآية رقم ١٠٤ من سورة الأعراف .

٢ . سورة القصص ، آية ١٧ .

٣ . انظر الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، ٧ / ٢٣٤ .

٤ . انظر المصدر السابق ، ٧ / ٢٣٥ .

٥ . سورة هود ، آية ١١٣ .

٦ . انظر الفقه السياسي الإسلامي ، خالد فهداوي ، ص ١٥٤ ، والآية ١٠٥ من سورة الأعراف .

٧ . سورة طه ، الآيتان ٤٣ ، ٤٤ .

٨ . سورة طه ، الآيتان ٤٥ ، ٤٦ .

٩ . سورة القصص ، آية ٣٣ .

٩ . خروج موسى من مصر فراراً من فرعون .

قال ﷻ : ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١) .

قال القاسمي في تفسير الآيات : أي يسرع لفرط حبه لموسى ، (قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك) أي يتشاورن بسبيلك ، (ليقتلوك فاخرج) ، أي من حد مملكتهم ، (إني لك من الناصحين) أي للحوق الطالبين (٢) .

وهذا الموقف شبيه بحادث هجرة الرسول – ﷺ – إلى المدينة ، سعياً لنجاة الفئة المؤمنة ، وتأميناً لجبهة الدعوة .
ويمكن الاستفادة منه في تأصيل فكرة اللجوء السياسي ؛ لكي ينجو الدعاة في ساحة العمل السياسي الإسلامي من سياسات الإبادة أو الاحتواء ، التي تتعقبهم من الخصوم والأعداء .

١٠ . الأعمال كلها تحتاج إلى صفتين مهمتين هما القوة والأمانة أو الكفاءة والمصداقية : ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (٣) ، وهما شرطان أساسيان في التقدم للعمل السياسي والقيادي .

١١ . التقدم لمساعدة المحتاج ولو لم يطلبها ، وفي ذلك يقول الله تعالى في قصة موسى مع ابنتي شعيب : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٤) .

تذودان أي تمنعان مواشيهما عن الماء لوجود من هو أقوى مهما عنده ، فلا تتمكنان من السقي ، (قال ما خطبكما) أي ما شأنكما في الذود ، (قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء) أي عادتنا أن لا نسقي حتى يصرف الرعاة مواشيهم عن الماء ، عجزاً عن مساجلتهم ، وحذراً من مخالطة الرجال (٥) .

وهو ضرب من المبادرة في صنع المعروف ، والتعاون على البر والتقوى ، كما أنه طراز متقدم من العمل الاجتماعي والتفاني في خدمة المجتمع ، ويجب على كل مسئول أو زعيم سياسي أن يمارسه ؛ لأنه من الواجبات التي فوضه المجتمع للقيام بها ، ولما له من دور فعال في تمتين الروابط ، وتقوية اللحمة الداخلية بين الراعي والرعية .

١٢. اعتمد موسى عليه السلام النظام الثنائي في تحمل المسؤولية ، وذلك بالمسئول ووزيره من خلال الدور الكبير الذي تميز به هارون عليه السلام ، وهو أخوه البليغ ، وصاحبه في أبلغ المشاهد وأكبرها أهمية ، ومنها المواجهة الإعلامية والسياسية مع فرعون وملئه : ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ (٦) .

وللأخ والصاحب والوزير أهمية كبرى في حياة الرسل والدعاة ، تبادلاً للأدوار ، وحرصاً على إنجاح الدعوة ولو بإشراك طرف آخر ، وإنجازاً لمهمة لا يستطيعها إلا الرديف : ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾ (٧) .

---

١ . سورة القصص ، الآيتان ٢٠ ، ٢١ .
٢ . محاسن التأويل ، القاسمي ، ٧ / ٥١٨ .
٣ . سورة القصص ، آية ٢٦ .
٤ . سورة القصص ، الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .
٥ . تفسير القاسمي ، ٧ / ٥١٨ .
٦ . انظر الفقه السياسي الإسلامي ، د / خالد فهداوي ، ص ١٦١ .
٧ . سورة طه ، الآيات ٢٩ . ٣٤ .

١٣ . للبطانة والملأ دور خطير ومهم في الخير والشر ،إقداماً ، أو دفعاً وإحجاماً ، إلا أن دور بطانة فرعون وملئه كان سلبياً جداً ، وهكذا يتحرك أهل المصالح والمنافع : ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ (١) .

وفي هذا تنبيه لكل مسئول أو قائم بالأعمال ، بأن يتخذ من الدائرة الضيقة المحيطة به بطانة صالحة ، تشير عليه بالخير ، وتعينه على تأدية مهمته المنوط بها تجاه الأمة والملة .

١٤ . فرعون يدعي لنفسه الربوبية ، في قوله تعالى : ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ (٢) ، والإلوهية في قوله تعالى : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٣) .

وهو منطق لا ينفك عن كثير من الطغاة والمستبدين في الأرض قديماً وحديثاً ، وإن لم يقولوها بأفواههم ، فأعمالهم وتصرفاتهم تترجم لهذا العلو ، وتكرس لهذا الجبروت .

١٥. إسقاط الاتهامات من الأسلحة الإعلامية الفتاكة التي تنتهجها الحكومات الجائرة في محاولة زعزعة الوجود الإسلامي وأهله ، والواجب على دعاة الحق تفنيدها ودحضها وتبرئة التيار الإسلامي منها . وهو ذات السلاح الذي استعمله فرعون في محاولة بائسة ويائسة في النيل من موسى ورسالته .

وذلك تارة في الإتهام بالسحر : ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (٤) ، ورد موسى على هذه الفرية بقوله : ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ (٥) .

يقول الرازي في تفسير الآية السابقة : (أسحر هذا) هذا استفهام على سبيل الإنكار ، ثم احتج على أنه ليس بسحر ، وهو قوله (ولا يفلح الساحرون) يعني أن حاصل صنعهم تخييل وتمويه ولا يفلح الساحرون . أما قلب العصا حية وفلق البحر فمعلوم بالضرورة أنه ليس من باب التخييل والتمويه ، فثبت أنه ليس بسحر .

وتارة أخرى في الإتهام بالرغبة في الملك : ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦) .

قال المفسرون في هذه الآية : ويكون لكما الملك والعز في أرض مصر ، والخطاب لموسى وهارون . قال الزجاج : سمي الملك كبرياء ؛ لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا ، وأيضاً فالنبي إذا اعترف القوم بصدقه صارت مقاليد أمر أمته إليه ، فصار أكبر القوم (٧) . ورد موسى على هذه الفرية أيضاً بقوله : ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ ﴾ (٨) .

---

١ . انظر الفقه السياسي الإسلامي ، د / خالد فهداوي ، ص ١٥٥ ، والآية رقم ١٢٧ من سورة الأعراف .
٢ . سورة النازعات ، آية ٢٤ .
٣ . سورة القصص ، آية ٣٨ .
٤ . سورة الشعراء ، آية ٣٤ .
٥ . سورة يونس ، آية ٧٧ .
٦ . سورة يونس ، آية ٧٨ .
٧ . انظر مفاتيح الغيب ، الرازي ، ٩ / ١١٤ .
٨ . سورة الأعراف ، الآيتان ١٠٤ ، ١٠٥ .

١٦ . الحذر من التضليل السياسي .

يقول المولى ﷻ : ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ (١) أي : أضلهم عن الرشد ، وما هداهم إلى طريق النجاة ؛ لأنه قدر أن موسى ومن معه لا يفوتونه لكونهم بين يديه يمشون في طريق يابسة ، وبين أيديهم البحر ، وفي قوله : (وما هدى) تأكيد لإضلاله ؛ لأن المضل قد يرشد من يضله في بعض الأمور (٢) .

وقال القرطبي في قوله تعالى : ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ (٣) أي وجدهم خفاف العقول فدعاهم إلى الغواية فأطاعوه ، وقيل : استخف قومه وقهرهم حتى اتبعوه (٤) .

ومن ألوان التضليل ما حكاه القرآن عن قول فرعون : ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (٥) .

يقول سيد- رحمه الله- في ظلاله : هنا يأخذ ما يأخذ كل طاغية توجه إليه النصيحة تأخذه العزة بالإثم ، ويرى في النصح الخالص افتياتاً على سلطانه ، ونقصاً من نفوذه ومشاركة له في النفوذ والسلطان : (قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) .. إنني لا أقول لكم إلا ما أراه صواباً ، واعتقده نافعاً . وإنه لهو الصواب والرشد بلا شك ولا جدال ! وهل يرى الطغاة إلا الرشاد والخير والصواب ؟! وهل يسمحون بأن يظن أحد أنهم قد يخطئون ؟! وهل يجوز لأحد أن يرى جوار رأيهم رأياً ؟! وإلا فلم كانوا طغاة ؟! (٦) .

١٧ . الحاجة إلى الجو الهادئ ومسالمة الأعداء .

قال تعالى : ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ (٧) .

أي : أعوذ بالله الذي خلقني وخلقكم أن تصلوا إلي بسوء من قول أو فعل ، (وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون) أي : فلا تتعرضوا إلي ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة إلى أن يقضي الله بيننا ، فلما طال مقامه بين أظهرهم ، وأقام حجج الله تعالى عليهم ، كل ذلك ما زادهم إلا كفراً وعناداً ، دعا ربه عليهم : ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٨) ، وهكذا قال هاهنا : ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾ (٩) .

١٨ . استهدف الخطاب السياسي لموسى عليه السلام هداية السحرة وتأييدهم للإيمان والرسالة ، بوصفهم شهوداً على انهيار المنهج الكافر ، وكانت النتيجة التي حكاها القرآن هي : ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (١٠) .

١٩ . سياسة الطغاة مع الدعاة لا تتبدل ولا تتغير :

فالسياسة التي اتبعها فرعون ، وسائر الطغاة في الماضي يتبعها الطغاة معهم في الحاضر ، فهي سياسة لا تتبدل ولا تتغير وتقوم على البطش والتنكيل بالحبس والقتل ، والوصم بالفساد والتخريب ، قال تعالى على لسان

---

١ . سورة طه ، آية ٧٩ .
٢ . فتح القدير ، الشوكاني ، ٣ / ٥١٩ .
٣ . سورة الزخرف ، آية ٥٤ .
٤ . الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، ٨ / ٤٠٩ .
٥ . سورة غافر ، آية ٢٩ .
٦ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٥ / ٣٠٨٠ .
٧ . سورة الدخان ، الآيتان ٢٠ ، ٢١ .
٨ . سورة يونس ، آية ٨٨ .
٩ . تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ٥ / ٥٤٣ ، والآية ٢٢ من سورة الدخان .
١٠ . انظر الفقه السياسي الإسلامي ، خالد الفهداوي ، ص ١٦٠ ، والآيات ١١٨ . ١٢٢ من سورة الأعراف .

فرعون : ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ (١) ، ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ (٢) ، فالطغاة لا يقابلون الدعاة إلى الله بالحجة والبرهان ، وإنما يقابلونهم بالحديد والنار ، مستغلين سلطانهم وتبعية الناس لهم ، ومعاونتهم في ظلمهم وطغيانهم (٣) .

٢٠ . استغلال الصلة بالسلطان لمصلحة الدعوة والدعاة :

وهي خطوة قد يكون لها الأثر الفعّال في فتح القلوب ، وترويض النفوس ، بغية أن ينفذ إليها شعاع الإيمان ، ونور البصيرة ، وهذا هو الذي سلكه مؤمن آل فرعون في خطابه السياسي لفرعون وقومه ، قال تعالى : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ (٤) إلى قوله تعالى : ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ (٥) .

قال ابن كثير : المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون ، وقال السدي : كان ابن عم فرعون ، واختاره ابن جرير ورد قول من ذهب إلى أنه إسرائيلياً ؛ لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه ، وكف عن قتل موسى عليه السلام ... وعن ابن عباس : لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون ، والذي قال : (يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك) ، وهذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه القبط فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون : (ذروني أقتل موسى) فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل (٦) .

وعلى الرغم من هذه الجولة الضخمة التي أخذ الرجل المؤمن قلوبهم بها ، فقد ظل فرعون في ضلاله ، مصراً على التنكر للحق ، ولكنه تظاهر بأنه آخذ في التحقق من دعوى موسى ، ويبدو أن منطق الرجل المؤمن وحجته كانت من الوقع بحيث لم يستطع فرعون ومن معه تجاهلها ، فاتخذ لنفسه مهرباً جديداً كما يبدو في الآيات المفصلة في سورة غافر ، ثم قال الله تعالى في نهاية المطاف : ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ (٧) .

٢١ . القائد والقدوة هو الذي يثبت الجمع دائماً ، وهو أساس التجمع والثبات : ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٨) .

٢٢ . يكون الفرج بعد الشدة والابتلاء ، والعاقبة للمتقين :

والفرج يشمل الأفراد والجماعات ، قال تعالى : ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ (٩) .
وبعد انجلاء الكربة تكون العاقبة للمتقين بالوراثة في الأرض ، والاستخلاف فيها ، وشروط تحقق هذه العاقبة هي

---

١ . سورة الشعراء ، آية ٢٩ .
٢ . سورة غافر ، آية ٢٦ .
٣ . انظر المستفاد من قصص القرآن ، د / عبد الكريم زيدان ، ١ / ٣٨٠ .
٤ . سورة غافر ، آية ٢٨ .
٥ . سورة غافر ، آية ٤٥ .
٦ . تفسير ابن كثير ، ٥ / ٤٤٦ .
٧ . انظر في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٥ / ٣٠٨١ ، والآية رقم ٤٥ من سورة غافر .
٨ . الفقه السياسي الإسلامي ، د / خالد فهداوي ، ص ١٥٧ ، والآيتان رقم ٦١ ، ٦٢ من سورة الشعراء .
٩ . سورة الشعراء ، الآيتان ٦٥ ، ٦٦ .

الاستعانة بالله والتوكل عليه ، والصبر على المحن والإحن ، كما قال جل شأنه على لسان نبيه موسى : ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

يقول صاحب المنار – رحمه الله – في تفسير هذه الآية : ومن جملة ما أمر الله به الصبر والاستعانة به ، ويدخل في مفهوم التقوى مراعاة السنن في أسباب إرث الأرض كالاتحاد وجمع الكلمة ، والاعتصام بالحق ، وإقامة العدل ، والصبر على المكاره والاستعانة بالله لاسيما عند الشدائد ، ونحو ذلك مما هدي إليه وحيه وأيدته التجارب ، ومراده عليه السلام أن العاقبة ستكون لكم بإرث الأرض ، ولكن بشرط أن تكونوا من المتقين له تعالى بإقامة شرعه ، والسير على سننه في نظام خلقه ، وليس الأمر كما تتوهمون ويتوهم فرعون وقومه من بقاء القوي على قوته ، والضعيف على ضعفه ، أو أن الآلهة الباطلة ضمنت لفرعون بقاء ملكه على عظمته وجبروته وظلمه (٢) .

إن الدرس المستفاد هنا ، هو أن دولة الباطل لا تدوم ، وأن الله يمهل ولا يهمل ، وأنه آخذ المتعالين أخذ عزيز مقتدر ، وإدراك هذا البعد في إطار الواقع السياسي ، يمد الطلائع التي تنشد مجد الإسلام بالأمل ، ويزودها بالطاقات والاستعدادات الروحية والإيمانية ، في سيرها الحثيث في البناء والتأسيس لمستقبل الأمة المسلمة ؛ وذلك لأن الله معها وناصر دعوتها ، وقاصم عدوها .

٢٣ . العبرة بما حل بفرعون وجنوده :

قال تعالى : ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ (٣) .

ننجيك ببدنك احتمل معنيين : أحدهما نلقيك على نجوة من الأرض أي مكان مرتفع من البحر ، والثاني : نظهر جسدك الذي لا روح فيه (٤) .

(ولتكون لمن خلفك آية) أي : لمن بعدك من الناس عبرة يعتبرون بك فينزجرون عن معصية الله والكفر به (٥) .

وسواء أكان إخراج فرعون ببدنه لمعاصريه من قومه ، أو هو لا يزال باقياً ببدنه حتى عصرنا هذا ، فهذا ليس محور القضية التي أرادها القرآن ، وإنما الهدف يكمن في استخلاص العبرة والموعظة بطاعة الله ، والكف عن عصيانه والتعالي على خلقه والاستبداد بهم .

---

١ . سورة الأعراف ، آية ١٢٨ .

٢ . انظر تفسير المنار ، محمد رشيد رضا ، ٩ / ٦٩ .

٣ . سورة يونس ، آية ٩٢ .

٤ . انظر الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، ٤ / ٦٧٦ .

٥ . تفسير المنار ، محمد رشيد رضا ، ١١ / ٣٩٩ .

المبحث الرابع
فقه الواقع الاجتماعي

تعريف فقه الواقع الاجتماعي .

هو الوعي الفاعل بحال الأفراد ، والجماعات المولدة للاجتماع الإنساني . وتشخيص وتحليل وتفسير الظواهر المجتمعية في سياقاتها الفكرية والعملية ، وذلك وفق المنهج الاجتماعي الإسلامي الذي صاغه القرآن ووضحته السنة النبوية المطهرة ضمن الزمن المعاش .

وموضوعه : هو تناول المعطيات والقضايا الأساسية التي تعد مدخلاً لقراءة الواقع الاجتماعي الذي يفضي إلى فقه الواقع الاجتماعي من خلال العرض والتحليل والتفسير لهذا الواقع .

مثل : مفاهيم العدالة الاجتماعية ، التضامن الاجتماعي ، الإخاء والمساواة ، التربية الاجتماعية ، القضاء على الظلم الاجتماعي . على أن يكون تناول هذه الدراسة في إطار موضوع التغير والتغيير كما أشار القرآن إلى تبدل المجتمع الإنساني من حال إلى حال ، واقتران هذا بالدعوة إلى التفكير والاعتبار والتأمل ، وذلك باستقراء التاريخ ومعايشة الواقع .

آلياته وأدواته :

إن هذا الفهم العميق للواقع بعمومه ، وللواقع الاجتماعي بشكل خاص لا يتم إلا باستخدام أدوات للرصد والتحليل تتجاوز الملاحظة الظاهرة ، وهي الأدوات المتمثلة أساساً في العلوم الإنسانية فيما توصلت إليه من نتائج تقرب من اليقين ، في مجال النفس البشرية ، وفي المجال الاجتماعي والاقتصادي . فهذه العلوم بطرق بحثها وقوانينها أدوات ضرورية للكشف عن التركيبة النفسية الفردية والاجتماعية ، يكون من الضروري أخذها بعين الاعتبار حينما يراد تنزيل الدين في واقع الحياة [١] .

والعلوم الاجتماعية هي ميدان هام جداً في عملية الانبعاث الحضاري ، فعلوم التاريخ والاجتماع والتربية والنفس والأخلاق والفلسفة ... الخ ، هي من لوازم عملية الدعوة والبلاغ المبين وإعادة صياغة الإنسان وتشكيله ، وإلا فكيف ندعو إلى الله ونرقى بالناس ونحن نعيش في عالم نجهل إنسانه ولا نمتلك الوسائل المدروسة لخطابه ، والمعرفة الدقيقة لتاريخه ومعتقداته ، ولا ندرك خصائصه وكينونته البشرية ؟! وإذا كان محل التكنولوجيا التي ندعو إلى استنباتها ، والإبداع فيها ، هو وسائل الإنسان فإن محل العلوم الاجتماعية هو الإنسان نفسه ، الذي لابد من إعادة بنائه وتشكليه أولاً ، حيث لا فائدة لوجود العربة بدون الحصان ، وإذا وجد الإنسان السوي ،وجدت الحضارة ،فالإنسان لا يستورد . وما الفائدة إذا استوردنا أشياء الإنسان ووسائله ، وخسرنا الإنسان نفسه ، لذلك نرى أنه لابد من إعادة النسخ الإسلامي للعلوم الاجتماعية ، ووصل ما انقطع وتوقف ، واستشعار أهمية ذلك ودوره بالقدر نفسه الذي نبحث فيه قضية العلوم التقنية أو يزيد [٢] .

---

١ . انظر في فقه التدين فهماً وتنزيلاً ، عبد المجيد النجار ، ١ / ١٢٦ .

٢ . انظر تأملات في الواقع الإسلامي ، عمر عبيد حسنة ، ص ٤٣ .

ولتسهيل الدراسة نقسم فقه الواقع الاجتماعي إلى أربعة مستويات : مستوى الفرد ، ومستوى الأسرة ، ومستوى المجتمع الإسلامي برمته – الأمة الإسلامية – ، والمستوى العالمي .

فقه واقع الفرد :

بمعرفة نفسياته واستعداداته ، وتقدير مؤهلاته وطاقاته ، ودراسة تحركاته وتصرفاته ، ورصد استجاباته وتأثيراته في الواقع المعاش من حوله بكل درجاته المحلية والإقليمية والعالمية ، ومدى انعكاس ذلك كله على منظومة الفرد الأخلاقية والمعرفية والسلوكية .

لتوضيح هذه الملامح ، نذكر ما يؤيدها من معين الكتاب والسنة ، على سبيل المثال لا الحصر :

١ . ضرورة إعمال فقه النفس والفرد لمعرفة الآفاق في النفس والخلْق ، والطريق إليها هو التفكر والتفكير ، قال تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (١) .

فالإنسان آية من آيات الله ، يجب تعقلها وسبر أغوارها : ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ (٢) .

يقول الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – في تفسير الآية : (وهذا المخلوق الإنساني هو العجيبة الكبرى في هذه الأرض ، ولكنه يغفل عن قيمته ، وعن أسراره الكامنة في كيانه ، حين يغفل قلبه عن الإيمان وحين يحرم نعمة اليقين .

إنه عجيبة في تكوينه الجسماني : في أسرار هذا الجسد . عجيبة في تكوينه الروحي : في أسرار هذه النفس . وهو عجيبة في ظاهره وعجيبة في باطنه . وهو يمثل عناصر هذا الكون وأسراره وخفاياه : وتزعم أنك جرم صغير * وفيك انطوى العالم الأكبر .

وكل فرد من هذا الجنس عالم وحده . ومرآة ينعكس من خلالها هذا الوجود كله خاصة لا تتكرر أبداً على مدار الدهور . ولا نظير له بين أبناء جنسه جميعاً في شكله وملامحه ، ولا في عقله ومداركه ، ولا في روحه ومشاعره . ولا في صورة الكون كما هي في حسه وتصوره .

وكثير من عجائب الجنس البشري مكشوفة للبصر ، تراه العيون : وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ : وما تراه العيون من عجائبه يشير إلى الغيب المكنون .

وهذه العجائب لا يحصرها كتاب . فالمعلوم المكشوف منها يحتاج تفصيله على مجلدات . والمجهول منها ما يزال أكثر من المعلوم ، والقرآن لا يحصيها ولا يحصرها . ولكنه يلمس القلب هذه اللمسة ليستيقظ لهذا المتحف الإلهي المعروض للأبصار والبصائر . وليقضي رحلته على هذا الكوكب في ملاحظة وتدبر ، وفي متاع رفيع بتأمل هذا الخلق العجيب ، الكامن في ذات نفسه وهو عنه غافل مشغول .

وإنها للحظات ممتعة حقاً التي يقضيها الإنسان يتأمل وجوه الخلق وسماتهم وحركاتهم وعاداتهم ، بعين العابد السائح الذي يجول في متحف من إبداع أحسن الخالقين . فكيف بمن يقضي العمر كله في هذا المتاع الرفيع ؟) (٣) .

---

١ . سورة فصلت ، آية ٥٣ .

٢ . سورة الذاريات ، آية ٢١ .

٣ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٦ / ٣٣٧٩ .

هذا في واقع الشهادة ، أما في واقع الغيب فيقول الله ﷻ : ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (١) .

نقل الطبري عن ابن عباس في قوله : بل الإنسان على نفسه بصيرة ، أي إن الإنسان شاهد على نفسه وحده ، والبصيرة هي جوارح ابن آدم من سمعه وبصره ورجلاه (٢) .

فعليه ، يجب على الإنسان أن يفهم واقعه الفردي حال حياته ، وأن يسعى لتقويمه وتعديله ابتغاء مرضاة الله ، قبل أن يداهمه واقع ساحة العرض وتشهد عليه جوارحه بما اقترفته هي ، وتجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً .

كما أن القرآن أيضاً كثيراً ما يكثف من الجمل والعبارات التي نتيجتها تصب في الاهتمام بواقع الفرد ، وتطوير أدائه ، مثل قوله : كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون ، وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تتفكرون ، أولم يتفكروا في أنفسهم ، لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً .

٢ . تغيير ما بالنفس يتعذر دون الوعي بواقع الحال والمجال والعصر ، أي دون الإلمام بفقه الواقع ، لذلك فإن فقه التغيير هو محصلة طبيعية لفقه واقع الفرد ، يقول الله ﷻ : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣) ، ويقول تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (٤) .

٣ . العلم بطبائع الأفراد وأحوالهم :

كحديث القرآن للرسول ﷺ عن المنافقين بالكشف عن طبائعهم وسلوكياتهم ، وإظهار نواياهم السيئة وتخذيلهم للأمة في الأزمات والمواقف التاريخية ، فيه إشارة إلى فهم أسرار النفس البشرية ، ومعرفة تفصيلية بواقع الفرد ، قال تعالى : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٥) .

ومن ذلك قوله – ﷺ– : (أرحم أمتي أبو بكر ، وأشدها في دين الله عمر ، وأصدقها حياء عثمان (٦) ، وأعلمها بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأقرؤها لكتاب الله أبي (٧) ، وأعلمها بالفرائض زيد بن ثابت(٨) ،ولكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح (٩)) (١٠) .

---

١ . سورة القيامة ، آية ١٤ . ٢ . انظر جامع البيان ، الطبري ، ٢٩ / ١٨٥ . ٣ . سورة الأنفال ، آية ٥٣ .

٤ . سورة الرعد ، آية ١١ . ٥ . سورة محمد ، آية ٣٠ . ٦ . هو عثمان بن عفان بن أمية القرشي ، ذو النورين ، وثالث الخلفاء الراشدين ، ولد بمكة وأسلم بعد البعثة بقليل ، ومن أعظم أعماله في الإسلام تجهيزه نصف جيش العسرة بماله ، وفي عهده تم فتح أرمينية والقوقاز وخرسان وكرمان وسجستان وإفريقية وقبرص ، وأتم جمع القرآن ، وله في كتب الحديث ١٤٦ حديثاً ، ومات غيلة في المدينة سنة ٣٥ هـ بعد أن نقم عليه الناس لتوليته أقاربه من بني أمية بالولايات والأعمال .انظر الطبقات ٣ / ٣٩ ، صفة الصفوة ١ / ١٥٤،أسد الغابة ٣ / ٥٧٨ ، شذرات الذهب ١ / ٤٠ ، الأعلام ٤ / ٢١٠ .

٧ . هو أبي بن كعب الخزرجي ، من بني النجار ، كان حبراً من أحبار اليهود قبل الإسلام ، ومطلعاً على الكتب القديمة ، ولما أسلم كان من كتاب الوحي ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وشهد مع عمر وقعة الجابية ، وكتب كتاب الصلح لأهل بيت المقدس ، وكان من الذين جمعوا القرآن على عهد عثمان . له في الصحيحين ١٦٤ حديثاً ، ومات بالمدينة سنة ٢١ هـ . انظر صفة الصفوة١ / ٢٤٥ ، الوافي بالوفيات٦ / ١٢١ ، الأعلام ١ / ٨٢ .

٨ . هو زيد بن ثابت بن الضحاك الخزرجي ، صحابي ، كان كاتب الوحي ، وولد في المدينة ونشأ بمكة ، وهاجر مع النبي ﷺ ، وكان رأساً في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض ، وكان أحد الذين جمعوا القرآن على عهدي أبي بكر وعمر، وكان عمر يستخلفه على المدينة إذا سافر . له في كتب الحديث ٩٢ حديثاً ، وتوفي بالمدينة سنة ٤٥ هـ . انظر الطبقات٥ / ١٩٩ ،الوافي بالوفيات١٥ / ١٥ ،أسد الغابة٣/٣٤٦، شذرات الذهب ٥٤/١ ،الأعلام ٣ / ٥٧ .

٩ . هو عامر بن عبد الله بن الجراح الفهري ، صحابي ، فاتح الديار الشامية ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، لقبه ﷺ بأمين الأمة ، وشهد معه المشاهد كلها ، وولاه عمر بعد خالد قيادة الجيش فتم له فتح الديار الشامية ، وتوفي بطاعون عمواس ودفن في غور بيسان سنة ١٨ هـ ، وله في كتب الحديث ١٤ حديثاً . انظر الطبقات ٣ / ٣١٢ ، صفة الصفوة١ / ١٩٢، أسد الغابة ٣ / ١٢٥ ، الأعلام ٣ / ٢٥٢ .

١٠ . أخرجه أحمد في مسنده عن أنس ، رقم ١٢٨٣٩ ، ١١ / ٣٥ ، وقال المحقق : إسناده صحيح .

٤ . مخالطة الناس والصبر على أذاهم :

إن انخراط الداعية إلى الله في المجتمع دليل وعيه ولياقته الاجتماعية ، وفهمه لواقع الأفراد الاجتماعي ، قال ﷺ : (المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم) [١] .

نفهم من هذا الحديث أن المؤمن الذي يخالط الناس لابد أن يدرك واقعه ويصبر عليه ؛ لأنه بدون دراسة واقع الناس ونفسياتهم يصعب عليه الاندماج معهم والتأثير فيهم ، أو يصاب بالانهزامية ويتأثر سلباً بالواقع الذي يأمل تغييره في ضوء ضوابط الشرع ، وتعاليم الدين .

٥ . مراعاة أحاسيس الأفراد و شعورهم :

إنه لون من ألوان فن التعامل – الإتيكيت – الراقي مع الناس ، وأعتقد أنه لا يتم إلا بالإحاطة بواقع الأفراد والإحساس بظروفهم وأزماتهم ، أي بالاحتراف الاتصالي ، والكفاءة الاجتماعية العالية .

جاء رجل أسود إلى سعيد بن المسيب [٢] يسأله فقال سعيد : لا تحزن أجل أنك أسود فإنه كان من خير الناس ثلاثة من السودان : بلال [٣] ومهجع [٤] مولى عمر بن الخطاب ، ولقمان الحكيم كان أسود نوبياً ذا مشافر [٥] .

وهذا يدل على مدى إحساس الإمام – سعيد بن المسيب – بالتغيير الذي طرأ في عصره ، فإن قوله للسائل : لا تحزن من أجل أنك أسود . يدل على معرفته بالمعاملة التي يلقاها السائل ، وهي تحزنه لا شك في هذا لذلك أخذ يواسيه بما قاله له [٦] .

وفي معاملة الرقيق ، يقول الرسول ﷺ : (... لا يقل أحدكم عبدي أمتي وليقل فتاي وفتاتي وغلامي) [٧] .

٦ . مخاطبة الناس حسب الأفهام ودرجات الوعي [٧] :

كان النبي ﷺ أدرى بأفهام الناس ودرجات وعيهم ، ومن ثم كان يخاطبهم بحسبها ، وهذا موافق لما أخرجه البخاري موقوفاً عن علي رضي الله عنه : (حدثوا الناس بما يفهمون أتريدون أن يكذب الله ورسوله) [٨] . ويتضح هذا فيما يلي :

---

١ . أخرجه أحمد في مسنده عن ابن عمر ، رقم ٢٢٩٩٢ ، ١٦ / ٥٢٢ ، وقال المحقق : إسناده صحيح .

٢ . هو سعيد بن المسيب بن حزن المخزومي ، سيد التابعين ، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع ، وكان أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب وأقضيته ، حتى سمي راوية عمر ، وتوفي بالمدينة سنة ٩٤ هـ . انظر صفة الصفوة ٢ / ٥٧ ، وفيات الأعيان٢ / ٣١٣ ، الوافي بالوفيات ١٥ / ١٦٣، شذرات الذهب ١ / ١٠٢ ، الأعلام ٣ / ١٠٢ .

٣ . هو بلال بن رباح الحبشي ، مؤذن رسول الله ﷺ ، وخازنه على بيت ماله . من مولدي السراة ، وأحد السابقين للإسلام ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وتوفي بدمشق سنة ٢٠ هـ ، وروى له البخاري ومسلم ٤٤ حديثاً . انظر الطبقات ٣ / ١٧٤، صفة الصفوة ١ / ٢٢٦ ، الوافي بالوفيات١٠ / ١٧٣ ، شذرات الذهب ١ / ٣١ ، الأعلام ٢ / ٧٣ .

٤ . هو مهجع بن صالح ، مولى عمر بن الخطاب، من أهل اليمن ، وأول قتيل من المسلمين يوم بدر ، أتاه سهم وهو بين الصفين فقتله ، وفيه وفي أصحابه نزل قوله تعالى : ﴿**وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ ، قال ابن عباس هم : بلال ، وصهيب ، وعمار ، وخباب ، وعتبة بن غزوان ، ومهجع مولى عمر ، وأوس بن خولي، وعامر بن فهيرة . انظر الطبقات الكبرى ٣ / ٢٩٩ ، وأسد الغابة ٥ / ٢٦٨ .

٥ . تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ٥ / ١٠٣ ، والمِشْفَر : الشفة الغليظة . انظر المعجم الوسيط ، ١ / ٤٨٧ .

٦ . التأصيل الشرعي لفقه الواقع ، الهسنياني،ص ١٥١ نقلاً عن فقه سعيد بن المسيب ، هاشم جميل ،١ / ١٠٢ ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ١٩٧٤ .

٧ . أخرجه البخاري ، عن أبي هريرة ، فتح البارئ، كتاب العتق ، باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله عبدي وأمتي ، رقم ٢٥٥٢ ، ٥/ ٢١٢ .

٨ . فقه الواقع ، أ . د / أحمد بوعود ، ص ١١٥ . ٩ . أخرجه البخاري موقوفا ، فتح البارئ ، كتاب العلم ، ١ / ٢٨٨٤ .

عن ابن عمر ﷺ قال : قال رجل : يا رسول الله حدثني بحديث واجعله موجزاً ، فقال ﷺ : (صل صلاة مودع ، فإن كنت لا تراه فإنه يراك ، وايأس مما في أيدي الناس تعش غنياً ، وإياك وما يُعتذر منه) [١] .

فالرجل يطلب من النبي ﷺ حديثاً ولكن موجزاً ، ويراعي ﷺ قدرة الرجل على الاستيعاب فلا يزده على ثلاث .

وجاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال : علمني كلاماً أقوله ، قال : (قل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، سبحان الله رب العالمين ، لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم) .. فقال : هؤلاء لربي فمالي ؟ قال : (قل : اللهم اغفر لي وارحمني ، واهدني وارزقني ، وعافني) [٢] .

فانظر إلى الأعرابي ، وهو معروف بالطبع الحاد والفهم الساذج والانفعال السريع ، يقول : هذا لربي ، فمالي ؟ والنبي ﷺ لم يعنفه ، بل علمه دعاء وقدر فهمه ، فلا يمكنه أن يعلمه ما لا يطيق أو يسبب له خنقاً وغضباً على الإسلام .

٧ . تقدير قدرات الناس وطاقاتهم :

وهو الإحاطة بواقع الأفراد من حيث تحديد إمكاناتهم ، ومعرفة استطاعاتهم ، ومثاله قصة أبي ذر الغفاري مع الرسول ﷺ ، فقد جاء إلى الرسول ﷺ وقال : يا رسول الله ألا تستعملني ؟ فضرب الرسول ﷺ بيده على منكبه ، وقال قولته التربوية الحكيمة : (يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها) [٣] .

وعن أم هانئ [٤] رضي الله عنها قالت : أتيت إلى رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله دلني على عمل فإني كبرت وضعفت : فقال : (كبري الله مائة مرة ، واحمدي الله مائة مرة ، وسبحي الله مائة مرة ، خير من مائة فرس ملجم مسرج في سبيل الله ، وخير من مائة بدنة ، وخير من مائة رقبة) [٥] .

ففي الحديث تقدير لطاقة هذه المرأة الضعيفة الطاعنة في السن ، ووصف ما يناسب كبرها وضعفها بما هو خير لها من فرس ملجم في سبيل الله ، وخير لها من مائة بدنة ومن مائة رقبة ، أليس في هذا فقهٌ للواقع ؟ .

وقال- ﷺ- : (إنما الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة) [٦] .

والراحلة هي القوية السهلة السريعة السير حسنة المنظر، وسميت راحلة لأنها ترحل أي يجعل عليها الرحل ، وهي نادرة الوجود في الإبل ، كذلك العنصر القيادي في الناس ذو الكفاءة العالية ، والصفات الكاملة يندر وجوده كالراحلة في الإبل ، ويحتاج إلى إبرازه دراية فائقة بالنفوس ، وفقه حالها ، وإبصار مواطن قوتها وضعفها .

---

١ . أخرجه الطبراني في الأوسط ، رقم ٤٤٢٧ ، ٥ / ١٥ . قال الهيثمي : وفيه من لم أعرفهم ، مجمع الزوائد ، رقم ١٧٧٠٢ ، ١٠ / ٣٩٥ .

٢ . أخرجه مسلم عن مصعب بن سعد عن أبيه ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، رقم ٢٦٩٦ ، ٤ / ٢٠٧٢ .

٣ . أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإمارة ، باب كراهة الإمارة من غير ضرورة ، رقم ١٨٢٥ ، ٣ / ١٤٥٧ .

٤ . هي فاختة بنت أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمية ، أخت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وبنت عم النبي ﷺ ، أسلمت عام الفتح بمكة ، وماتت بعد أخيها علي سنة ٤٠ هـ ، وروت عن النبي ﷺ ٤٦ حديثاً . انظر الطبقات ٨ / ٣٨ ، أسد الغابة ٧ / ٣٩٣ ، الأعلام ٥ / ١٢٦ .

٥ . أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ، رقم ٦٢١ ، ١ / ٤٣٢ ، باب في محبة الله عز وجل ، فصل في إدامة ذكر الله .

٦ . متفق عليه ، عن ابن عمر ، اللؤلؤ والمرجان ،محمد فؤاد عبد الباقي ، كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ١٦٥١ ، ص ٥٦٤ .

وعن عبد الله بن عمرو [١] ﷺ قال : كنا عند النبي ﷺ فجاء شاب فقال : يا رسول الله ، أُقبّل وأنا صائم ؟ قال : لا، فجاء شيخ فقال : يا رسول الله ، أُقبّل وأنا صائم ؟ قال : نعم ، فنظر بعضنا إلى بعض ، فقال رسول الله ﷺ : (قد علمت لِمَ نظر بعضكم إلى بعض ،إن الشيخ يملك نفسه) [٢] ، ولا شك إن قدرة الشيخ ليست هي كقدرة الشاب.

٨ . أجوبة متعددة لسؤال واحد [٣] :

إن المتتبع لكلام النبي ﷺ يجد أجوبة متعددة للسؤال الواحد ، نظراً لتعدد السائلين واختلاف أحوالهم .. فقد كان الرسول ﷺ أفقه الدعاة بواقع الناس وأحوالهم .

مثلاً : عندما سئل النبي ﷺ : أي الأعمال أفضل ؟ نجد أجوبة متعددة ، حتى يخيل إلينا أن هناك تناقضاً .

وكذلك عندما سئل : أي الناس أفضل ؟ وحين يقال له : أوصني . أو طلب منه عمل ينتفع به ، وغير ذلك .

أ . أي المسلمين خير ؟

سئل النبي ﷺ مرات عن أي المسلمين خير ؟ وأي المؤمنين أفضل ؟ فاختلفت الأجوبة باختلاف السائلين والمناسبات والأحوال . فقد سأل رجل النبي ﷺ : أي المسلمين خير ؟ قال : (من سلم المسلمون من لسانه ويده) [٤] .

كما سئل النبي ﷺ أيضاً : أي الناس أفضل ؟ فقال : (رجل يجاهد في سبيل الله بماله ونفسه) ، قال : ثم من ؟ قال : (مؤمن في شعب من الشعاب يعبد الله ربه ويدع الناس من شره) [٥] .

فانظر كيف اختلف الجواب من مؤمن يجاهد في سبيل الله بماله ونفسه ، ومؤمن في شعب من الشعاب ، إلى من سلم المسلمون من لسانه ويده .

ب . أي الجهاد أفضل ؟

فقد سئل ﷺ ، أي الجهاد أحب إلى الله ﷻ ؟ فقال : (كلمة حق تقال لإمام جائر) [٦] .

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : يا رسول الله ، نرى الجهاد أفضل العمل ، أو لا نجاهد ؟ قال : (لكن أفضل الجهاد حج مبرور) [٧] .

انظر كيف راعى الرسول ﷺ حال كل سائل ، فكان جوابه مطابقاً لمقتضى الحال .

---

١ . هو عبد الله بن عمرو بن العاص ، صحابي ، أسلم قبل أبيه وكان من الكتاب ويحسن السريانية ، وكان يكتب ما يسمعه من رسول الله ﷺ ، كثير العبادة ، وكان يشهد الحروب والغزوات ، وولاه معاوية الكوفة بعد صفين ، وعمي في آخر حياته وانزوى منقطعاً للعبادة بجهة عسقلان ، وتوفي سنة ٦٥ هـ ،وله ٧٠٠حديث . انظر الطبقات١٩٧/٤،صفة الصفوة ١ / ٣٣٣ ، الوافي بالوفيات ١٧ / ٢٠٦ ،أسد الغابة٣٤٥/٣، شذرات الذهب ١ / ٧٣ ، الأعلام١١١/٤ .

٢ . أخرجه أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو ، رقم ٦٧٣٩ ، ٦ / ٢٨٣ ، وقال المحقق : إسناده صحيح .

٣ . انظر فقه الواقع ، أ . د أحمد بوعود ، ص ١٠٨ .

٤ . أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمرو ، كتاب الإيمان ، باب تفاضل الإسلام ، رقم ٦٤ ، ١ / ٦٥ . والحديث عند البخاري عن أبي بردة عن أبي موسى ، بلفظ أي الإسلام أفضل ، فتح البارئ ، كتاب الإيمان ، باب : أي الإسلام أفضل ، رقم ١١ ، ١ / ٧٠ .

٥ . أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي سعيد ، باب الجهاد ، رقم ٤٢١٤ ، ٤ / ٨ .

٦ . أخرجه أحمد في مسنده ، رقم ١٨٧٣٠ ، ١٤ / ٢٧٩ ، وقال المحقق : إسناده صحيح .

٧ . أخرجه البخاري عن عائشة ، فتح البارئ ، كتاب الجهاد والسير ، رقم ٢٧٨٤ ، ٦ / ٧

ج . أوصني :

تعدد الناس الذين أتوا النبي ﷺ يسألونه الوصايا : أوصني ، فتعددت وصاياه بتعدد أحوالهم وشخصهم .

فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : أردت سفراً فقلت : يا رسول الله أوصني ، فقال : (اعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، واعمل لله كأنك تراه ، واعدد نفسك في الموتى ، واذكر الله عند كل حجر وشجر ، وإذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة ، السر بالسر ، والعلانية بالعلانية) [١] .

وكان معاذ رضي الله عنه قد طلب وصية عندما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن ، فقال له : (أخلص دينك يكفيك القليل من العمل) [٢] .

فربما كان معاذ ، وهو عامل في اليمن ، يقضي حوائج الناس ، لا يجد الوقت الكثير للاستغراق في العبادة وقضاء الوقت كله متنفلاً متبتلاً ، فأمره النبي ﷺ بالإخلاص حيث يكفيه القليل من العمل ... وهذه الوصية تختلف عن سابقتها .

وقال رجل للنبي ﷺ : أريد السفر ، فأوصني ، فقال : (أوصيك بتقوى الله تعالى ، والتكبير على كل شرف) [٣] .

إذن اختلفت الوصية في السفر بتعدد أسفار الشخص الواحد ، واختلفت كذلك باختلاف الشخصين في الموضوع الواحد ، وهو السفر كما رأينا .

إنها أجوبة مختلفة لأناس مختلفين ، لكلٍ ما يناسب حاله وأوضاعه .. إنها دعوة الإسلام ، وإنه نبي الرحمة .. صيدلية واحدة بها أدوية متنوعة لكل الناس في مختلف الأحوال ! .

فقه واقع الأسرة :

يكون عن طريق العناية بالأسرة ومراحلها ، والواقع المحيط بها ، والتحديات التي تواجهها ، ووعي الأهداف التي تحققها ، والأساليب التي تحافظ على تماسكها ومتانتها :

أولاً . فهم الجوانب السيكولوجية لأفراد الأسرة ، وتتبع سلوكياتهم .

لقد بين القرآن الكريم الخطوات التي يتمرحل فيها الإنسان ، حينما ينشأ طفلاً رضيعاً ، ثم شاباً يافعاً ، ثم كهلاً مكتملاً ، ثم شيخاً فانياً ، قال تعالى : ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمّىً وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[٤] ، وكل ذلك ينشأ داخل كيان الأسرة التي هي المحضن التربوي الأول ، والملجأ لاستقرار النفس وراحتها وسكونها : ﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً**﴾[٥] ، ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ**﴾[٦] .

---

١ . أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ، باب في إخلاص العمل لله وترك الرياء ، رقم ٦٨٥٩ ، ٥ / ٣٤٢ .

٢ . أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ، رقم ٥٤٨ ،

٣ . أخرجه أحمد في مسنده عن أبي هريرة ، رقم ٨٢٩٣ ، ٨ / ٢٧٤ .

٤ . سورة غافر ، آية ٦٧ .

٥ . سورة النحل ، آية ٨٠ .

٦ . سورة الأنعام ، آية ٩٨ .

ذِكر هذه الخطوات المتدرجة يحتم علينا فقه كل مرحلة ، واستيعاب مطلوباتها وملابساتها ، ومراقبة الأداء النفسي للأفراد وتتبع تصرفاتهم ، فالطفولة والمراهقة والكهولة والشيخوخة ، ترسم المنحني الطبيعي لجولة الإنسان الواقعية من المهد إلى اللحد ، متنقلاً بين هذه الأطوار وتلك الفترات .

إن الوعي بواقع الطفولة هو حصيلة ممارسة التربية الإسلامية ، والتنشئة الاجتماعية الهادفة التي هي :(الطريقة المثلى لتشكيل الأفراد منذ طفولتهم حتى يتمكنوا من المعيشة في مجتمع له ثقافة معينة ، ويدخل فيها ما يقوم به المسجد من توجيه ونصح ، وما تقوم به المدرسة من تعليم وتربية ، وما يعلمه المجتمع للأفراد والجماعات والأسر من : دين ، وقيم ومعايير ، ومعارف ومعلومات ومهارات) [١] .

لذلك فإن القرآن اهتم برعاية الطفل والحفاظ على حياته : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً ﴾ [٢] ، ووجه الأمهات إلى الرضاعة الطبيعية : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ [٣] ، وأوجب على الأولياء تعهد اليتامى وصون أموالهم ، قال جل شأنه : ﴿وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ [٤] ، وقال ﷻ : ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ [٥] .

أما مرحلة الشباب والمراهقة ، فقد قص علينا القرآن من خلال آياته قصصاً شبابية توجب التركيز على هذه الفترة وفهم تطوراتها وظروفها ، قال تعالى عن أصحاب الكهف : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً ﴾ [٦] ، وقال الرسول ﷺ مخاطباً الشباب : (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء) [٧] ، وفي موضع آخر يقول ﷺ : (اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناءك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك) [٨] .

وآخر هذه المراحل ، مرحلة الشيخوخة وما تتطلبه من العناية والتلطف وليونة الجانب ، وذلك بتفهم ما يؤول إليه الإنسان من ضعف وعجز ، قال تعالى عن ابنتي شعيب في قصتهما مع موسى : ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [٩] ، ويقول الله تعالى في وجوب البر بالوالدين حال الكبر والوهن : ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ [١٠] ، ويقول ﷺ : (ليس منا من لم يوقر كبيرنا ، ويرحم صغيرنا) [١١] .

---

١ . انظر التربية الاجتماعية الإسلامية ، د / علي عبد الحليم محمود ، ص ٣١ .
٢ . سورة الإسراء ، آية ٣١ . ٣ . سورة البقرة ، آية ٢٣٣ .
٤ . سورة البقرة ، آية ٢٢٠ . ٥ . سورة الإسراء ، آية ٣٤ .
٦ . سورة الكهف ، آية ١٣ . ٧ . أخرجه البخاري عن علقمة ، فتح الباري ، رقم ٥٠٦٦ ، ٩ / ١٣٥ .
٨ . أخرجه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس ، رقم ٧٨٤٦ ، ٤ / ٣٤١ ، وقال الحاكم : هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .
٩ . سورة القصص ، آية ٢٣ . ١٠ . سورة الإسراء ، الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .
١١ . أخرجه أحمد في مسنده ، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، رقم ٦٩٣٧ ، ٦ / ٤٠٣ ، وقال المحقق : إسناده صحيح .

ثانياً . فقه أحوال الأسرة الشخصية .

وهو فقه أصيل وموسّع في منظومة الفقه الإسلامي ، والقرآن أفاض فيه القول في كثير من سوره وآياته ، ولا بد من إدراكه في إطار الواقع الاجتماعي ، وصولاً إلى الأسرة الصالحة ، قال تعالى : ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (١) ، ومباحثه تتضمن الزواج والطلاق وما يرتبط بهما من : إرث ، وحقوق وواجبات متبادلة بين الزوجين ، وظهار ، وإيلاء ، وقوامة ، وعدة ، واستئذان ، ولعان ، وخطبة وصداق ، وحمل ورضاع ، وتعدد في الزواج ... الخ .

يقول الله تعالى في خطبة النساء : ﴿**وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ**﴾ (٢) .

ويقول ﷻ في القوامة : ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ**﴾ (٣) .

ويقول جل شأنه ، في حرمة نكاح المشركة وإنكاح المشرك : ﴿**وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ**﴾ (٤) .

ويقول ﷻ في التحكيم عند الطلاق : ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً**﴾ (٥) .

وفي التعدد يقول الله جلّت قدرته : ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا**﴾ (٦) .

ثالثاً . فقه التحديات التي تواجهها الأسرة المعاصرة :

من هذه المشكلات : فقدان الهوية ، هامشية الروابط الاجتماعية بين أفراد الأسرة ، قضاء النشء ساعات طويلة أمام الانترنت والفضائيات ، الانصراف عن التربية الأسرية سعياً وراء المعيشة ، عدم تفهم مشكلات المراهقة والشباب ، البطالة وضيق الفرص ، ضعف العلاقات الاجتماعية الصالحة ، التركيز على الجوانب الاقتصادية والوجاهات الاجتماعية وترك الجوانب الروحية والإيمانية ، ضعف الحس الاجتماعي والانكفاء حول الذات ، التفريط في حقوق الشيخوخة والمسنين ، ضعف المستوى الثقافي لدى أفراد الأسرة ... الخ .

رابعاً . معرفة الأساليب التربوية المحافظة على كينونة الأسرة .

وهي تتمثل في عناصر بناء الأسرة بناءً صحيحا (٧) :

١ . القدوة : وهي تكون أولاً برسول الله – ﷺ – : ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾ (٨) ، ثم بالصحابة– رضي الله عنهم – ، وسائر المؤمنين من القادة والمصلحين .

---

١ . سورة الروم ، آية ٢١ .
٢ . سورة البقرة ، آية ٢٣٥ .
٣ . سورة النساء ، آية ٣٤ .
٤ . سورة البقرة ، آية ٢٢١ .
٥ . سورة النساء ، آية ٣٥ .
٦ . سورة النساء ، آية ٣ .
٧ . انظر التربية الاجتماعية الإسلامية ، د / علي عبد الحليم محمود ، ص ٢١٥ .
٨ . سورة الأحزاب ، آية ٢١ .

٢ . العظة : وهي التذكير بنعم الله وآلائه ، وبعقابه وجزائه ، وبقوانينه وآياته ، قال تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

٣ . القصة : وبخاصة قصص القرآن الكريم وقصص السنة النبوية المطهرة ، فإن القصة أفعل ما تكون في نفوس الصغار والكبار ، وأحفل بالعبر والدروس ، على ما فيها من تسلية وإمتاع ، والقرآن فيه حيز كبير جداً للقصص ، وبحسبنا أن الله تبارك وتعالى قال : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (٢) ، وقال جل شأنه بعد أن قص قصة يوسف – عليه السلام – مع إخوته : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) .

٤ . الجزاء : وهو اتجاه تربوي فاعل ومؤثر ، إذ لابد من جزاء للمحسن يناسب إحسانه ، وجزاء للمسيء يناسب إساءته ، قال تعالى : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٤) .

٥ . المسجد : وهو مكون تربوي للمسلم على جانب كبير من الأهمية ، فالمسجد خير معين للأسرة على تربية أبنائها وترسيخ القيم الإسلامية في نفوسهم ، قال تعالى مثنياً على رواد المساجد : ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٥) .

٦ . العمل : وهو قيمة عظيمة ، يطالب به كل مسلم صغيراً كان أو كبيراً ، بل إن العمل هو الترجمان الصادق والحقيقي للإيمان ، ما دام عملاً صالحاً يرضي الله تعالى ويوافق شرعه ومنهجه ، فقد قال الله تعالى : ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ (٦) .

٧ . الإتقان : وهو مبدأ إسلامي له وزنه في أي عمل يمارسه المسلم ؛ لأنه قيمة ثابتة من قيم الإسلام التي لا تتغير ولا تتبدل مهما تغير الزمان وتبدل المكان وأهله ، والإتقان هو معنى من معاني الإحسان الذي أمر الله تعالى به أمراً مطلقاً في قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٧) ، وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت ، قال رسول الله ﷺ : (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه) (٨) .

٨ . البر : وهو اسم جامع لكل أنواع الخير ، وأوضح ما يكون في صلة الأرحام وحسن الجوار ، والعلاقات الطيبة بين الأصدقاء والزملاء ، والسهر على شؤون الأسرة برعاية الوالدين والأبناء ، والإحسان إلى ذوي الحاجات

---

١ . سورة البقرة ، آية ٢٣١ .
٢ . سورة يوسف ، آية ٣ .
٣ . سورة يوسف ، آية ١١١ .
٤ . سورة النساء ، الآيتان ١٣ ، ١٤ .
٥ . سورة النور ، الآيات ٣٦ – ٣٨ .
٦ . سورة الكهف ، آية ١١٠ .
٧ . سورة النحل ، آية ٩٠ .
٨ . أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن عائشة ، باب في الأمانات ووجوب أدائها إلى أهلها ، رقم ٥٣١٢ وما بعدها ، ٤ / ٣٣٤ .

من اليتامى والمساكين والسائلين وابن السبيل ، قال تعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (١) .

٩ . الدعوة إلى الله : وهي واجبة على كل مسلم مكلف يملك البصيرة ، حسب الاستطاعة والقدرة ، ويلزم تطبيقها بالتربية تجاه الصغار ، وحثهم عليها وهم كبار ، قال تعالى : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٢) .

١٠ . التعاون : وإنما يكون التعاون بين المسلمين على البر والتقوى ، والأسرة وحدة المجتمع ولبنة في بنائه ، والمطلوب من الأسرة المسلمة أن تتعاون مع غيرها من الأسر على كل ما يمكن التعاون عليه من أنواع البر والخير ؛ لأن هذا واجبها الإسلامي ، قال تعالى : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٣) ، وقد عقد الإمام البخاري باباً في صحيحه تحت عنوان : (تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً) وروى فيه عن الرسول ﷺ أنه قال : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، ثم شبك بين أصابعه) (٤) .

خامساً . الإلمام بالأهداف التي تحققها الأسرة المسلمة :

١ . المحافظة على حسن العشرة بين الزوجين .
٢ . المحافظة على العلاقة الطيبة مع الأقارب .
٣ . تربية الأبناء تربية إسلامية .
٤ . توضيح القيم والمعايير الإسلامية والمحافظة عليها .
٥ . توريث الأسرة أبناءها القيم والمعايير الإسلامية .

فقه واقع الأمة الاجتماعي :

بمعرفة مركّزة عن أوضاعها الاجتماعية ، وخصائصها المميزة ، وهمومها الحاضرة وآمالها المستقبلية ، وعوامل تقدمها ونهضتها ، وإمكانات تكاملها اقتصادياً وتضامنها سياسياً وعسكرياً فضلاً عن تقاربها فكرياً وثقافياً .

أولاً . إدراك خصائص الأمة ومقوماتها .

أبرز ما يميز هذه الأمة عن غيرها من الأمم ، خصائص أربعة ، ذكرها القرآن (٥) :

الربانية :

ربانية المصدر ، وربانية المنهج ، وربانية الوجهة . فهي أمة أنشأها وحي الله تعالى ، وتعهدتها تعاليمه وأحكامه ، حتى اكتمل لها دينها ، وتمت به نعمة الله عليها ، كما قال تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً﴾ (٦)

---

١ . سورة البقرة ، آية ١٧٧ .
٢ . سورة يوسف ، آية ١٠٨ .
٣ . سورة المائدة ، آية ٢ .
٤ . أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي بردة ، كتاب الأدب ، رقم ٦٠٢٦ ، ١٠ / ٥٤٢ .
٥ . انظر كيف نتعامل مع القرآن ، د / يوسف القرضاوي ، ص ١٠٩ ،والطريق إلى جماعة المسلمين ، حسين بن علي جابر ، ص ٣٣ وما بعدها.
٦ . سورة المائدة ، آية ٣ .

فهي أمة مصدرها رباني ، ومنهجها رباني أيضاً ، رباني تنزيلاً وحفظاً كما قال تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١) ، ووجهتها ربانية كذلك ؛ لأنها تعيش لله ، ولعبادة الله ، ولتحقيق منهج الله في أرض الله ، فهي من وإلى الله كما قال تعالى لرسوله : ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٢) .

الوسطية :

الوسطية التي تؤهل الأمة للشهادة على الناس ، وتبوئها مكان الأستاذية للبشرية ، وفيها جاءت الآية الكريمة : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (٣) .

وهي وسطية شاملة جامعة : وسطية في الاعتقاد والتصور ، ووسطية في الشعائر والتعبد ، ووسطية في الأخلاق والسلوك ، ووسطية في النظم والتشريع ، ووسطية في الأفكار والمشاعر .

وسطية بين الروح والمادة .. بين المثالية والواقعية .. بين العقلانية والوجدانية .. بين الفردية والجماعية .. بين الثبات والتطور .

ولقد فصّل الأستاذ سيد قطب هذه الأمور التي كانت فيها الأمة الإسلامية وسطاً بين الأمم ، في النقاط الآتية (٤) :

١ . أمة وسطا في التصور والاعتقاد لا تغلو في التجرد الروحي ولا في الارتكاس المادي . إنما تتبع الفطرة الممثلة في روح متلبس بجسد .

٢ . أمة وسطا في التفكير والشعور لا تتجمد على ما علمت وتغلق منافذ التجربة والمعرفة ، وفي نفس الوقت لا تسمع لكل ناعق ، إنما تتمسك بما عندها من تصورات وأصول ، ثم تنظر في كل نتاج للفكر والتجربة .

٣ . أمة وسطا في التنظيم والتنسيق ، لا تدع الحياة كلها للمشاعر والضمائر ، ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب ، إنما ترفع البشر بالتوجيه والتهذيب ، وتكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب .

٤ . أمة وسطا في الارتباطات والعلاقات ، لا تلغي شخصية الفرد ومقوماته ، ولا تتلاشى شخصيته في شخصية الجماعة أو الدولة ، ولا تطلقه كذلك فردا أبتر جشعا لا همّ له إلا ذاته ، إنما تطلق من الدوافع والطاقات ما يؤدي إلى الحركة والنماء ، وتطلق من النوازع والخصائص ما يحقق شخصية الفرد وكيانه ، ثم تضع من الكوابح والمنشطات ما يجعل من الفرد خادما للجماعة ، والجماعة كافلة للفرد في تناسق واتساق .

٥ . وكذلك أمة وسطا في الزمان ، فهي تنهي عهد الطفولة البشرية من قبلها ، وتحرس عهد الرشد العقلي من بعدها .

٦ . ثم بين أنها من حيث المكان وسطا في سرة الأرض وكذا في وسط بقاعها .

---

١ . سورة الحجر ، آية ٩ .

٢ . سورة الأنعام ، الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ .

٣ . سورة البقرة ، آية ١٤٣ .

٤ . انظر في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ١ / ١٣١ .

الدعوة :

فهي أمة دعوة ورسالة ، ليست أمة منكفئة على نفسها ، تحتكر رسالة الحق والخير والهداية لذاتها ، ولا تعمل على نشرها في الناس ، بل الدعوة فريضة عليها ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الإيمان بالله أساس تفضيلها وترجيحها على سائر الأمم ، كما قال تعالى : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١) ، وقال جل شأنه : ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

وهذا الوصف يقتضي أن تكون رسالتها عالمية ، رسالة لكل الأجناس ، ولكل الألوان ، ولكل الأقاليم ، ولكل الشعوب ، ولكل اللغات ، ولكل الطبقات ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ (٣) .

الوحدة :

فالأمة التي يريدها الإسلام أمة واحدة ، وإن تكونت من عروق وألوان وطبقات ، فقد صهرها الإسلام جميعاً في بوتقته ، وأذاب الفوارق بينها ، وربطها بالعروة الوثقى لا انفصام لها .

يقول تعالى : ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (٤) ، ويقول سبحانه : ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ (٥) .

ومن أهم مظاهر وحدتها : وحدة في العقيدة ، ووحدة في العبادة ، ووحدة في العادات والسلوك ، ووحدة في التاريخ ، ووحدة في اللغة ، ووحدة في الطريق ، ووحدة في الدستور ، ووحدة في القيادة .

فكيف لا تكون هذه الأمة واحدة ، وقد وحد الله عقيدتها وشريعتها . وحد غايتها ، ووحد منهاجها . كما قال سبحانه وتعالى : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ (٦) .

أمة ربها واحد هو الله ، ونبيها واحد هو محمد ﷺ ، وكتابها واحد هو القرآن ، وقبلتها واحدة هي الكعبة (البيت الحرام) ، وشريعتها واحدة هي شريعة الإسلام ، ووطنها واحد هو (دار الإسلام) على اتساعها ، وقيادتها واحدة تتمثل في (خليفة المسلمين) وأمير المؤمنين الذي يجسم الوحدة السياسية للأمة .

ثانياً . الاهتمام بهموم الأمة الحاضرة وآمالها المستقبلية .

المطلوب الإحاطة بهموم الأمة وأوجاعها ، فهماً وتفاعلاً ، وتضحية واحتراقاً على واقعها المتأزم ، فأمتنا اليوم تواجه نكبات وتحديات خطيرة ، وفتناً ومحناً متلاحقة ، هي ابتلاء واختبار لقوتها وقدرتها على الصمود والتحدي، قال تعالى : ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٧) ، وقال جل شأنه : ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٨) .

---

١ . سورة آل عمران ، آية ١١٠ .
٢ . سورة آل عمران ، آية ١٠٤ .
٣ . سورة الأعراف ، آية ١٥٨ .
٤ . سورة الأنبياء ، آية ٩٢ .
٥ . سورة المؤمنون ، آية ٥٢ .
٦ . سورة الأنعام ، آية ١٥٣ .
٧ . سورة العنكبوت ، الآيتان ١ ، ٢ .
٨ . سورة آل عمران ، آية ١٨٦ .

فجبهتها الداخلية تعاني من انهيار في القيم والأخلاق ، وتفكك في المواقف والأحداث ، وانعدام الجدية في البناء ، وحضور السلبية في العمل والعطاء ، ومن الخارج رماها الأعداء عن قوس واحدة ، وتداعت عليها ملل الكفر من كل حدب وصوب ، فالدم لا يزال ينزف في فلسطين والعراق والصومال وأفغانستان والشيشان ، وبلدان أخرى تعاني من سطوة وهيمنة المحتل وإن لم يطأها بقدمه وجيشه .

هذا الوضع الراهن لأمتنا ، يستوجب الإلمام بواقعها المعيش وفهمه جيداً ، ثم تفقد أمور الناس وإصلاح شؤونهم الدينية والدنيوية ، ودعوة أولي الأمر من الحكام والعلماء والمفكرين والأدباء لقيادة الأمة إلى بلوغ مجدها وحل معضلاتها التي يوشك أن تذهب بوجودها وعزتها .

والمتدبر للقرآن الكريم يجده منذ العهد المكي يوجه أنظار المسلمين إلى الغد المأمول ، والمستقبل المرتجى ، والمبشرات بمجد الإسلام ، وإلى عوامل التغير والانتقال من الواقع إلى المتوقع في ضوء السنن ، ويبين لهم أن الفلك يتحرك ، والعالم يتغير ، والأحوال تتحول ، فالمهزوم قد ينتصر ، والمنتصر قد يهزم ، والضعيف قد يقوى ، والدوائر تدور ، قال تعالى : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ (١) .

ذكر ابن كثير في تفسير الآية ، عن عكرمة قال : لما نزلت (سيهزم الجمع ويولون الدبر) ، قال عمر : أي جمع يهزم ؟ أي جمع يغلب ؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع ، وهو يقول : (سيهزم الجمع ويولون الدبر) فعرفت تأويلها يومئذ (٢) .
فكان المقصود بهذه الآية وأمثالها تهيئة ذهنية الأمة المسلمة ونفسيتها ، للتغير الحتمي والغد المرتقب .

وفي القرآن آيات كثيرة تتحدث عن المستقبل ، حاملة البشرى والأمل للأمة بظهور الدين ، والتمكين له ، واستخلاف أهله في الأرض ، وبروز آيات الله في الأفاق وفي الأنفس حتى يتبين الحق (٣) .
قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٤) .
وقال ﷻ : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾ (٥) .
ويقول جل شأنه : ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٦) .
ويقول تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (٧) .

لذلك يجب أن يوقن أبناء الأمة أن هذا الواقع لابد أن يزول ، والطغيان وليل الجاهلية إلى أفول ، والبديل هو الحل الإسلامي ، وما على الصادقين إلا أن يصبروا ويصمدوا ، ولا يستعجلوا قطف الزهرة قبل أوانها أو جني الثمرة قبل نضجها .

---

١ . انظر الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة ، د / يوسف القرضاوي ، ص ١٢١ ، والآيتان ٤٥ ، ٤٦ من سورة القمر .
٢ . تفسير ابن كثير ، ٦ / ٥٣ وهو مرسل ، ويشهد له ما رواه البخاري عن ابن عباس ، فتح البارئ ، كتاب المغازي ، رقم ٣٩٥٣ ، ٣٥٤/٧ .
٣ . الثقافة العربية الإسلامية ، القرضاوي ، ص ١٢٣ .
٤ . سورة التوبة ، آية ٣٣ ، الفتح : ٢٨ ، الصف : ٩ .
٥ . سورة النور ، آية ٥٥ .
٦ . سورة النمل ، آية ٩٣ .
٧ . سورة فصلت ، آية ٥٣ .

فقد روى البخاري عن الخباب بن الأرت [١] أنه جاء إلى رسول الله – ﷺ – يشكو إليه ويستنجد به ، وهو متوسد رداءه في ظل الكعبة ، فقال : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : (قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ! ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ، ما يصده عن دينه ! والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت ، فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون) [٢] .

ثالثاً . فقه الأخوة الإسلامية .

الأخوة رابطة نفسية تورث الشعور العميق بالعاطفة والمحبة والاحترام مع كل من تربطه وإياه أواصر العقيدة الإسلامية ، قال تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [٣] .

قال القرطبي في تفسير الآية : أي في الدين والحرمة لا في النسب ، ولهذا قيل : إخوة الدين أثبت من أخوة النسب ، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين ، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب [٤] .

ولقد آخى الرسول ﷺ في فجر الإسلام ، بين المهاجرين والأنصار برباط وثيق وحب عميق لم تشهده البشرية في عصورها السابقة واللاحقة ، وذلك بقوله : (تآخوا في الله أخوين أخوين) [٥] .

وكما قال ربعي عامر لرستم قائد الفرس في واقعة القادسية : إن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض ، يجير أدناهم على أعلاهم [٦] .

فمن الواجب إبصار واستشعار هذا الفقه الذي ينظم الأمة كلها في عقد واحد ، ويوجهها في اتجاه واحد لرب واحد ، بفهم معاني الأخوة وإدراك أبعادها في لم الشمل وتوحيد الصف ، فنحن أمة لها أخوة إسلامية متينة ترسمها الحدود من نواكشوط إلى جاكرتا ، بل في كل بقعة ذكر فيها اسم الله ووجد فيها المسلمون :

وكلما ذكر اسم الله في بلد ** عددت أرجاءه من لب أوطاني [٧] .

ولابد أن يكون المسلم يقظ ومنتبه ضد الدعوات والصيحات التي تريد تغييب البعد الإسلامي وتفريغه من محتواه ، وشطب روابط الأخوة الإسلامية ، في قضايا الأمة المصيرية وتحدياتها المعاصرة ، فالجذور الإسلامية ضاربة العمق في كل بؤر الصراع مع الأعداء ، ولا يجوز إلغاء إسلامية المواجهة واستبدالها بأي راية أخرى

---

١ . هو خباب بن الأرت التميمي ، صحابي من السابقين ، قيل : أسلم سادس ستة ، وهو أول من أظهر إسلامه ، وشهد المشاهد كلها ، ومات بالكوفة ستة ٣٧ هـ ، وروى له البخاري ومسلم وغيرهما ٣٢ حديثاً . انظر الطبقات ٣ / ١٢١، صفة الصفوة ١ / ٢٢٣ ، الوافي بالوفيات ١٣ / ١٧٦ ، أسد الغابة ٢ / ١٤٧، الأعلام ٢ / ٣٠١ .

٢ . أخرجه البخاري عن الخباب بن الأرث ، فتح البارئ ، كتاب الإكراه ، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر ، رقم ٦٩٤٣ ، ١٢ / ٣٨١ .

٣ . تربية الأولاد في الإسلام ، د عبد الله ناصح علوان ، ص ١٢٧٦ ، والآية رقم ١٠ من سورة الحجرات .

٤ . الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، ٨ / ٥٩٠ .

٥ . الروض الأنف ، السهيلي ، ٢ / ٢٤٢ ، نقلاً عن السيرة النبوية لابن هشام .

٦ . البداية والنهاية ، ٧ / ٤٢ .

٧ . هذا البيت نسبه الإمام البنا إلى شاعر من شعراء الإخوان ، مجموعة الرسائل ، ص ١٩٣ .

كالقومية أو العرقية ، قال جل شأنه : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١) ، ويقول الرسول ﷺ :(ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى) (٢) .

رابعاً . عوامل نهوض الأمة وتقدمها .

إن الأمة الإسلامية تحتاج في سعيها للقيام بالدور الذي ائتمنها الخالق جل وعلا عليه ، وفي سبيل استعادتها لمكانتها الحضارية ، ومواجهتها مع الذات ومع الآخر ، أن يكون لديها الرصيد العقدي والفكري والسياسي المناسب لحمل أمانة هذه الرسالة وخدمة الدعوة والمساهمة في نهوض البشرية بالشكل الصحيح شرعاً والمعاصر منهجاً ، واللائق بتاريخ وقيمة هذه الأمة بين الأمم (٣) .

وإن الأمة التي تحيط بها ظروف كظروفنا وتنهض لمهمة كمهمتنا وتواجه واجبات كتلك التي نواجهها لا ينفعها أن تتسلى بالمسكنات أو تتعلل بالآمال وإنما عليها أن تعد نفسها لكفاح عنيف ، وصراع قوي شديد بين الحق والباطل وبين النافع والضار وبين صاحب الحق وغاصبه وسالك الطريق وناكبه وبين المخلصين الغيورين والأدعياء المزيفين وإن عليها أن تعلم أن الجهاد من الجهد والجهد هو التعب والعناء ، وليس مع الجهاد راحة حتى يضع النضال أوزاره وعند الصباح يحمد القوم السرى (٤) .

إن نقطة الانطلاق أولاً تكون باستحضار تاريخ الأمة في فتراته الذهبية ، واستلهام منه أسباب السقوط وعوامل النهوض ؛ لأنه كما قال لإمام مالك : إنه لا يصلح الناس إلا بما صلح به أولهم .

وفي تمكين المجتمع الإسلامي من النهوض والبعث من جديد ، يقول مالك بن نبي (٥) : إنه لتفكير سديد الذي يرى أن تكوين الحضارة كظاهرة اجتماعية إنما يكون في نفس الظروف والشروط التي ولدت فيها الحضارة الأولى ، كان هذا صادراً عن عقيدة قوية ، ولسان يستمد من سحر القرآن تأثيره ؛ ليذكر الناس بحضارة الإسلام في عصوره الزاهرة (٦) .

ثم ثانياً التركيز على الأخلاق لما لها من دور كبير في صعود الأمم ، واستشراف آفاق مستقبلها ، قال الشاعر :

إنَّما الأُمَمُ الأَخلاقُ ما بَقِيَتْ ** فإنْ ذهَبتْ أخلاقُهمْ ذَهبُوا (٧)

وقال أيضاً: صَلاحُ أَمرِكَ لِلأَخلاقِ * * مَرجِعُهُ فَقَوِّمِ النَفسَ بِالأَخلاقِ تَستَقِمِ (٨) .

يقول الإمام الشهيد حسن البنا– رحمه الله – : والأمة الناهضة أحوج ما تكون إلى الخلق .. الخلق الفاضل القوي المتين ، والنفس الكبيرة العالية الطموح ، إذ إنها ستواجه من مطالب العصر الجديد ما لا تستطيع الوصول إليه إلا

١ . سورة التوبة ، آية ٧١ . ٢ . أخرجه البخاري عن النعمان بن بشير ، فتح البارئ ، كتاب الأدب ، رقم ٦٠١١ ، ١٠/ ٥٢٩ .

٣ . العالم الإسلامي عوامل النهضة وآفاق البناء ، تقرير استراتيجي ، ص ٥ . ٤ . مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ، ص ٣٤٤ .

٥ . مالك بن نبي : مفكر إسلامي جزائري ، ولد بها في مدينة قسنطينة سنة ١٩٠٥ م ، ودرس القضاء في المعهد الإسلامي ، وتخرج مهندساً ميكانيكياً في معهد الهندسة العالي بباريس ، وانتقل إلى القاهرة وأصدر فيها معظم كتبه ، وله نحو ٣٠ كتاباً باللغة الفرنسية ، وكان من أعضاء مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة ، وتولى إدارة التعليم العالي ببلده سنة ١٩٦٤ م ، وتوفي بها سنة ١٩٧٣ م . انظر الأعلام ٥ / ٢٦٦ ، ومعجم المؤلفين المعاصرين ، محمد خير يوسف ٢ / ٥١٧ . ٦ . شروط النهضة ، مالك بن نبي ، ص ٢٥ .

٧ . ديوان أحمد شوقي ، ونصه : وَإِنَّما الأُمَمُ الأَخلاقُ ما بَقِيَت * * فَإِن تَوَلَّت مَضَوا في إِثرِها قُدُما. أي مع اختلاف في عجز البيت ، ١ / ٢٥٦ .

٨ . المصدر السابق ، ١ / ١٢١ .

بالأخلاق القوية الصادقة النابعة من الإيمان العميق ، والثبات الراسخ والتضحية الكثيرة والاحتمال البالغ [١] .

بعد هاتين الركيزتين – الرجوع إلى الجذور والبناء الأخلاقي – يبدأ النهوض ، (فبالاستعداد الروحي والاستعداد الصناعي والحربي والاستقلال التعليمي ينهض العالم الإسلامي ، ويؤدي رسالته وينقذ العالم من الانهيار الذي يهدده . فليست القيادة بالهزل ، إنما هي جد الجد ، فتحتاج إلى جد واجتهاد ، وكفاح وجهاد ، واستعداد أي استعداد :

كُلٌّ امرئٍ يَجري إلى * * يَومِ الهِياجِ بِما اِستَعَدا) [٢] .

ويمكن حصر عوامل نهوض الأمة ، وسبل تقدمها ، في البنود التالية [٣] :

١ . الاستعداد الروحي :

إن نهضة الأمة تأتي من قوة رسالتها الروحية ، وحياتها المعنوية ، لذا يجب تربية الإنسان المسلم في مجتمعه ضمن هذا التوجه ، مضافاً إليه القوة الجسدية والعقلية .

ومن ثم تحل مشكلات الأمة بحلول مستلهمة من عقيدتها وشريعتها ، ومطابقة لروح واحتياجات عصرها ، أي المواءمة بين تراثنا وعقيدتنا ، وبين الحضارة المادية الحديثة .

٢ . التنظيم العلمي :

وأساس ذلك هو التربية والتعليم على أصول الثقافة الإسلامية ، وإيجاد منهج متكامل وشامل لسلم التعليم داخل المجتمع الإسلامي ، فلا نقتصر على إدخال العلوم الحديثة فقط ، بل يجب علينا أن نسير في تطبيق التجارب العلمية ووضع الطريق لها بما يتفق وروح الإسلام ومنهجه الأخلاقي والتشريعي ، وليس هذا فحسب بل يجب أن نهتم باستقلالنا الفكري وحرية البحث العلمي وإحياء تراثنا العربي والإسلامي ، الذي أصبحنا عالة في دراسته على ما وضعه علماء الغرب من المستشرقين وغيرهم ، الذين أصبحوا المرشدين والموجهين لنا في أخص علومنا ومبادئنا .

٣ . الاعتماد على الله تعالى وإعادة الثقة بالنفس : فمن أوليات وبديهيات النهوض بالحضارة الإسلامية هو تخلصنا من الوهم واليأس المسيطر على نفوسنا ، والاعتماد على النفس وإعادة الثقة بها ورفع الهمة وصدق العزيمة والتوجه بإخلاص إلى الله تعالى في شتى أعمالنا وتصرفاتنا لننال رضاه وعونه .

٤ . إعداد القوة الحربية والتقنية : لا لتكون وسيلة للعدوان وإنما لتكون وسيلة للتوازن الذي يكفل سعادة المجتمع البشري ، وتحقيق الرخاء له ، وهذا يقتضي أن نحرر أنفسنا من الاعتماد على الغرب في المجالات الحربية والعسكرية ، وأن نستغني عنه بشتى الوسائل الممكنة والطرق المتاحة في الحقول الاقتصادية والصناعية .

٥ . توحيد جهود ومؤسسات الفقه والبحوث الإسلامية لتقديم الإجابة الصحيحة على كل سؤال تطرحه أمامهم تحديات العصر الحاضر .

٦ . طرح الخلافات الجدلية والصراعات الفكرية والسياسية التي تفرق جمع المسلمين ووحدتهم .

٧ . التمسك بروح التضامن الإسلامي ومضامينه ومفاهيمه لمواجهة التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، وذلك بدمج جميع الطاقات والإمكانات الإسلامية ، بشرية واقتصادية في بعضها لتكون قوة مشتركة لخلق كيان إسلامي حضاري قوي .

---

١ . مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ، ص ٧٦ . ٢ . ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، الندوي ، ص ٣٩٢ . والبيت لعمرو بن معد يكرب الزبيدي ، الأنوار ومحاسن الأشعار ، الشمشاطي ، الموسوعة الشاملة على النت ١ / ١٠ .

٣ . انظر منهج الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة ، د / نصر الدين القاضي ص ٥٢٠ ، والأمة الإسلامية وقضاياها المعاصرة ، عبد الوهاب الواسع ، ص ١٢٣ .

٨ . الإرادة الجازمة لصبغ الحياة العامة في البلاد الإسلامية بالصبغة الإسلامية ، وإبراز فصائل هذه الصيغة وما تتميز به من معانٍ إنسانية سامية لتعميمها بين البشر .

فقه الواقع الاجتماعي العالمي :

بوعي الظواهر الإنسانية ، والأحداث الاجتماعية التي تسيّر حياة الشعوب ، والتي تنتج من المشاركة والمفاعلة في الساحة العالمية ، ومدى تأثير هذا الواقع على الواقع المحلي والإقليمي للأمة الإسلامية .

وهنا سوف نتناول بعض الموضوعات التي نراها مهمة في بيان وتحليل الواقع الاجتماعي العالمي ، من باب المثال لا الحصر :

أولاً . معرفة طبائع الشعوب وثقافتها وأحوالها .

يظهر هذا في توجيه الرسول ﷺ أصحابه إلى الحبشة ؛ لأنه كان عالماً بحال النجاشي ،وفسره بقوله لهم :(لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه) [١] .

ومن علمه ﷺ بطبائع الشعوب ، قوله لرجل من أصحابه لما ذهب إلى حي من أحياء العرب فسبوه وضربوه : (لو أن أهل عمان أتيت ما سبوك ولا ضربوك) [٢] .

وقوله : (أتاكم أهل اليمن أرق أفئدة وألين قلوباً الفقه يمان والحكمة يمانية) [٣] ، بل إنه ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال : (إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله ...) [٤] ، فعرفه بحال القوم حتى يستعد لهم بما يناسبهم .

وفي صحيح مسلم قال المستورد القرشي [٥] عند عمرو بن العاص : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (تقوم الساعة والروم أكثر الناس) ، فقال له عمرو : أبصر ما تقول ، قال المستورد : أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ، قال عمرو : لئن قلت ذلك أن فيهم لخصالاً أربعة :

١ . إنهم لأحلم الناس عند فتنة .

٢ . وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة .

٣ . وأوشكهم كرة بعد فرة .

٤ . وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف .

٥ . وخامسة حسنة جميلة وأمنعهم من ظلم الملوك [٦] .

إن هذا الحديث الشريف يعد دراسة لواقع الروم (أوروبا في المصطلح الحديث) ، وهو يدل على خبرة الصحابة بطبائع الناس وصفاتهم وثقافاتهم في كل المجتمعات في العالم القديم على اختلاف طبقاتها وتعدد مشاربها .

---

١ . السيرة النبوية ، ابن هشام ، ١ / ٣٢٢ .

٢ . أخرجه مسلم عن أبي بَرْزة ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل أهل عمان ، حديث رقم ٢٥٤٤ ، ٤ / ١٩٧١ .

٣ . متفق عليه ، عن أبي هريرة ، اللؤلؤ والمرجان ، رقم ٣٢ ، ص ١٩ ، وبلفظ أضعف قلوباً وأرق أفئدة ...

٤ . متفق عليه ، عن ابن عباس ، رقم ١١ ، ص ١٤ .

٥ . هو مستورد بن شداد بن عمرو الفهري القرشي : صحابي من أهل مكة . سكن الكوفة مدة ، وشهد فتح مصر ، وتوفي بالإسكندرية سنة ٤٥ هـ . له سبعة أحاديث ، منها حديثان في صحيح مسلم . انظر الطبقات ٦ / ١٢٧ ، أسد الغابة ٥ / ١٤٨ ، الأعلام ٧ / ٢١٥ .

٦ . أخرجه مسلم عن مستورد القرشي ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب تقوم الساعة والروم أكثر الناس ، رقم ٢٨٩٨ ، ٤ / ٢٢٢٢ .

ثانياً . دراسة الأديان الباطلة ، والتيارات المناوئة .

إن دراسة واقع الأديان المعاصرة مهم في فهم الواقع الاجتماعي العالمي ، سواء كانت أديان سماوية خاصة بأهل الكتاب ، وهي اليهودية وتوراتها المحرفة وتلمودها الرهيب ، والمسيحية وطوائفها وكنائسها المختلفة ، أو أديان وثنية كأديان الشرق الأقصى الكبرى ، وهي الهندوكية والبوذية والزرادتشية .

فالقرآن مليء بالآيات التي تشرح عقائد الديانات الأخرى ، من كتابيين ووثنيين ، وتبين واقعهم البائس ، وتحذر من اقتفاء أثرهم أو النسج على منوالهم .

والرسول – ﷺ – كان عالماً بالديانات الفاسدة، والمقالات الباطلة ، فقد قال لعدي بن حاتم [١] لما قدم عليه : (يا عدي ابن حاتم أسلم تسلم – ثلاثا– قال : قلت : إني على دين ، قال : أنا أعلم بدينك منك ، فقلت : أنت أعلم بديني مني ؟ قال : نعم ألست من الركوسية ؟ وأنت تأكل مرباع قومك ؟ قلت : بلى ، قال : هذا لا يحل في دينك . قال : نعم ، فلم يعد أن قالها ، فتواضعت لها ، قال : أما أني أعلم الذي يمنعك من الإسلام ، تقول : إنما اتبعه ضعفة النفوس ومن لا قوة لهم ، وقد رمتهم العرب ، أتعرف الحيرة ؟ قلت : لم أرها وقد سمعت بها ، قال : فوالذي نفسي بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة [٢] من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير أحد ...) [٣] .

وكان وهب بن منبه [٤] يقول : لقد قرأت اثنتين وتسعين كتاباً كلها أنزلت من السماء ، اثنان وسبعون منها في الكنائس وفي أيدي الناس ، وعشرون لا يعلمها إلا قليل [٥] .

وحكى ابن كثير : أن عبد الله بن عمرو أصاب زاملتين يوم اليرموك ، وكان فيهما إسرائيليات يحدث منها ، وفيهما منكرات وغرائب [٦] .

فهؤلاء استندوا في فعلهم هذا إلى قول الرسول ﷺ : (بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) [٧] ، إلا أن الأخذ بمرويات أهل الكتاب ، والتحديث بها ، له شروط معروفة لدى الدارسين [٨] .

كذلك لابد أن نعْنى أثناء تمحيصنا للواقع الاجتماعي العالمي بواقع التيارات الأيديولوجية والمذاهب السياسية المناوئة للفكر الإسلامي ، من شيوعية ورأسمالية واشتراكية و ليبرالية وديمقراطية ويسارية وقومية وعلمانية ودكتاتورية ، وبواقع الفرق المنشقة على الإسلام كالبهائية والقاديانية .

---

١ . صحابي من الأجواد العقلاء ، وهو ابن حاتم الطائي الذي يضرب بجوده المثل ، كان رئيس طيء في الجاهلية والإسلام ، أسلم سنة ٩ هـ ، وشهد حروب الردة وفتح العراق ، ثم سكن الكوفة وشهد الجمل وصفين والنهروان مع علي ، ومات بالكوفة سنة ٦٨ هـ ، وروى عنه المحدثون ٦٦ حديثاً . انظر الطبقات ٦ / ٩٩ ، الوافي بالوفيات ١٩ / ٣٤٨ ، أسد الغابة ٤ / ٧ ، الأعلام ٤ / ٢٢٠ .

٢ . الظعينة : الراحلة التي يرتحل عليها ، وكذلك المرأة في السفر . انظر المعجم الوسيط ٢ / ٥٧٦ .

٣ . أخرجه أحمد في مسنده ، رقم ١٨١٧٦ ، ١٤ / ١١٨ ، وهو ضعيف ، ويشهد له ما أخرجه البخاري عن عدي بن حاتم ، كتاب علامات النبوة ، فتح الباري ، رقم ٣٥٩٥ ، ٦ / ٧٤٢ .

٤ . مؤرخ ، كثير الإخبار عن الكتب القديمة ، وعالم بأساطير الأولين لاسيما الإسرائيليات ، ولد بصنعاء سنة ٣٤ هـ وولاه عمر بن العزيز قضاءها ، لذا يعد في التابعين ، وتوفي سنة ١١٤ هـ . انظر الطبقات٦/ ٧٠، وفيات الأعيان٥/ ٢٨، شذرات الذهب ١ / ١٥٠، الأعلام ٨ /١٢٥ .

٥ . الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، ٦ / ٧١ . ٦ . البداية والنهاية ، ابن كثير ، ٢ / ٣٣٦ .

٧ . أخرجه أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو ، رقم ٧٠٠٦ ، ٦ / ٤٤٥ ، وقال المحقق : إسناده صحيح .

٨. ماجاء موافقاً للكتاب والسنة يؤخذ به استئناساً،وماخالفهما يرد،أما ما جاءعنهم وليس له ذكر في الكتاب والسنة فنتوقف عنده فلا نصدقه ولا نكذبه.

ثالثاً . السلوك القويم ، والتعامل الراقي مع الآخر .

من أروع ما سجله القرآن الكريم في التعامل مع الآخر وإنصافه ، قول الرسول – ﷺ – : ﴿**وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ قُلْ لا تُسْأَلونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ (١) ، فالخطاب ظاهره يشير إلى الاستواء في نسبة الهداية أو الضلال للفريقين – الكافرين والمؤمنين – بل في الآية التي تليها نسب ﷺ الإجرام إليه ، والعمل إليهم ، وهو من التكتيك الدعوي الذي كان ينتهجه ﷺ لاستمالة الخصم واستلطافه ، وتحريك مشاعره تجاه دعوة الحق وطريق الإسلام .

الأسس التي تقوم عليها العلاقات بين المسلمين وغيرهم (٢) :

١ . حسن التعامل مع الناس جميعاً .

بالرفق والتسامح والعفو ، قال تعالى : ﴿**وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿**فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (٤) ، وقال ﷻ : ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ (٥) .

وعن النبي ﷺ قال : (من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي الخير ، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير) (٦) .

٢ . تطبيق مبدأي العدل والإحسان .

العدل أهم مبدأ في الحياة الإنسانية كلها ، وبه تستقيم حياة الناس فلا يظلم بعضهم بعضا ، بل بالعدل قامت السموات والأرض ، والإحسان في تحليله الاجتماعي مكمل للعدل ، ومطمئن للنفوس وداعم لروح المودة والرحمة بين الناس ، قال تعالى : ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ (٧) ، وفيها قال ابن مسعود : هذه أجمع آية في القرآن لخير يمتثل ، ولشر يجتنب (٨) . وأوجب الله العدل مع الخصم والعدو فقال : ﴿**وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾ (٩) .

٣ . وجوب استمرار الدعوة إلى الله مع كل أحد .

وذلك يفهم من عموم الآيات الكريمة التي وردت عن الدعوة إلى الله ، بوسائلها المعروفة وأدبياتها المتعارف عليها بين الدعاة إلى الله ، ومن هذه الآيات قوله تبارك وتعالى : ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ (١٠) .

---

١ . سورة سبأ ، الآيتان ٢٤ ، ٢٥ .

٢ . انظر التربية الاجتماعية الإسلامية ، د / علي عبد الحليم محمود ، ص ٣٦٣ وما بعدها .

٣ . سورة فصلت ، آية ٣٤ . ٤ . سورة البقرة ، آية ١٠٩ .

٥ . سورة الأنبياء ، آية ١٠٧ .

٦ . أخرجه الترمذي عن أبي الدرداء ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في الرفق ، رقم ٢٠١٣ ، ٤ / ١٣٥ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

٧ . سورة النحل ، آية ٩٠ .

٨ . الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، ٥ / ٥١٣ . ٩ . سورة المائدة ، آية ٨ .

١٠ . سورة النحل ، آية ١٢٥ .

رابعاً . تمييز الأصدقاء من الأعداء .

الناس ليسوا على درجة واحدة ، فمنهم الصديق ، ومنهم المتعاطف ، ومنهم المصلحي ، ومنهم المتحامل ، ومنهم العدو اللدود ، ومنهم ما بين ذلك ، وإذا أمعنا النظر في عالمنا المعاصر نجد أن مواقف الغرب أو الآخر تجاهنا ، ليست في مستوى واحد ، فهناك النخب الفكرية والقيادات السياسية ، وهناك مؤسسات المجتمع المدني ، وهناك الحقوقيون ، وهناك المستشرقون والعلماء المنصفون ، وهناك المواطن البسيط الذي يجهل واقعه المحلي فضلاً عن واقعه العالمي... الخ .

لهذا يجب أن نفرز الأصدقاء من الأعداء ؛ لأن الله تعالى حث نبيه على هذا التمييز : ﴿**حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ**﴾ (١) .

وقال ﷻ : ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ**﴾ (٢) .

فاليهود والذين أشركوا على الإطلاق أعظم الناس معاداة للإسلام والمسلمين ، وأكثرهم سعياً في إيصال الضرر إليهم ، وذلك لشدة بغضهم لهم بغياً وحسداً وعناداً وكفراً . بينما النصارى هم الأقرب للذين آمنوا ؛ لأن منهم قسيسين ورهبانا أي : علماء متزهدين وعبادا في الصوامع متعبدين ، والعلم مع الزهد وكذلك العبادة مما يلطف القلب ويرققه ، ويزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة ، فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود وشدة المشركين ، ولأنهم أيضاً لا يستكبرون أي : ليس فيهم تكبر ولا عتو عن الانقياد للحق ، وذلك موجب لقربهم من المسلمين ومن محبتهم ، فإن المتواضع أكبر إلى الخير من المستكبر (٣) .

وهذه المعادلة التي ذكرها القرآن ، قائمة في واقعنا المعاصر ، فاليهود الصهاينة ومن ظاهرهم من أمريكان وملحدين أشد عداوة على المسلمين من أوروبا النصرانية .

في نهاية هذه الفقرات ، أقول : يجب بعد إدراك البناء الاجتماعي أن ننتقل إلى خطوة أخرى ، وهي بناء علاقات بشرية سوية تسهم في تفعيل النشاط الاجتماعي ، وحل المعضلات التي يعاني منها الفرد والمجتمع والأمة ، بل والعالم بأسره . يقول الإمام البنا في الإصلاح الاجتماعي : نريد الفرد المسلم في تفكيره وعقيدته ، وفي خلقه وعاطفته ، وفي عمله وتصرفه ، وكذلك البيت المسلم والمجتمع والدولة والعالم أجمع (٤) .

---

١ . سورة التوبة ، آية ٤٣ .

٢ . سورة المائدة ، آية ٨٢ .

٣ . انظر تيسير الكريم الرحمن ، عبد الرحمن السعدي ، ص ٢٣٧ .

٤ . انظر مجموعة الرسائل ، حسن البنا ، ص ٩٥ .

برصد الواقع الاجتماعي الذي خاطبه النبي نوح – عليه السلام – ، يتضح أن إرسال نوح إلى قومه كان نهجاً فريداً في أن يكون نذير القوم منهم ، إذ هو البصير بأحوالهم والعارف بأمورهم الاجتماعية : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾ (١) ، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ (٢) ، وهو بحق أبو الأنبياء بعد آدم عليه السلام ، فقد مكث مع قومه في زمن رسالته ، ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ومع هذا فما آمن معه إلا قليل ، وهي فترة كافية جداً لمسح البيئة الاجتماعية والتعرف على أخبارها ودقائق أمورها .

ويمكن تحديد فقه الواقع الاجتماعي ، ومعالمه في رسالة النبي نوح – عليه السلام – بالآتي :

١ . الشفقة والتلطف مع المدعوين أساس في الخطاب الدعوي والاجتماعي ، وذلك واضح في قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ (٣) ، وفي لفظ الأخوة الغاية في اللطافة والمحبة (٤) .

٢ . التبليغ بالكلام المبين ، والحجة الواضحة ، معلم من معالم الاهتمام بالواقع الاجتماعي والعمل فيه : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥) .

٣ . التأكيد على عبادة الله وحده : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٦) ، ثم الانطلاقة إلى معالجة الانحرافات الشركية في البيئة الاجتماعية : ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلالاً﴾ (٧) .

ومكروا مكراً كباراً أي كبيراً وعظيماً ، واختلف في مكرهم ، فقيل : تحريشهم سفلتهم على قتل نوح ، وقيل : كفرهم . وقال ابن عباس عن الأسماء التي ذكرت – ود وسواع ويعوق ونسر – : هي أصنام وصور كان قوم نوح يعبدونها ثم عبدتها العرب ، وقيل : هي تماثيل عملت لرجال صالحين تخليداً لذكراهم ثم انقلبت الذكرى بمرور الزمن إلى عبادة وتأليه (٨) .

٤ . كان الرفض ينطلق أولاً من الملأ ؛ وهم أصحاب المراكز والنفوذ والقرار والمنافع ، وهم أول المتضررين من العدالة والنزاهة والمساواة ، لذا ؛ فهم قادة الرفض والمجابهة والمعارضة لدعوات الخير كلها : ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (٩) .

---

١ . سورة الأعراف ، آية ٥٩ .
٢ . سورة الشعراء ، آية ١٠٦ .
٣ . سورة الشعراء ، آية ١٠٦ .
٤ . انظر المستفاد من قصص القرآن ، د / عبد الكريم زيدان ، ١ / ١٥٣ .
٥ . سورة نوح ، آية ٥ .
٦ . سورة الأعراف ، آية ٥٩ .
٧ . سورة نوح ، الآيات ٢١ – ٢٤ .
٨ . انظر تفسير القرطبي ، ٩ / ٥٠٧ .
٩ . الفقه السياسي الإسلامي ، د / خالد فهداوي ، ص ١٣٥ ، والآية رقم ٦٠ من سورة الأعراف .

٥ . مقياس مكانة الإنسان في المجتمع الإسلامي خلاف ما هي عليه في المجتمعات الأخرى ، فلا مجال لازدراء الناس وامتهانهم ، والسخرية من أوضاعهم وأحوالهم ، لذلك جاء في الكتاب العزيز على لسان قوم نوح : ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ (١) ، ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ (٢) .

قال القرطبي في الآية السابقة : الأراذل هنا هم الفقراء والضعفاء ، كما قال هرقل لأبي سفيان (٣) : أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم ، فقال : هم أتباع الرسل ، قال علماؤنا : إنما كان ذلك لاستعلاء الرياسة على الأشراف وصعوبة الانفكاك عنها والأنفة من الانقياد للغير ، والفقر خلي عن تلك الموانع فهو سريع إلى الإجابة والانقياد ، وهذا غالب أحوال أهل الدنيا ، وبادئ الرأي أي أول الرأي ، أي اتبعوك حين ابتدءوا ينظرون ولو أمعنوا النظر والفكر لم يتبعوك (٤) .

٦ . كان الكبر وحب الوجاهة الاجتماعية دافعاً لتكذيب الرسل ومعاندتهم : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ (٥) .

٧ . الداعي لا يبتغي أجراً دنيوياً عاجلاً نظير دعوته ، ويحذر المنزلقات والإغراءات المالية بشتى صورها وأشكالها ؛ لذا فإن نوحاً عليه السلام كان الخوف على قومه هو دافعه الاجتماعي لدعوتهم إلى الله ، ولم يكن دافعه جمع مال ولا تحصيل ملك : ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ (٦) ، ﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ (٧) .

٨ . الدعوة إلى الله تعالى ينبغي أن تكون ضمن الواقع المكاني والزماني الملائم ، وفي دعوة نبي الله نوح عليه السلام لقومه ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً ، وبمختلف الكيفيات والهيئات ، دليل على ذلك ، وهذه قاعدة مهمة في فقه الواقع الاجتماعي والدعوي لمن أراد استثمار الفرص واغتنامها : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾ (٨) .

٩ . تنويع الأساليب الدعوية بين الترغيب والترهيب ، تماشياً مع طبيعة النفس البشرية ، ومراعاة للواقع الاجتماعي السائد بأعرافه وأعراقه ومزاجاته ، قال عز وجل في الترهيب : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٩) ، وفي الترغيب قوله تعالى : ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾ (١٠) .

---

١ . سورة الشعراء ، آية ١١١ . ٢ . سورة هود ، آية ٢٧ .

٣ . هو صخر بن حرب بن أمية ، صحابي ، من سادات قريش في الجاهلية ، وهو والد معاوية رأس الدولة الأموية ، كان من رؤساء قريش في حرب الإسلام عند ظهوره : قاد قريشا وكنانة يوم أحد ويوم الخندق ، وأسلم يوم فتح مكة ، وشهد حنينا والطائف واليرموك ، ولما توفي ﷺ كان عامله على نجران ، وتوفي بالمدينة وقيل بالشام سنة ٣١ هـ . انظر أسد الغابة ٦ / ١٤٤ ، الوافي بالوفيات ١٦ / ١٦٤ ، شذرات الذهب ١ / ٣٧ ، الأعلام ٣ / ٢٠١ .

٤ . الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، ٥ / ٢٥ . ٥ . الفقه السياسي الإسلامي ، خالد فهداوي ، ص ١٣٦ ، والآية ٧١ من سورة يونس .

٦ . سورة يونس ، آية ٧٢ . ٧ . سورة هود ، آية ٢٩ .

٨ . سورة نوح ، الآيات ٥ – ١٠ . ٩ . سورة نوح ، الآيات ٢ – ٤ . ١٠ . سورة نوح ، الآيات ١٠ – ١٢ .

يقول الطبري في تفسير الآيات السابقة [١] : (قال يا قوم إني لكم نذير مبين) أي : أنذركم عذاب الله فاحذروه أن ينزل بكم على كفركم به ، مبين : يقول : قد أبنت لكم إنذاري إياكم .

(واتقوه) أي : واتقوا عقابه بالإيمان به ، والعمل بطاعته ، (وأطيعون) يقول : وانتهوا إلى ما آمركم به ، واقبلوا نصيحتي لكم .

(فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً) يقول : فقلت لهم : سلوا ربكم غفران ذنوبكم ، وتوبوا إليه من كفركم ، وعبادة ما سواه من الآلهة ووحدوه ، وأخلصوا له العبادة ، يغفر لكم ، إنه كان غفاراً لذنوب من أناب إليه من ذنوبه .

(يرسل السماء عليكم مدراراً) يقول : يسقيكم ربكم إن تبتم ووحدتموه وأخلصتم له العبادة الغيث ، فيرسل به السماء عليكم مدراراً متتابعاً .

وقوله (ويمددكم بأموال وبنين) يقول : ويعطكم مع ذلك ربكم أموالاً وبنين ، فيكثرها عندكم ويزيد فيما عندكم منها .

(ويجعل لكم جنات) يقول : يرزقكم بساتين ، (ويجعل لكم أنهاراً) تسقون منها جناتكم ومزارعكم ، وقال ذلك لهم نوح ؛ لأنهم كانوا فيما ذكر قوم يحبون الأموال والأولاد .

١٠ . أساس النجاة هو التقوى والاستقامة ، وليس الارتباط النسبي بالرسل أو الأنبياء ، فقد قال الله في ابن نوح العاصي : ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [٢] ، ثم قال : ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [٣] .

وفي زوجه عليه السلام، يقول جل شأنه : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [٤] .

١١ . أهل الله – تعالى – مع إيمانهم العميق وتوكلهم على الله تعالى ، إلا أنهم لا يغفلون الأخذ بالأسباب ، وهي سنة ثابتة ؛ إذ إن الفلك كانت السبب في نجاة نوح ومن معه : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ [٥] .

١٢ . سخرية أهل الباطل من أهل الحق علامة من علامات الصواب وسداد المسيرة ، فليست النفوس كلها مجبولة على الحوار والتفاهم : ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [٦] .

١٣ . وسيلة التشويش والخداع لدى قوى الباطل هو التعتيم الإعلامي وشن الحملات المغرضة على الحق وأهله وبرامجه ليعطى المجال للبديل : ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً﴾ [٧] .

---

١ . جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، الطبري ، ٢٨ / ٩١ وما بعدها .

٢ . سورة هود ، آية ٤٢ .

٣ . سورة هود ، آية ٤٦ .

٤ . سورة التحريم ، آية ١٠ .

٥ . انظر المستفاد من قصص الأنبياء ، د / عبد الكريم زيدان ، ١ / ١٤٧ ، والآية رقم ٧٣ من سورة يونس .

٦ . الفقه السياسي الإسلامي ، د / خالد الفهداوي ، ص ١٣٧ ، والآيتان ٣٧ ، ٣٨ ، من سورة هود .

٧ . انظر المصدر السابق ، ص ١٣٧ ، والآية ٧ من سورة نوح .

١٤ . الجدال سنة من سنن التدافع في البيئة الاجتماعية ، ونبي الله نوح كان جداله على مستوى الجدال والمناظرة التي لاقاها من قومه ، قال تعالى في جدال قومه : ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (١) ، وفي جداله معهم يقول المولى عز وجل : ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢) .

١٥ . التبرير الاجتماعي في الرفض بتعداد الشبهات :

هذه الشبهات التي أثاروها : كونه بشراً ، وأن أتباعه من الأرذلين ، وأنه رجل مجنون ، وما يرون لهم عليهم من فضل ، وأنه بدعوته يريد أن يتفضل عليهم ، قال ﷻ : ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٣) ، ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ (٤) .

١٦ . بعد أن تيقن نبي الله نوح عليه السلام من ألا جدوى من الإصلاح الاجتماعي الذي كان شعاره وديدنه خلال هذه القرون المديدة ، توجه إلى الله بالدعاء طالباً استئصال شوكة الذين كفروا : ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ (٥) ، أما الرسول -ﷺ- فقد كان واضحاً في إجابة ملك الجبال في هجرة الطائف ؛ حيث رفض إنزال العقوبة بالخصوم قائلاً : (إني أطمع أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً) (٦) ، وبذلك تمتاز الدعوة الإسلامية بأنها رسالة الأجيال ، فهي تحسن الأمل الأبعد ، وبعد النظر ، وطول النفس ، بينما اكتفت رسالة سيدنا نوح عليه السلام بمرحلية التأثير قياساً بالرسالة الإسلامية التي استوعبت الواقع الاجتماعي كله .

١٧ . ارتباط النبي والرسول بالله تعالى ، هو الذي يحسم المواجهة : ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ (٧) .

---

١ . سورة غافر ، آية ٥ .

٢ . سورة هود ، آية ٣٢ .

٣ . سورة هود ، آية ٢٧ .

٤ . سورة المؤمنون ، الآيتان ٢٤ ، ٢٥ .

٥ . سورة نوح ، آية ٢٦ .

٦ . أخرجه البخاري عن عائشة ، فتح البارئ ، كتاب بدء الخلق ، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى ، رقم ٣٢٣١ ، ٦ / ٣٨١ .

٧ . الفقه السياسي الإسلامي ، د / خالد فهداوي ، ص ١٣٧ ، والآيات ١٠ – ١٤ من سورة القمر .

فقـه الـواقــع العلمـي

تعريفـه :

هو فهم واستيعاب الثقافة العلمية ، وقراءة ما يتمخض عن الحقل العلمي من إنجازات وإسهامات ومعارف تراكمية ، ولسنا نعني بالواقع العلمي مدلوله العام ، إنما نعني به الواقع التطبيقي التجريبي – البرجماتي – الذي يقوم على الملاحظة والتجربة ويخضع للقياس والاختبار مثل : الواقع الطبي ، والفيزيائي ، والجيولوجي ، والهندسي ، والفلكي ، والبيولوجي ، والتكنولوجي – التقني – ،أي الواقع الذي تشرحه وتوضحه لنا العلوم التطبيقية والتكنولوجيا المعاصرة .

وليس المراد بفقه الواقع العلمي الاستظهار وحشو الذاكرة بالنظريات والترف العلمي ، ولكنه الفهم والهضم والتمثل الواعي لما عليه هذا الواقع من تطور وإبداع وابتكار .

آلياتـه وأدواتـه : كما بيّنا سابقاً أن العلوم الإنسانية هي علوم كاشفة للواقع الاجتماعي ، نقول إن العلوم التطبيقية من نبات وحيوان وفلك وكيمياء وتشريح وهندسة وطب وصيدلة وجبر وغيرها،هي المفتاح لولوج الواقع العلمي وفهمه وإدراكه .

والطريق في واقعنا المعاصر إلى النهل من هذه المعارف هو إتقان قيادة الكمبيوتر – الحاسوب – والاستفادة من الإنترنت ، واكتساب اللغات الحية وبالذات الانكليزية ؛ لأنها لغة العصر الحاضر .

ومما يجدر ذكره في هذا المقام ما روي عن زيد بن ثابت أنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : (تحسن السريانية إنها تأتيني كتب ؟ قال : قلت لا ، قال : فتعلمها ، فتعلمتها في سبعة عشر يوماً) [١] .

وفي رواية أخرى ، عن زيد بن ثابت قال : أمرني رسول الله – ﷺ – أن أتعلم له كلمات من كتاب يهود ، قال : (إني والله ما آمن يهود على كتابي) ، قال : فما مر بي نصف شهر حتى تعلمته له ، قال : فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم ، وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم [٢] . وقال ابن كثير : (وقد كان زيد بن ثابت من أشد الناس ذكاءً ، تعلم لسان يهود وكتابهم في خمسة عشر يوماً ، وقال أبو الحسن بن البراء تعلم الفارسية من رسول كسرى في ثمانية عشر يوماً وتعلم الحبشية والرومية والقبطية من خدّام رسول الله ﷺ) [٣] .

فهذه الروايات تدل على اهتمام الرسول ﷺ بالترجمة ، وحثه الصحابة – رضوان الله عليهم – على امتلاك الوسائل والأدوات التي تعين على فهم الواقع العلمي ، والكوني بشكل عام . (حيث كانت تصله الكتب والرسائل من ملوك العالم وفيهم البيزنطي والرومي والفارسي والحبشي والبربري وغيرهم ، فكيف يمكن تفسير هذه الكتب وترجمتها إلى العربية والرد عليها ، إذا لم يكن هناك مترجمون ، ورسل وسفراء يجيدون لغات الأقوام المفدون إليهم) [٤] .

ولقد تعلم الإمام أحمد ابن حنبل– رحمه الله – الفارسية وأتقنها ؛ لأنها كانت لغة حضارة ومعرفة في عصره ؛ ولكي يستعين بها على فقه واقعه ، وتوسيع مداركه ، ومعايشة الأحداث والمستجدات من حوله [٥] . وشيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – كان على معرفة باللغة العبرية والتركية والفارسية [٦] .

١ . أخرجه أحمد في مسنده ، مسند الأنصار ، حديث رقم ٢١٤٧٩ ، ١٦ / ٣٠ ، وقال المحقق : إسناده صحيح .

٢ . أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الاستئذان ، باب ما جاء في تعليم السريانية ، رقم ٢٧١٥ ، ٤ / ٤٨٨ ، وقال الترمذي : وهذاحديث حسن صحيح .

٣ . انظر البداية والنهاية ، ابن كثير ، ٨ / ٢٠ . ٤ . انظر التأصيل الشرعي لفقه الواقع ، إبراهيم الهسنياني ، ص ١٠٣ .

٥ . انظر أحمد ابن حنبل حياته وعصره ، محمد أبو زهرة ص ٣١ . وتاريخ الإسلام ، الذهبي ، حوادث ووفيات ٢٤١ – ٢٥٠ هـ ، ص ٩٢ .

٦ . السيرة الذاتية لشيخ الإسلام ابن تيمية ، د / يوسف أحمد البدوي ، ص ٣٠١ .

وفي ذلك يقول الشاعر : بِقَدرِ لُغاتِ المَرءِ يَكثُرُ نَفعُهُ * * فَتِلكَ لَهُ عِندَ المُلِمّاتِ أَعوانُ

تَهافَت عَلى حِفظِ اللُغاتِ مُجاهِداً * * فَكُلُّ لِسانٍ في الحَقيقَةِ إِنسانُ [١] .

ولا نريد لمن يجب في حقه العناية بفقه الواقع العلمي من العلماء والمفكرين والأدباء والدعاة ، أن يتعمق في دراسة هذه العلوم ، فإن هذا غير مقدور عليه ، والعمر لا يتسع ،والطاقة لا تحتمل ، والمعارف لا تنتهي ، ولا تقف عند حد.

إنما نريد أن يطالع بعض الكتب الميسرة منها ، مما يعد لغير المتخصصين وكذلك المقالات العلمية في المجلات والانترنت مما ينشر ليقرأه جمهور المثقفين والمفروض أنه واحد منهم ، وذلك بعد أن يكون قد درس الأصول والقواعد المهمة من هذه العلوم في المرحلتين الأساس والثانوية ، دراسة تمكنه من متابعة الفكر العلمي – ولو بقدر – فيما بعد [٢] .

أهمية فقه الواقع العلمي :

فقه الواقع العلمي مهم في عصرنا للمثقفين عامة ، وللدعاة خاصة ، وذلك لأسباب [٣] :

١ . أنه مهم لفهم الحياة المعاصرة ، وقد أصبح العلم شريانها والمحرك لجميع أمورها . فما من بيت إلا دخلته آثار العلم الحديث من كهرباء وأجهزة وأدوات ، حتى المسجد نفسه نجد فيه ساعة جداريه ، ومكبرات للصوت ، وقد نجد فيه أجهزة للتسجيل ، وكلها من إنتاج العلم الحديث ، ولا يجمل بالداعية أن يعيش في دنيا يسيرها العلم ويدير رحاها ، ولا يدرك الأوليات والأساسيات لهذا العلم .

٢ . أن بعض ما يعزى إلى العلم وتحتويه كتبه ومقرراته ، يتخذ وسيلة للتشكيك في الدين ، مثل نظرية (النشوء والارتقاء) في الكائنات الحية ، التي تعرف بنظرية (التطور) لداروين وغيره . فلابد من معرفة شيء عن مثل هذه النظرية وقيمتها من الناحية العلمية ، حتى يتمكن للداعية من اتخاذ موقف محدد منها ، بناء على دراسة صحيحة لا على خيالات أو إشاعات ، والحكم على للشيء أو عليه فرع عن تصوره .

٣ . أن من الحقائق العلمية ما يمكّن الداعية استخدامه في تأييد الدين وتوضيح مفاهيمه ونصرة قضاياه ، والذب عنه ، بدفع شبهات خصومه ومفتريات أعدائه . وذلك يبدو في عدة صور ، منها :

أ . تقريب بعض المعتقدات والحقائق الدينية من أفهام أهل العصر وتأييدها بمنطق العلم التجريبي نفسه ، حتى أن أولى قضايا الدين وكبراها ، وهي : إثبات وجود الله تعالى ، يستطيع هذا العلم أن يقوم فيها بدور بناء في مواجهة الماديين والملاحدة ، فيقيم الأدلة ويدحض الشبهات ، بواسطة فروعة العديدة من رياضيات وفلك وفيزياء وكيمياء وأحياء وطب وغيرها كما رأينا ذلك في مثل كتاب أركريسي موريسون (الإنسان لا يقوم وحده) المترجم إلى العربية تحت عنوان العلم يدعو إلى الإيمان .

ب . ويستطيع العلم بمكتشفاته ومقرراته أن يؤيد كثيراً من الأحكام الشرعية ببيان ما اشتملت عليه من جلب المصالح للناس ، ودرء المفاسد عنهم ، وبذلك يزداد الذين آمنوا إيماناً ، ويضعف جانب المرتابين والمشككين في كمال الشريعة الإسلامية ، وصلاحيتها لكل زمان ومكان .

يستطيع علم الطب أن يعطينا صورة واضحة لما تجنيه الخمر على شاربيها من أضرار على الفرد والأسرة والمجتمع ، ومثل ذلك المخدرات والتدخين ، وكذلك ما يسببه انتشار الزنا من أمراض تناسلية وآثار سيئة على الأخلاق والقيم في كل أطراف المجتمع ،مما يؤكد معنى قوله تعالى:﴿**وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً**﴾ [٤].

١ . ديوان صفي الدين الحلي ، ص ٦٦٩ .
٢ . انظر ثقافة الداعية ، القرضاوي ص ١٣١ .
٣ . انظر المصدر السابق ، ص ١٣١ وما بعدها .
٤ . سورة الإسراء ، آية ٣٢ .

وتستطيع علوم الأحياء ووظائف الأعضاء والطب وغيرها ، أن تبين لنا حقيقة الفوارق الفطرية بين الرجل والمرأة وأن التفاوت لم يكن عبثاً ، وأن تجاهله في التشريع والتربية والتعليم والتوجيه ، لا يعقب إلا أسوأ النتائج ، وأن من الخير أن يكون لكل منهما عمله اللائق به ، وثقافته الملائمة لوظيفته في الحياة وبهذا يتلاقى منطق العلم مع منطق الدين الذي هو منطق الفطرة السليمة .

ج . تعميق مدلولات بعض النصوص الشرعية ، وتوسيع نطاق مفهومها ، وزيادة توضيحه بما كشف عنه العلم من مقررات ، وما توصل إليه من نتائج .

فإذا قال القرآن عن النحل : ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ (١) يستطيع عالم الأحياء أو الكيمياء أو الطب أو الأغذية ونحوها أن يحدثنا بسعة عن عسل النحل وألوانه وما فيه من شفاء ودواء .

وإذا قال الله تعالى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٢) أو ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ (٣) أمكن للعلم هنا بشتى فروعه أن يفيض في بيان دقة التقدير في كل ما خلق في الكون من المجرة إلى الذرة ، فحجم الكرة الأرضية وبعدها عن الشمس بمسافة محددة كذلك ، واشتمالها على كمية المياه في بحارها ومحيطاتها بهذا المقدار ، ووجود الغازات فيها بنسب ومقادير معلومة ، وغيرها ، كل ذلك يدل على روعة التقدير الإلهي وعظمته وشموله .

د . ومجال آخر يدخل في العلم ويصول ويجول ، وهو بيان سبق القرآن بكثير من الحقائق التي كشف عنها العلم الحديث ، وهو ما يسمى الإعجاز العلمي في القرآن ونعني به ما يتعلق بإشارة القرآن في كثير من آياته إلى حقائق علمية كشف عنها العلم الحديث ووافقت أحدث ما انتهى إليه الكشف العلمي في هذا العصر . مع أنها كانت مجهولة في عصر النبوة ، وما بعده لقرون عديدة .

ومن ضوابطه أن يأخذ بتحفظ واعتدال ، بحيث لا يتعسف في التأويل ، ولا تخرج الألفاظ والتراكيب عن مدلولاتها اللغوية ، ولا تحمل النصوص على فروض ونظريات لم تصبح حقائق علمية .

ونستطيع أن نلمس الإعجاز العلمي في القرآن في مواضيع ، مثل : أن مادة الخلق (دخان) وهو ما يسمى السديم ، وأن السموات والأرض كانتا رتقاً أي مادة واحدة متصلة ففتقهما الله ، وأن الله جعل من الماء كل شيء حي ، وأن الأحياء النباتية والحيوانية بل حتى الجمادات مخلوقة من ذكر وأنثى ، وأن الرياح تلقح السحاب ،وأن تكوير الليل على النهار يدل على كروية الأرض ، وأن التنفس يقل كلما صعد الإنسان إلى طبقات الجو العليا ... الخ .

عناية القرآن الكريم بالواقع العلمي :

ولعل أوضح آية في ذلك قوله تعالى في سورة فاطر : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ وفي ذلك إشارة إلى العلوم الفلكية وصلة الأرض بالسماء ، ثم قال : ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ﴾ إشارة إلى علم النبات وما يتعلق به ، ثم قال : ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ (٤) وفي ذلك إشارة إلى علم الجيولوجيا أو علم الأرض وما يتصل به ، ثم قال سبحانه : ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ﴾ وفيه إشارة إلى

---

١ . سورة النحل ، آية ٦٩ . ٢ . سورة القمر ، آية ٤٩ .

٣ . سورة الفرقان ، آية ٢ .

٤ . سورة فاطر ، آية ٢٧ ، وعن الجدد قال ابن عباس : هي الطرائق ، وعن الغرابيب قال ابن جرير : والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد قالوا أسودَ غربيب ، انظر تفسير ابن كثير ، ٥ / ٢٨٣ .

علم البيولوجيا والحيوان بأقسامه من إنسان وحيوان وحشرات ، ثم يختم الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (١) ، والأقرب لتركيب الآية أن المراد بالعلماء هنا هم العلماء بالكون وآياته ودقائقه وأسراره ، لا علماء الدين فحسب ، كما هو المدلول العرفي للكلمة عند جمهور المسلمين ، وفي مثل هذا جاء قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ (٢) ، فالعالمون هم العلماء بالكون والإنسان (٣) .

حكى السيوطي عن ابن مسعود قال : إن الله أنزل في هذا الكتاب تبياناً لكل شيء ، ولكن علمنا يقصر عما بين لنا في القرآن ، ثم تلا : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾(٤) ،أي ليس في أصول العلوم إلا وفي القرآن ما يدل عليه .

وعن عبد الله بن مسعود أيضاً قال : من أراد العلم فعليه بالقرآن ، فإن فيه خير الأولين والآخرين (٥) .

فإن شئت أن ترى الواقع العلمي في القرآن فاقرأ في الخياطة قوله تعالى : ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ (٦) ، وفي الحدادة : ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ (٧) ، وفي البناء : ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾ (٨) ، وفي النجارة : ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (٩) ، وفي الغزل : ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا ﴾ (١٠) ، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ (١١) ، وفي النسج : ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ﴾ (١٢) ، وفي الفلاحة : ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ (١٣) ، وفي الصناعة : ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً ﴾ (١٤) ، وفي الملاحة : ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾ (١٥) ، وفي الكتابة : ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ (١٦) ، وفي الخبز : ﴿وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً ﴾ (١٧) ، وفي الطبخ : ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ (١٨) أي مشوي ،وفي النحت :﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ ﴾ (١٩) .

وفي كل يوم تضاف علوم جديدة ، وتخترع مبتكرات حديثة ، ليتحقق قوله تعالى في الكشف عن خفايا الكون ،وخبايا النفوس:﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٢٠).

يقول صاحب الظلال في تفسير الآية : إنه وعد الله – بني الإنسان – أن يطلعهم على شيء من خفايا هذا الكون ، ومن خفايا أنفسهم على السواء . وعدهم أن يريهم آياته في الأفاق وفي أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق . هذا الدين . وهذا الكتاب . وهذا المنهج . وهذا القول الذي يقوله لهم . ومن أصدق من الله حديثاً ؟

ولقد صدقهم الله وعده ؛ فكشف لهم عن آياته في الأفاق خلال القرون الماضية التي تلت هذا الوعد ؛ وكشف لهم عن آياته في أنفسهم . وما يزال يكشف لهم في كل يوم عن جديد (٢١) .

---

١ . سورة فاطر ، آية ٢٨ . ٢ . سورة الروم ، آية ٢٢ .
٣ . دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي ، القرضاوي ، ص ١٣٥ . ٤ .الدر المنثور ، السيوطي، ٩ / ٩٩ ، والآية ٨٩ من سورة النحل .
٥ . شعب الإيمان ، البيهقي ، باب تعظيم القرآن ، فصل تعاليم القرآن ، رقم ١٩٦٠ ، ٣٣٢/٢ . ٦ . سورة الأعراف ، آية ٢٢ .
٧ . سورة سبأ ، آية ١٠ . ٨ . سورة الشمس ، آية ٥ .
٩ . سورة هود ، آية ٣٧ . ١٠ . سورة النحل ، آية ٩٢ .
١١ . سورة المدثر ، آية ٤ . ١٢ . سورة العنكبوت ، آية ٤١ .
١٣ . سورة الواقعة ، آية ٦٣ . ١٤ . سورة الأعراف ، آية ١٤٨ . ١٥ . سورة الكهف ، آية ٧٩ .
١٦ . سورة العلق ، آية ٤ . ١٧ . سورة يوسف ، آية ٣٦ . ١٨ . سورة هود ، آية ٦٩ .
١٩ . سورة الشعراء ، آية ١٤٩ . ٢٠ . سورة فصلت ، آية ٥٣ . ٢١ . انظر في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٥ / ٣١٣٠ .

هاتان القصتان تحملان طابعاً علمياً بجانب هدي النبوة ، ووحي الرسالة : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١) ، وقال تعالى مخبراً عن نبيه داود : ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ (٢) أي : أعطيناه ملكاً عظيماً وحكماً نافذاً (٣) ، ثم كانت الخلافة والوراثة في ابنه سليمان : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ (٤) أي : ورثه في النبوة والملك (٥) ، وقال جل شأنه : ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٦) أواب أي : كثير الرجوع إلى الله بالتوبة والإنابة (٧) ، وقال سليمان : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (٨) يعني : أنه عليه السلام كان يعرف ما تتخاطب به الطيور بلغتها ، ويعبر للناس عن مقاصدها وإرادتها وكذلك ما عداها من الحيوانات وسائر صنوف المخلوقات ، والدليل على هذا قوله بعد هذا من الآيات : (وأوتينا من كل شيء) أي : من كل ما يحتاج الملك إليه من العدد والآلات والجنود والجيوش والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش والشياطين السارحات والعلوم والفهوم والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات (٩) ، وامتاز سليمان عن أبيه بعمق الفهم وقوة الإدراك : ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ (١٠) ، وفي تفسير هذه الآية ذكر شريح القاضي وغير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كان لهم كرم فنفشت فيه غنم قوم آخرين ، أي : رعته بالليل فأكلت شجره بالكلية ، فتحاكموا إلى داود عليه السلام ، فحكم لأصحاب الكرم بقيمته ، فلما خرجوا على سليمان قال : بم حكم لكم نبي الله ؟ فقالوا : بكذا وكذا ، فقال : أما لو كنت أنا لما حكمت إلا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم فيستغلونها نتاجاً ودراً حتى يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ويردوه إلى ما كان عليه ، ثم يتسلموا غنمهم ، فبلغ داود عليه السلام ذلك فحكم به (١١) ، وقريب من هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله – ﷺ – : (بينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما فتنازعتا في الآخر ، فقالت الكبرى : إنما ذهب بابنك ، وقالت الصغرى : بل إنما ذهب بابنك ، فتحاكمتا إلى داود فحكم به للكبرى ، فخرجتا على سليمان فقال : ائتوني بالسكين أشقه نصفين لكل واحدة منكما نصفه ، فقالت الصغرى : يرحمك الله هو ابنها ، فقضى به لها) (١٢) .

ولعل كلا من الحكمين كان سائغاً في شريعتهم ، ولكن ما قاله سليمان أرجح ، ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه إياه ومدح بعد ذلك أباه فقال : ﴿وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (١٣) .

---

١ . سورة النمل ، آية ١٥ . ٢ . سورة ص ، آية ٢٠ .

٣ . قصص الأنبياء ، ابن كثير ، ص ٣٧٨ . والحكمة هي الفهم والعقل والفطنة ، وفصل الخطاب : هو الفصل في الكلام وفي الحُكم ، انظر تفسير ابن كثير ، ٥ / ٣٧٤ . ٤ . سورة النمل ، آية ١٦ .

٥ . قصص الأنبياء ، ابن كثير ، ص ٣٨٠ . ٦ . سورة ص ، آية ٣٠ .

٧ . محاسن التأويل ، القاسمي ، ٨ / ٢٥٦ . ٨ . سورة النمل ، آية ١٦ .

٩ . قصص الأنبياء ، ابن كثير ، ص ٣٨٠ . ١٠ . سورة الأنبياء ، الآيتان ٧٨ ، ٧٩ .

١١ . قصص الأنبياء ، ابن كثير ، ص ٣٩١ . ١٢ . أخرجه البخاري عن أبي اليمان عن شعيب ، ٦ / ٥٦٣ ، وتفسير ابن كثير ٤ / ٣٧٧ .

١٣ . قصص الأنبياء ، ابن كثير ، ص ٣٩١ ، والآيتان ٧٩ ، ٨٠ من سورة الأنبياء .

ويمكن تحديد فقه الواقع العلمي في القرآن الكريم لقصتي داود وسليمان – عليهما السلام – من خلال النقاط الآتية :

١ . **دراسة عالم الحيوانات ، وتتبع سلوكها ، ويبدو** في تسبيح الطير وترجيعه مع داود : ﴿**وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ**﴾ (١)، ﴿**يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ** ﴾ (٢) ، ﴿**وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ** ﴾ (٣) ، وفي العلم بمنطق الطير ولغته : ﴿**وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ**﴾ (٤) ، ﴿**وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ** ﴾ (٥) ، وفي حكمهما في الغنم : ﴿**وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ**﴾ (٦) ، ﴿**إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ** ﴾ (٧) ، وفي الإحاطة بواقع مملكة النمل ودقائق أسرارها وعجائب نظامها : ﴿**حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا** ﴾ (٨) ، وفي العناية بالخيل : ﴿**إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ**﴾ (٩) ، وفي معرفة الحشرات وحركاتها : ﴿**فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ** ﴾ (١٠) .

٢ . **هندسة البنيان وفن العمارة** ، وهي من الملك العظيم الذي وهبه الله لنبيه سليمان – عليه السلام – : وتبدو في تسخير الجن للعمل والبناء : ﴿**وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ** ﴾(١١) ، ﴿**وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ** ﴾ (١٢) ، ﴿**وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ** ﴾ (١٣) أي : أن منهم من قد سخره في البناء ، ومنهم من يأمره بالغوص في الماء لاستخراج ما هنالك من الجواهر واللآلئ وغير ذلك مما لا يوجد إلا هنالك ، بالاضافة إلى أعمال أخرى أجملت في قوله : (ويعملون عملا دون ذلك) ، وقوله (وآخرين مقرنين في الأصفاد) أي : قد عصوا فقيدوا مقرنين اثنين اثنين في الأصفاد وهي القيود (١٤) ، ويبدو فن العمارة كذلك في قوله تعالى : ﴿**يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ** ﴾ (١٥) أي : يعملون له محاريب للعبادة وأماكن مرتفعة وحسنة ، وصور في الجدران وكان هذا سائغاً في شريعتهم وملتهم ، وأحواض يجتمع فيها الماء ، وقدور ثابتات لا تتحرك من أماكنها(١٦)،

---

١ . سورة الأنبياء ، آية ٧٩ .
٢ . سورة سبأ ، آية ١٠ .
٣ . سورة ص ، آية ١٩ .
٤ . سورة النمل ، آية ١٦ .
٥ . سورة النمل ، الآيات ٢٠ – ٢٤ .
٦ . سورة الأنبياء ، آية ٧٨ .
٧ . سورة ص ، آية ٢٣ .
٨ . سورة النمل ، الآيتان ١٨ ، ١٩ .
٩ . سورة ص ، الآيات ٣١ – ٣٣ .
١٠ . سورة سبأ ، آية ١٤ .
١١ . سورة سبأ ، آية ١٢ .
١٢ . سورة الأنبياء ، آية ٨٢ .
١٣ . سورة ص ، الآيتان ٣٧ ، ٣٨ .
١٤ . انظر قصص الأنبياء ، ابن كثير ، ص ٣٩٣ ، والتحرير والتنوير ، ابن عاشور ، ٨ / ١١٩.
١٥ . سورة سبأ ، آية ١٣ .

١٦ . انظر قصص الأنبياء ، ابن كثير ، ص ٣٩٣ .

ويبدو هذا الجمال والإبداع أيضاً في عرش ملكة سبأ : ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) وذلك ؛ لأن سرير مملكتها كان مزخرفاً بأنواع الجواهر واللآلئ والذهب والحلي الباهر (٢) ، والأجمل منه ما جعله سليمان في استقبالها : ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ ﴾ (٣) ، أي : قصر من البلور أقيمت أرضيته من الزجاج الأملس فوق الماء ، وظهر كأنه لجة وهي الماء الذي تتردد أمواجه .

٣ . **صناعة التعدين ، وآلات الحرب** ، وهي من التكنولوجيا التي كانت معاصرة لنبي الله داود عليه السلام ، وفيها يقول الله تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ (٤) ، قال القرطبي : هذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع ، فقد أخبر الله عن نبيه داود أنه كان يأكل من عمل يده ، وكان يصنع الدروع (٥) . واللبوس غلب إطلاقه على ما يلبس من لامة الحرب وهي الدرع ، وقال ابن عطية : اللبوس في اللغة السلاح ومنه الرمح ، والإحصان : الوقاية ، والبأس : الحرب (٦) ، وفي التعدين وصهر الحديد جاء قوله : ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ (٧) قال الحسن البصري : كان الله ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة (٨) ، سابغات : الدروع الواسعة ، وفي السرد قال الرازي : يحتمل أن يكون عمل الزرد ، والمعنى : يقدر الكسب بقدر الحاجة والأيام الأخرى تكون للعبادة (٩) ، وعن سيدنا سليمان قال البارئ جلت قدرته : ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ (١٠) وعن القطر قال ابن عباس وغير واحد : هو النحاس (١١) ، والإسالة هي التذويب والتليين .

مما سبق نلاحظ أن الله ذكر في حق داود اشتغاله بآلة الحرب كما قدّمنا في النقطة الثالثة ، وفي حق سليمان اشتغاله بحالة السلم وهي المساكن والمآكل كما قدّمنا في النقطة الثانية ؛ وذلك لأن سليمان كان ولد داود ، وداود قتل جالوت والملوك الجبابرة ، واستوى داود على الملك ، فكان سليمان كولد ملك يكون أبوه قد سوّى لابنه الملك وجمع له المال ، فهو ينفقه في الإعمار والإصلاح والبنيان ؛ ولأن سليمان في ظنهم لا يستطيع نزاله أحد حيث الغلبة له ، بتسخير الريح وقوة الجن (١٢) .

وقد كان لسليمان – عليه السلام – من أمور الملك واتساع الدولة وكثرة الجنود وتنوعها ما لم يكن لأحد من قبله ، ولا يعطيه الله أحداً بعده ، كما قال : ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (١٣) ، ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (١٤) .

---

١ . سورة النمل ، آية ٢٣ .
٢ . انظر قصص الأنبياء ، ابن كثير ، ص ٣٨٣ .
٣ . سورة النمل ، آية ٤٤ .
٤ . سورة الأنبياء ، آية ٨٠ .
٥ . انظر الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، ٦ / ٢٨٩ .
٦ . انظر التحرير والتنوير ، ابن عاشور ، ٨ / ١١٩ .
٧ . سورة سبأ ، الآيتان ١٠ ، ١١ .
٨ . قصص الأنبياء ، ابن كثير ، ص ٣٧٦ .
٩ . انظر مفاتيح الغيب ، الرازي ، ١٣ / ٢١٣ .
١٠ . سورة سبأ ، آية ١٢ .
١١ . قصص الأنبياء ، ابن كثير ، ص ٣٩٣ .
١٢ . انظر مفاتيح الغيب ، الرازي ، ١٣ / ٢١٥ .
١٣ . سورة النمل ، آية ١٦ .

١٤ . قصص الأنبياء ، ابن كثير ، ص ٣٩٥ ، والآية رقم ٣٥ من سورة ص .

٤ . الاهتمام بعلوم الأرض ، والبيئة الطبيعية :

في تسبيح الجبال مع داود عليه السلام نلمس الاهتمام بالجيولوجيا وما يختص الأرض : ﴿**وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ**﴾ (١) ،﴿**إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْأِشْرَاقِ**﴾ (٢) ، وفي تسخير الريح لسليمان عليه السلام إشارة إلى الاهتمام بالبيئة والمناخ الجغرافي : ﴿**وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ**﴾ (٣) ، ﴿**وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ**﴾ (٤) ، ﴿**فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ**﴾ (٥) .

المبحث السادس
فقــه واقـع الأعــداء

تعريفه :هو العلم العميق ، والدراسة الواعية ، والفهم المتبصر النافذ ، لما عليه حال الأعداء وحولياتهم ،وأوضاعهم وتوجهاتهم ، ودسائسهم ومؤامراتهم .

وبتعريف تفصيلي آخر يحدد طبيعته وميادينه ، هو : فهم وإدراك واقع الأعداء ، وكشف مكائد الخصوم وتدبيرهم ، وتطويق مخططاتهم ، ودحض شبهاتهم وافتراءاتهم ، التي تهدف إلى زعزعة أركان الأمة الإسلامية ، وإنهاء القيم الإنسانية ، وتهديد الأمن والسلام العالميين ، مستخدمين أخطر الأساليب المادية والمعنوية لتحقيق مصالحهم ومآربهم .

عناية القرآن الكريم بواقع الأعداء :

قال تعالى مخاطباً نبيه في وجوب فقه واقع الأعداء ، ومعرفة سبيل المجرمين : ﴿**وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ**﴾ (٦) .

يقول ابن قيم الجوزية معلقاً على هذه الآية : فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية ، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية ، فاستبانت لهم السبيلان ، كما يستبين للسالك الطريق الموصل إلى مقصوده ، فهؤلاء أعلم الخلق وأنفعهم للناس وأنصحهم لهم وهم الأدلاء الهداة ، وبذلك برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة ؛ فإنهم نشئوا في سبيل الضلال والكفر والشرك والسبل الموصلة إلى الهلاك وعرفوها مفصلة ، ثم جاء الرسول فأخرجهم من تلك الظلمات إلى سبيل الهدى وصراط الله المستقيم ... فعرفوا مقدار ما نالوه وظفروا به ، ومقدار ما كانوا فيه ، فإن الضد يظهر حسنه الضد ، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها ... وأما من جاء بعد الصحابة ، فمنهم من نشأ في الإسلام

---

١ . سورة الأنبياء ، آية ٧٩ .
٢ . سورة ص ، آية ١٨ .
٣ . سورة الأنبياء ، آية ٨١ .
٤ . سورة سبأ ، آية ١٢ .
٥ . سورة ص ، آية ٣٦ .
٦ . سورة الأنعام ، آية ٥٥ .

غير عالم تفصيل ضده ، فالتبس عليه بعض تفاصيل سبيل المؤمنين بسبيل المجرمين ، فإن اللبس إنما يقع إذا ضعف العلم بالسبيلين أو أحدهما ، كما قال عمر بن الخطاب : إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية ويعالج أمرها [١] ، وهذا من كمال علم عمر رضي الله عنه فإنه إذا لم يعرف الجاهلية وحكمها ، وهو كل ما خالف ما جاء به الرسول- صلى الله عليه وسلم - فإنه من الجاهلية ، فإن ذلك ينعكس بالسلب على فهم الإسلام وقوته [٢] .

وقال أيضاً : (وهذه حال المؤمن يكون فطناً حاذقاً أعرف الناس بالشر وأبعدهم منه ، ، فإذا تكلم في الشر وأسبابه ظننته من شر الناس ، فإذا خالطته وعرفت طويته رأيته من أبر الناس

قال القائل : عَرفتُ الشرَّ لاَ للشرِّ لكنْ لتوقِّيهِ ** ومن لاَ يعرِفِ الشرَّ منَ الناسِ يقعْ فِيهِ) [٣] .

وقال صاحب الظلال في تفسير الآية السابقة : إن هذا المنهج لا يعنى ببيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب ، إنما يعنى كذلك ببيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين أيضاً .. إن استبانة المجرمين ضرورية لاستبانة سبيل المؤمنين ، وذلك كالخط الفاصل يرسم عند مفرق الطريق !

ومن هنا يجب أن تبدأ كل حركة إسلامية بتحديد سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين . يجب أن تبدأ من تعريف سبيل المؤمنين وتعريف سبيل المجرمين ، ووضع العنوان المميز للمؤمنين ، والعنوان المميز للمجرمين ... في عالم الواقع لا في عالم النظريات . فيعرف أصحاب الدعوة الإسلامية والحركة الإسلامية من هم المؤمنين ممن حولهم ، ومن هم المجرمون . بعد تحديد سبيل المؤمنين ومنهجهم وعلامتهم ، وتحديد سبيل المجرمين ومنهجهم وعلامتهم .. بحيث لا يختلط السبيلان ولا يتشابه العنوانان ، ولا تلتبس الملامح والسمات والشارات بين المؤمنين والمجرمين ... [٤] .

لقد صنف القرآن أعداء الإسلام والمسلمين إلى مشركين ويهود ونصارى ومنافقين ، وكشف لنا كثيراً من طبائعهم وأفعالهم وتحركاتهم ومخططاتهم الرهيبة ضد هذه الدعوة ، وفيه دلالة واضحة وصريحة إلى حتمية الاهتمام بواقع هؤلاء الأعداء ، ورصد تحركاتهم ، ودراسة وتحليل الأحداث والتغيرات في دائرة الصراع معهم ، وهذا يصب في متطلبات العيش مع هموم أمتنا وتضميد جراحاتها لحظة بلحظة وساعة بساعة :

واقع المشركين :

وهو واقع يعج بركام من العقائد والتصورات الباطلة ، ومليء بالخرافات والهرطقات الفاسدة ، من ذلك زعمهم أنهم بعيدون من الشرك والعكس هو الصحيح : ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [٥] ، والدليل هو : عبادتهم مالا يضر ولاينفع : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [٦] ، (لذا ؛ شاعت بينهم عبادة الأصنام إما بوصفها تماثيل للملائكة وإما بذاتها معتقدين أن لها شفاعة عند الله وأنها تقربهم إليه : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [٧] ، وكانت الكعبة التي بنيت لعبادة الله الواحد تكتظ بالأصنام ، إذ كان فيها ثلاثمائة وستين صنماً عدا الأصنام الكبرى في جهات أخرى متفرقة ، ومنها ما ذكر في القرآن كاللات

---

١ . انظر الطبقات الكبرى ، ابن سعد ٦ / ١٢٩ .
٢ . انظر الفوائد ، ابن القيم ، ص ١١٢ .
٣ . مفتاح دار السعادة ، ابن القيم ، ص ٣٠٧ ، والبيت من ديوان أبي فراس الحمداني ، ص ٢٨٤ .
٤ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٢ / ١١٠٥ .
٥ . سورة الأنعام ، آية ٢٣ .
٦ . سورة يونس ، آية ١٨ .
٧ . سورة الزمر ، آية ٣ .

والعزى ومناة : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ (١) ، وجعلوا له الزوجة والولد وزعموا الملائكة بنات الله مع كراهيتهم للبنات : ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ﴾ (٢) ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٣) ، ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٤) ، وزعموا لله نصيباً من الحرث والأنعام وحرموا ما رزقهم الله افتراء عليه : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٥) ، ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (٦) ، ومن تناقضهم في مسألة الإلوهية ما قاله الله عنهم : ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (٧) ، وهو واقع يتسم بالانحرافات السلوكية ، كالتقليد الأعمى والجمود على القديم وإن كان الجديد أصوب وأهدى منه : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ (٨) ، ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٩) ، واتباعهم الظن : ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ (١٠) ، ونقضهم العهد : ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١١) ، وتلاعبهم بالشهور : ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (١٢) ، وتبرج نسائهم : ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ (١٣) ، واتخاذهم الطيرة والفأل درءاً للضر وطلباً للرزق : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ (١٤) ، وطوافهم حول البيت عراة وصلاتهم عنده بالتصفير والتصفيق : ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (١٥) ،

---

١ . انظر منهج القرآن في إصلاح المجتمع ، د / محمد السيد يوسف ، ص ١٤٤ ، والآيات ١٩ – ٢٣ من سورة النجم .
٢ . سورة الزخرف ، الآيتان ١٥ ، ١٦ .
٣ . سورة النحل ، الآيتان ٥٨ ، ٥٩ .
٤ . سورة الأنعام ، الآيتان ١٠٠ ، ١٠١ .
٥ . سورة الأنعام ، آية ١٣٦ .
٦ . سورة الأنعام ، الآيات ١٣٨ – ١٤٠ .
٧ . سورة العنكبوت ، آية ٦٥ .
٨ . سورة البقرة ، آية ١٧٠ .
٩ . سورة الزخرف ، آية ٢٢ .
١٠ . سورة النجم ، آية ٢٣ .
١١ . سورة التوبة ، آية ٧ .
١٢ . سورة التوبة ، آية ٣٧ .
١٣ . سورة الأحزاب ، آية ٣٣ .
١٤ . سورة المائدة ، آية ١٠٣ .
١٥ . سورة الأنفال ، آية ٣٥ .

وهو أيضاً واقع مشحون بالضغائن والأحقاد والحسد تجاه الفئة المؤمنة : ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (١) ، ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٢) ، ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ (٣) .

هذا هو الواقع الشائه الملوث للمشركين ، نجاسة في المعتقد والتصور ، ونجاسة في الفكر والتعقل ، ونجاسة في السلوك والتوجه ، ونجاسة في البدن والتنسك : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ (٤) ، بل كانت فكرة التوحيد الخالص وفكرة البعث أشد الأفكار غرابة عندهم : ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلاقٌ ﴾ (٥) ، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ ﴾ (٦) ، ولهذا وصفهم الله بشر البرية : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ (٧) .

ومن ثم كانت عناية الإسلام الكبرى موجهة إلى تحرير العقيدة وتحديد الصورة الصحيحة التي يستقر عليها الضمير البشري في حقيقة الإلوهية وعلاقتها بالخلق وعلاقة الخلق بها ، فتستقر عليها نظمهم وأوضاعهم وعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وآدابهم وأخلاقهم . فما يمكن أن تستقر هذه الأمور كلها إلا أن تستقر حقيقة الإلوهية وتتبين خصائصها واختصاصاتها (٨) .

واقع اليهود والنصارى :

تحدثت سور شتى عن أهل الكتاب ، وقرنت بين اليهود والنصارى في مواضع كثيرة ، خاصة سورة المائدة ؛ نظراً للتقارب النسَبي والزمني الحاصل بينهم ، ولتشابههم في الضلال والإفساد ، ولتواطئهم ضد فريق المسلمين ودينهم .

فالنصارى بالرغم من تصنيفهم في معسكر العدو ، إلا أنهم أقرب إلى المسلمين ؛ لأن منهم العباد والعلماء الذين يسْهل إقناعهم بالحق والانقياد له ، كما قال تعالى : ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٩) . قال ابن كثير في الآية : أي فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة وما ذاك إلا لما في قلوبهم من الرقة والرأفة ، كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ (١٠) .

---

١ . سورة البقرة ، آية ١٠٥ .
٢ . سورة آل عمران ، آية ١٨٦ .
٣ . سورة المائدة ، آية ٨٢ .
٤ . سورة التوبة ، آية ٢٨ .
٥ . سورة ص ، الآيات ٤ – ٧ .
٦ . انظر خصائص التصور الإسلامي ، سيد قطب ، ص ٣٨ ، والآيتان ٧ ، ٨ من سورة سبأ .
٧ . سورة البينة ، آية ٦ .
٨ . خصائص التصور الإسلامي ، سيد قطب ، ص ٣٩ .
٩ . سورة المائدة ، آية ٨٢ .
١٠ . انظر تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ٢ / ٥٩١ .

أما واقع اليهود فهو أشد وطأة وضراوة ، وأكثر إيلاماً ونكاية للإسلام والمسلمين ، والإنسانية في كل أقاليمها ، والمعمورة في كل أرجائها ، (ولقد تحدث القرآن الكريم كثيراً عن اليهود ، وشرح نفسياتهم الشريرة ، وصور انحطاط أخلاقهم ، وفساد ضمائرهم وخبث طويتهم ، وميلهم للشر ، ورغبتهم في سفك الدماء ، وحبهم للحرب ، وعدم إيمانهم بالكتب المنزلة وقتلهم الأنبياء بغير حق .

وليس مصادفة أن يفصل القرآن الكريم هذا كله ، فإن تاريخ أمة من الأمم لم يشهد ما شهده تاريخ بني إسرائيل من قسوة وجحود ، وتنكر للهداة ، فقد قتلوا وذبحوا ، ونشروا بالمناشير عددا من أنبيائهم ، وقد كفروا أشنع كفر . واعتدوا أشنع الاعتداء ، وعصوا أبشع معصية . وكان لهم في كل ميدان من هذه الميادين أفاعيل ليست مثلها أفاعيل) [١] .

لذلك قدم الله عداوتهم على كل أعداء الأمة الإسلامية ، فقال جل شأنه : ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا** ﴾ [٢] .

قال ابن كثير في هذه الآية : قدم الله تعالى اليهود في عداوتهم للمسلمين على غيرهم ؛ لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود ، ومباهتة للحق ،وغمط للناس ، وتنقص لحملة العلم ؛ ولهذا قتلوا كثيرا من الأنبياء ، حتى هموا بقتل رسول الله ﷺغير مرة وسموه ، وسحروه ،وألبوا عليه أشباههم من المشركين عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة [٣] .

ويقول صاحب الظلال : اليهود هم أول من واجه الدعوة الإسلامية بالعداء والكيد والحرب في المدينة وفي الجزيرة العربية كلها ، لقد كانوا حرباً على الجماعة المسلمة منذ اليوم الأول ؛ فهم الذين النفاق والمنافقين في المدينة وأمدوهم بوسائل الكيد للإسلام والمسلمين ، وهم الذين حرضوا المشركين وتآمروا معهم على الجماعة المسلمة ، وهم الذين تولوا حرب الإشاعات والدس والكيد في الصف المسلم ، كما تولوا بث الشبهات والشكوك والتحريفات حول العقيدة والقيادة ، وذلك كله قبل أن يسفروا بوجوههم القبيحة في الحرب المعلنة الصريحة ، فلم يكن بد من كشفهم للجماعة المسلمة لتعرف من هم أعداؤها وما طبيعتهم ، وما تاريخهم ، وما وسائلهم ، وما حقيقة المعركة التي تخوضها معهم ؟ [٤] .

ولقد كانت الحرب التي شنها ويشنها اليهود على الإسلام أطول أمداً وأعرض مجالاً من تلك التي شنها عليه غيرهم من أعداء الإسلام .فإذا سمعنا الله سبحانه يقول:﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا** ..﴾ [٥]ويقدم اليهود على الذين أشركوا ، ثم راجعنا هذا الواقع التاريخي فإننا ندرك طرفاً من حكمة الله تعالى في تقديم اليهود على الذين أشركوا . إنهم هذه الجبلة النكرة الشريرة التي ينغل الحقد من صدورها على الإسلام ويحذر الله نبيه وأهل دينه منها ، ولم يغلب هذه الجبلة النكدة الشريرة إلا الإسلام وأهله ، يوم كانوا أهله ولن يخلص العالم من هذه الجبلة النكدة إلا الإسلام يوم يفيء أهله إليه [٥] .

---

١ . انظر معركتنا مع اليهود ، سيد قطب ، ص ٢٧ .

٢ . سورة المائدة ، آية ٨٢ .

٣ . انظر تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ٢ / ٥٩١ .

٤ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٢ / ٨٦٨ .

٥ . المصدر السابق ، ٢ / ٩٦٢ .

ومن خلال آيات القرآن الكريم سوف نبين واقع اليهود والنصارى ، ونستعرض تأثيره على مسيرة الدعوة الأولى :

١ . حقدهم الدفين على الإسلام وأهله :

قال ﷻ : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) .

والحسد هو ذلك الانفعال الأسود الخسيس الذي فاضت به نفوس اليهود تجاه الإسلام والمسلمين وما زالت تفيض ، وهو الذي انبعثت منه دسائسهم وتدبيراتهم كلها وما تزال . وهو الذي يكشفه القرآن للمسلمين ليعرفوه ويعرفوا أنه السبب الكامن وراء كل جهود اليهود لزعزعة العقيدة في نفوسهم وردهم بعد ذلك إلى الكفر الذي كانوا فيه والذي أنقذهم الله منه بالإيمان وخصهم بهذا بأعظم الفضل وأجل النعمة التي تحسدهم عليها يهود (٢) .

وقال تعالى : ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ (٣) .

في ظلال هذه الآية يقول الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – (إنها العقدة الدائمة التي نرى مصداقها في كل زمان ومكان .. إنها هي العقيدة . هذه حقيقة المعركة التي يشنها اليهود والنصارى في كل أرض وفي كل وقت ضد الجماعة المسلمة .. إنها معركة العقيدة المشبوبة بين المعسكر الإسلامي وهذين المعسكرين اللذين قد يتخاصمان فيما بينهما ؛ وقد تتخاصم شيع الملة الواحدة فيما بينها كما قال تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ (٤) ، ولكنها تلتقي دائماً في المعركة ضد الإسلام والمسلمين !

إنها معركة العقيدة في صميمها وحقيقتها . ولكن المعسكرين العريقين في العداوة للإسلام والمسلمين يلونانها بألوان شتى ، ويرفعان عليها أعلاماً شتى ، في خبث ومكر وتورية . إنهم قد جربوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة . ومن ثم استدار الأعداء العريقون فغيروا أعلام المعركة .. لم يعلنونها حرباً باسم العقيدة – على حقيقتها – خوفاً من حماسة العقيدة وجيشانها . إنما أعلنوها باسم الأرض ، والاقتصاد ، والسياسة ، والمراكز العسكرية .. وما إليها . وألقوا في روع المخدوعين الغافلين منا أن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها ! ولا يجوز رفع رايتها ، وخوض المعركة باسمها . فهذه سمة المتخلفين المتعصبين ! ذلك كي يأمنوا جيشان العقيدة وحماستها .. بينما هم في قرارة نفوسهم : الصهيونية العالمية والصليبية العالمية – بإضافة الشيوعية العالمية – جميعاً يخوضون المعركة أولاً وقبل كل شيء لتحطيم هذه الصخرة العاتية التي نطحوها طويلاً ، فأدمتهم جميعاً ! ! ! .

" ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم " .. فذلك هو الثمن الوحيد الذي يرتضونه . وما سواه فمرفوض ومردود !

---

١ . سورة البقرة ، آية ١٠٩ .

٢ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ١ / ١٠٢ .

٣ . سورة البقرة ، آية ١٢٠ .

٤ . سورة البقرة ، آية ١١٣ .

ولكن الأمر الحازم ، والتوجيه الصادق : قل إن هدى الله هو الهدى ، على سبيل القصر والحصر . هدى الله هو الهدى . وما عداه ليس بهدى . فلا براح منه ، ولا فكاك عنه ، ولا محاولة فيه ، ولا ترضية على حسابه ، ولا مساومة في شيء

منه قليل أو كثير ، ومن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر . وحذار أن تميل بك الرغبة في هدايتهم وإيمانهم ، أو صداقتهم ومودتهم عن هذا الصراط المستقيم) (١) .

وقال تعالى أيضاً ، عن الحقد الموغل في صدورهم ، والدفين في نفوسهم ، تجاه الثلة المؤمنة : ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢) ، وقال ﷻ : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٣) .

٢ . ادعاؤهم بأنهم أفضل الناس ، وأقربهم إلى الله :

لذلك أنكر عليهم القرآن هذا الادعاء : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ (٤) ، ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٥) .

فهم يؤمنون بأفضليتهم لذلك صاروا أشد الناس عدواناً على غيرهم والاستهانة بهم .

إن المطلع على القرآن الكريم يلمح فيه إشارة إلى هذا التفضيل ولكن خلاف ما يفهمه بنو إسرائيل ، قال تعالى : ﴿يَا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٦) .

فالقرآن يقرر أن الله اختارهم لحمل رسالته في العالم القديم وفضلهم بهذا على الناس في زمانهم ، ذلك أنهم كانوا مسلمين وغيرهم كفار ولم يكن هذا التفضيل بسبب العنصر أو اللون أو غيره من دعاوى الجاهلية كما يدعي يهود اليوم بأنهم شعب الله المختار ، وإنما تكليفاً واختباراً ولهذا قرن الاختبار والاختيار في آيتين متتاليتين فقال تعالى : ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾ (٧) .

٣ . كفرهم بالله ، واتخاذهم أنداداً من دونه :

قال تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٨) ، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (٩) ، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (١٠) ، ومع هذا يحاولون تغطية كفرهم والتلبيس على المؤمنين : ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ (١١) ، ولهذا قال الله لهم على لسان نبيه : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (١٢) .

---

١ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ١ / ١٠٨ .
٢ . سورة آل عمران ، آية ٦٩ .
٣ . سورة المائدة ، آية ٥٩ .
٤ . سورة المائدة ، آية ١٨ .
٥ . سورة البقرة ، آية ١٣٥ .
٦ . سورة البقرة ، آية ٤٧ .
٧ . انظر التأصيل الشرعي لفقه الواقع،الهسنياني ص ٤٤ نقلاًعن اليهود فتنة التاريخ ،ماهر أحمد آغا ص ١٤١، والآيتان ٣٢، ٣٣من سورة الدخان.
٨ . سورة التوبة ، آية ٣٠ .
٩ . سورة المائدة ، آية ٧٢ .
١٠ . سورة المائدة ، آية ٧٣ .
١١ . سورة المائدة ، آية ٦١ .
١٢ . سورة آل عمران ، آية ٦٤ .

٤ . الفساد في الأرض ونشر الرذيلة وتحطيم الأخلاق هدفهم ومقصدهم :

قال تعالى في فسادهم وإفسادهم : ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١) ، ومنه أكلهم السحت ونشرهم الربا : ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ (٢) .

أما عن انحطاط الأخلاق ، ونشر الرذائل والمنكرات ، يقول جل شأنه : ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٣) .

والمنهج الإسلامي بعرضه لهذه الظاهرة في المجتمع الإسرائيلي في صورة الكراهة والتنديد ، يريد للجماعة المسلمة أن يكون لها كيان حي مجتمع صلب ، يدفع كل بادرة من بوادر العدوان والمعصية ، قبل أن تصبح ظاهرة عامة ، ويريد للمجتمع الإسلامي أن يكون صلباً في الحق وحساساً تجاه الاعتداء عليه ، ويريد للقائمين على الدين أن يؤدوا أمانتهم التي استحفظوا عليها ، فيقفوا في وجه الشر والفساد والطغيان والاعتداء ... ولا يخافوا لومة لائم سواء جاء هذا الشر من الحكام المتسلطين بالحكم ، أو الأغنياء المتسلطين بالمال ، أو الأشرار المتسلطين بالأذى ، أو الجماهير المتسلطة بالهوى ، فمنهج الله هو منهج الله ، والخارجون عليه علوا أو سفلوا سواء (٤) .

٥ . **النفاق ، والتضليل بكتمان الحق وإلباسه بالباطل :**

قال تعالى : ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٥) ، ويقول ﷻ : ﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٦) .

٦ . **الجبن والتخاذل ، والذلة والمسكنة حالهم :**

قال تعالى : ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ ﴾ (٧) ، وقال ﷻ : ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٨) .

---

١ . سورة المائدة ، آية ٦٤ .

٢ . سورة المائدة ، آية ٤٢ .

٣ . سورة المائدة ، الآيتان ٧٨ ، ٧٩ .

٤ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٢ / ٩٤٧ .

٥ . سورة البقرة ، آية ١٤ .

٦ . سورة البقرة ، آية ٤٢ .

٧ . سورة الحشر ، الآيتان ١٣ ، ١٤ .

٨ . سورة آل عمران ، آية ١١٢ .

٧ . **حرصهم على الحياة ، وتقديسهم المال :**

فاليهود خاصة هم أحرص الناس على مطلق الحياة ، وأكثر الأمم تشبثاً بالدنيا وملذاتها ، وهذا ما قاله الله عنهم : ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) ، ولهذا طغوا مادياً وقدسوا الدينار والدرهم والذهب والفضة ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢) ، ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

٨ . نقضهم المواثيق والعهود وتحريفهم الكلم عن مواضعه :

قال تعالى : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (٤) .

٩ . تكذيبهم الرسل ، وإتباعهم الأهواء :

ففي تكذيبهم الأنبياء ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ ﴾ (٥) ، ومن إتباعهم الأهواء والضلالات وصفهم الله بما لا يليق ولا يكون : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ (٦) ، ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (٧) .

١٠ . الغدر والخيانة والقتل من أبشع جرائمهم :

قال تعالى : ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ ﴾ (٨) ، وقال جل جلاله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٩) .

١١ . النوايا السيئة التي تجيش في صدورهم :

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١٠) .

والمعنى : لا تتخذوا أيها المؤمنون أخصاء وأصدقاء من غير دينكم تطلعونهم على أسراركم ؛ لأنهم يريدون إفسادكم

---

١ . سورة البقرة ، آية ٩٦ .
٢ . سورة التوبة ، آية ٣٤ .
٣ . سورة آل عمران ، آية ٧٥ .
٤ . سورة المائدة ، الآيتان ١٣ ، ١٤ .
٥ . سورة المائدة ، آية ٧٠ .
٦ . سورة المائدة ، آية ٦٤ .
٧ . سورة آل عمران ، آية ١٨١ .
٨ . سورة المائدة ، آية ٧٠ .
٩ . سورة آل عمران ، آية ٢١ .
١٠ . سورة آل عمران ، آية ١١٨ .

ويتمنون وقوعكم بالضرر .. قد ظهرت أمارات البغضاء من زلات ألسنتهم وما تضمره قلوبهم أعظم مما يبدو . قد أظهر الله لكم العلامات التي يتميز بها الصديق من العدو فاحذروهم إن كنتم من أصحاب العقول والإدراك الصحيح [١] .

هذا واقع يجب أن يتنبه له ، ويحترز منه أهل الإيمان ، والمقصود إعمال فقه الولاء والبراء ، الذي يقتضي عدم اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، والبراء من الأعداء المتربصين والكائدين ، ثم التمييز بين المحاربين والمسالمين ، فنحن كما قال عمر رضي الله عنه : نسالم من يسالمنا ونعادي من يعادينا . وتظل وشائج الأخوة الإنسانية والتعامل الراقي مع غيرنا خاصة أهل الكتاب[٢] منضبطاً بعدم الاعتداء أو شن الحروب وإذكائها وإشعال فتيلها ، يقول الله تعالى في هذا المعنى : ﴿ **لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [٣] .

وعن حرمة اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ، ولاءً يفضي إلى تفضيلهم على المسلمين ، ويؤثر على تماسك الصف الإسلامي ، يقول الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [٤] .

١٢ . **الصد عن سبيل الله ، والتخطيط المحكم لضرب الإسلام :**

قال تعالى : ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُون يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ** ﴾ [٥] .

وسبب نزول هذه الآيات هي القصة التي تقول : (مر شاس بن قيس وكان شيخاً قد عسا في الجاهلية ، أي : كبر وأسن – عظيم الكفر ، شديد الضغينة على المسلمين شديد الحسد لهم – على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم ، وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان منهم من العداوة في الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملأ بني قيلة " يقصد الأوس والخزرج " بهذه البلاد . والله مالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر فتىً شاباً معه من يهود فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم ، ثم ذكرهم بيوم بعاث وما كان قبله ، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ، وكان يوم بعاث يوم اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج . ففعل ، فتكلم القوم عند ذلك ، فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب – أوس بن قيظي أحد من بني حارثة من الأوس ، وجبار بن صخر أحد من بني سلمة من الخزرج ، فتقاولا ، ثم قال أحدهم لصاحبه : إذا شئتم والله رددناها الآن جذعة أي كما كانت وقت نشوبها – وغضب الفريقان . وقالوا : قد فعلنا ، السلاح السلاح موعدكم الظاهرة – والظاهرة الحرة وهي مكان معلوم بالمدينة

---

١ . اليهود في القرآن ، عفيف عبد الفتاح طبارة ، ص ٣٣ .

٢ . لأنهم أقرب إلينا من غيرهم حيث يجوز نكاح نسائهم ،وأكل ذبائحهم ، ومجادلتهم بالتي هي أحسن ،وبرهم والإحسان إليهم حال كونهم مسالمين.

٣ . سورة الممتحنة ، الآيتان ٨ ، ٩ .

٤ . سورة المائدة ، آية ٥١ .

٥ . سورة آل عمران ، الآيتان ٩٩ ، ١٠٠ .

المنورة – فخرجوا إليها وتحاور الناس ، فانضمت الأوس بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية ، وكذلك فعلت الخزرج ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال : " يا معشر المسلمين الله الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بينكم ، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً ؟ " فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم فألقوا السلاح من أيديهم ، وبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدوهم شاس بن قيس . وأنزل الله تعالى في شأن شاس وما صنع : ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ (١) .

وأنزل الله في أوس بن قيظي ، وجبار بن صخر ، ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ** ﴾ ، إلى قوله : ﴿**وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾) (٢) .

وفي ظلال هاتين الآيتين الكريمتين يقول الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – : يحذر الله تعالى الأمة الإسلامية هنا من إتباع غيرها– خاصة أهل الكتاب الذين لا يحرصون على شيء حرصهم على إضلال هذه الأمة عن عقيدتها – ويحذر هنا بصفة خاصة من طاعتهم والاستماع إليهم فيما يقولون ، فإن طاعتهم والتلقي عنهم ، واقتباس مناهجهم وأوضاعهم ، كل ذلك يحمل معنى الهزيمة الداخلية ، والتخلي عن دور القيادة الذي من أجله أنشئت الأمة الإسلامية ، كما يحمل معنى الشك في كفاية منهج الله لقيادة الحياة وتنظيمها والسير بها صعداً في طريق النماء والارتقاء (٣) .

واقع المنافقين :

المنافقون أو ما اصطلح عليه حديثاً العملاء والطابور الخامس والخونة ، معول كبير من معاول الهدم في جسم المجتمع المسلم ، سواء كانوا مسلمين ضعفاء نفوس ، أو غير مسلمين تظاهروا بالإسلام وأبطنوا الكفر ، فهم في كلتا الحالتين عينٌ على المسلمين لمصلحة العدو في استهداف المجتمع الإسلامي من الداخل وضربه في معقله .

لهذه الأهمية التي تستوجب بيان واقع المنافقين ، نجد أن القرآن استطرد في الحديث عنهم في بداية سورة البقرة :﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴾ (٤) ، وقال فيهم أيضاً : ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ** ﴾ (٥) ، وفي سورة التوبة كشف عن طبائعهم وسلوكهم ومقالاتهم حتى سميت السورة بالفاضحة ؛ لأنها تفضح أحوال المنافقين ، وفي سورة الأحزاب حديثاً عن نواياهم السيئة ومخططاتهم

---

١ . سورة آل عمران ، الآيتان ٩٨ ، ٩٩ .
٢ . سورة آل عمران ، الآيات ١٠٠ – ١٠٥ .
٣ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ١ / ٤٣٨ .
٤ . سورة البقرة ، الآيتان ٨ ، ٩ .
٥ . سورة البقرة ، الآيات ٢٠٤ – ٢٠٦ .

الشرسة ، كما أفردهم القرآن بسورة خاصة سميت بسورة المنافقين التي فضحت دعاواهم وأدوارهم الخبيثة ، وإثارتهم للفتن في داخل الصف الإسلامي .

وإتماماً للفائدة سنجلي أكثر واقع النفاق والمنافقين باقتباس آيات من الدستورالإلهي وتصنيفها وتحليلها،وذلك فيما يلي :

١ . **خوفهم وحذرهم من أن تكشف سريرتهم :**

قال تعالى : ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ (١) .

قال مجاهد : يقولون القول ثم يقولون عسى الله أن لا يفشي علينا سرنا هذا ، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٢) .

ومثلها قوله سبحانه : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣) ، والآيات السابقة تقرر أن الله فضح أمرهم وهتك سترهم ووصف أحوالهم خاصة في سورة التوبة ،وبين نواياهم الخسيسة ومعاذيرهم في التخلف عن الرسول في الجهاد في سبيل الله .

٢ . **تخلفهم عن الجهاد ، وتثبيطهم لهمم المجاهدين :**

في غزوة أحد يقول – ﷻ – عنهم : ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤) ، وفي غزوة بني النضير : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ﴾ (٥) .

ويقول تعالى : ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٦) .

لو كان الأمر أمر عرض من أعراض هذه الأرض وأمر سفر قصير الأمد مأمون العاقبة لاتبعوك ولكنها الشقة البعيدة التي تتقاصر دونها الهمم الساقطة والعزائم الضعيفة ، وأنه نموذج مكرور في البشرية ذلك الذي ترسمه تلك الكلمات الخالدة : ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ .

فكثيرون هم أولئك الذين يتهاوون في الطريق الصاعد إلى الآفاق الكريمة .. كثيرون أولئك الذين يجهدون لطول الطريق فيتخلفون عن الركب ويميلون إلى عرض تافه أو مطلب رخيص . كثيرون تعرفهم البشرية في كل زمان وفي كل مكان (٧) .

---

١ . سورة التوبة ، آية ٦٤ .
٢ . سورة المجادلة ، آية ٨ .
٣ . سورة محمد ، الآيتان ٢٩ ، ٣٠ .
٤ . سورة آل عمران ، آية ١٦٧ .
٥ . سورة الحشر ، آية ١١ .
٦ . سورة التوبة ، آية ٤٢ .
٧ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٣ / ١٦٦١ .

وفي هذه السمة أيضاً يقول جل شأنه : ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (١) .

يقول الشهيد الحي في ظلال هذه الآية : والقلوب الحائرة تبث الخور والضعف في الصفوف ، والنفوس الخائنة خطر على الجيوش . ولو خرج أولئك المنافقون ما زادوا المسلمين قوة بخروجهم بل لزادوهم اضطراباً وفوضى ولأسرعوا بينهم بالوقيعة والفتنة والتفرقة والتحذير (٢) .

وفي التخلف والتقاعس عن الجهاد أيضاً ، قال ﷻ : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ (٣) .

عن هذه الآية قال ابن عباس : لما أراد النبي ﷺ أن يخرج إلى تبوك قال للجد بن قيس : (يا جد بن قيس ما تقول في مجاهدة بني الأصفر ؟) فقال : يا رسول الله إني امرؤ صاحب نساء ، ومتى أرى نساء بني الأصفر افتتن ، فائذن لي في الجلوس ولا تفتني فأنزل الله هذه الآية (٤) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٥) .

إن هؤلاء لهم نموذج لضعف الهمة وطراوة الإرادة . وكثيرون هم الذين يشفقون من المتاعب وينفرون من الجهد ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز ، وهم يتساقطون إعياء خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات ، ولكن هذه الصفوف تظل في طريقها المملوء بالعقبات والأشواك لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة في الإنسان وأنه ألذ وأجمل من القعود والتخلف والراحة البليدة التي لا تليق بالرجال (٦) .

٣ . وجودهم في المجتمع ابتلاء للصالحين ، يتميز فيه المؤمن عن المنافق :

قال ﷻ : ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ (٧) ، وقال تعالى : ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ (٨) .

---

١ . سورة التوبة ، الآيات ٤٦ – ٤٨ .
٢ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٣ / ١٦٦١ .
٣ . سورة التوبة ، الآيتان ٤٩ ، ٥٠ .
٤ . أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، رقم ١٢٦٤٥ ،وقال الهيثمي : فيه يحي الحماني وهو ضعيف . مجمع الزوائد، رقم ١١٠٤٣ ،٧ /١٠٥ .
٥ . سورة التوبة ، الآيات ٨١ – ٨٥ .
٦ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٣ / ١٦٨٢ .
٧ . سورة العنكبوت ، آية ١١ .
٨ . سورة آل عمران ، آية ١٧٩ .

٤ . **التربص بالمؤمنين ورصد تحركاتهم :**

هذه الصفة ذكرت في الأعراب الموغلون في البداوة ، حيث كانوا يتربصون بالمؤمنين من أهل المدينة ، ويكيدون لهم ، على الرغم من ادعائهم الإيمان ، فهم أعداء من الدرجة الأولى ، وأشد كفراً ونفاقاً ، قال تعالى فيهم : ﴿**وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ** ﴾ (١) .

في هذه الآية يقرر سبحانه وتعالى أن هذه الفئة من الناس موجودة في أهل المدينة وفي الأعراب المحيطين بالمدينة ويطمئن رسول الله ﷺ والمؤمنين معه ، من كيد هذه الفئة الخفية الماكرة الماهرة ، كما ينذر هؤلاء الماكرين المهرة في النفاق بأنه سبحانه لن يدعهم فسيعذبهم عذاباً مضاعفاً في الدنيا والآخرة (٢) .

ويقول ﷻ : ﴿**الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ (٣) .

الأعراب هم سكان البادية والبراري ، وهم أشد كفراً ونفاقاً من أهل الحضر ؛ وذلك لأسباب كثيرة ، منها : أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية والأعمال والأحكام ، فهم أحرى ﴿**وَأَجْدَرُ أَلّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ** ﴾ من أصول الإيمان وأحكام الأوامر والنواهي ، بخلاف الحضر فإنهم أقرب لأن يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله فيحدث لهم – بسبب هذا العلم – تصورات حسنة وإرادات للخير الذي يعملون منه ما لا يكون في البادية ، وفيهم من لطافة الطبع والانقياد للداعي ما ليس في البادية ، ويجالسون أهل الإيمان ويخالطونهم أكثر من أهل البادية ؛ فلذلك كانوا أحرى للخير من أهل البادية ، وإن كان في البادية والحاضرة كفار ومنافقون ففي البادية أشد وأغلظ مما في الحاضرة ، ومن ذلك أن الأعراب أحرص على الأموال وأشح فيها ، فمنهم ﴿**مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ** ﴾ من الزكاة والنفقة في سبيل الله وغير ذلك ﴿**مَغْرَماً** ﴾ أي : يراها خسارة ونقصاً ، لا يحتسب فيها ولا يريد بها وجه الله ولا يكاد يؤديها إلا كرهاً ، ﴿**وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ** ﴾ أي : من عداوتهم للمؤمنين وبغضهم لهم أنهم يودون وينتظرون فيهم دوائر الدهر وفجائع الزمان ، وهذا سينعكس عليهم فتكون ﴿**عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ** ﴾ وأما المؤمنون فلهم الدائرة الحسنة على أعدائهم ولهم العقبى الحسنة ، ﴿**وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ يعلم نيات العباد وما صدرت عنه الأعمال من إخلاص وغيره (٤) .

٥ . **يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف :**

قال تعالى : ﴿**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ (٥) .

المنافقون والمنافقات من طينة واحدة وطبيعة واحدة ، المنافقون في كل زمان وفي كل مكان تختلف أفعالهم وأقوالهم ، ولكنها ترجع إلى طبع واحد وتنبع من معين واحد ، سوء الطوية ولؤم السريرة ، والغمز واللمز والدس ، والضعف

---

١ . سورة التوبة ، آية ١٠١ .
٢ . انظر في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٣ / ١٧٠٦ .
٣ . سورة التوبة ، الآيتان ٩٧ ، ٩٨ .
٤ . انظر تيسير الكريم الرحمن ، عبد الرحمن السعدي ، ص ٣٦٢ .
٥ . سورة التوبة ، آية ٦٧ .

عن المواجهة والجبن عن المصارحة . تلك سماتهم الأصيلة . أما سلوكهم فهو الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف والبخل بالمال إلا أن يبذلوه رئاء الناس . وهم حين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف يستخفون بهما ويفعلون ذلك دساً وهمساً وغمزاً ولمزاً لأنهم لا يجرؤون على الجهر إلا حين يأمنون (١) .

ومن أفعالهم المنكرة ما لاقاه الرسول ﷺ منهم من أذىً : ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢) .

فمن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام ، ويجدون منه أدباً رفيعاً في الاستماع إلى الناس بإقبال وسماحة ويعاملهم بظاهرهم حسب أصول شريعته ، ويهش لهم ويفسح لهم من صدره . فيسمون هذا الأدب العظيم بغير اسمه ، ويصفونه بغير حقيقته ، ويقولون عن النبي هو أذن أي سماع لكل قول ، يجوز عليه الكذب والخداع والبراعة ، ولا يفطن إلى غش القول وزوره . من حلف له صدقه ، ومن دس عليه قولاً قبله . يقولون هذا ، بعضهم لبعض تطميناً لأنفسهم أن يكشف النبي ﷺ حقيقة أمرهم أو يفطن إلى نفاقهم (٣) .

ولهذا أمره الله ألا يلتفت إلى هذا الأذى ، ويفوض أمره إليه وحده ، فقال : ﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ (٤) .

٦ . الضلال عن الطريق ، والصد عن السبيل :

قال تعالى : ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ (٥) .

إن ديدن المنافقين ومبتغاهم أن يسلك المسلمون ما اتبعوه من الغي والضلال والكفر حتى يتساوى الفريقان ، فهم أضلوا السبيل ويحاولوا بكل قوة أن يضلوا المؤمنين ، والآية نزلت في رأس النفاق الذي تولى كبره – ابن سلول – وجماعته الذين رجعوا القهقري يوم أحد بعدما خرجوا مع جيش المسلمين ؛ لذلك فإن الله خاطب المؤمنين بألا يهتموا بأمرهم لأن الله جنبهم غدرهم وأراحهم من خروجهم ، فأركسهم أي : ردهم ، إلى حظيرة الكفر مرة أخرى .

وقال ﷻ في صدهم عن الله ورسوله وكتابه وسبيله : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً﴾ (٦) ، ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٧) .

٧ . من سماتهم الكذب وإخلاف الوعد :

وصفهم الله بالكذب والتمويه في قوله : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (٨) .

---

١ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٣ / ١٦٧٣ .
٢ . سورة التوبة ، آية ٦١ .
٣ . انظر في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٣ / ١٦٧٠ .
٤ . سورة الأحزاب ، آية ٤٨ .
٥ . سورة النساء ، الآيتان ٨٨ ، ٨٩ .
٦ . سورة النساء ، آية ٦١ .
٧ . سورة المنافقون ، آية ٢ .
٨ . سورة المنافقون ، آية ١ .

وقال الله في إخلافهم للوعد ، ونقضهم للعهد : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (١) .

من المنافقين من عاهد الله لئن أنعم الله عليه ورزقه ليبذلن الصدقة وليصلحن العمل ، ولكن هذا العهد إنما كان وقت فقره وعسرته ، في وقت الرجاء والطمع . فلما إن استجاب الله له ورزقه من فضله نسي عهده وتنكر لوعده ، وأدرك الشح والبخل فقبض يده ، وتولى معرضاً عن الوفاء بما عاهد . فكان هذا النكث بالعهد مع الكذب على الله فيه سبباً في التمكين في قلبه والموت مع هذا النفاق ، ولقاء الله به (٢) .

٨ . **وسيلتهم الخداع والحيل في تغطية نفاقهم :**

في خداعهم يقول الله ﷻ : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (٣) .

وكثيراً ما يلجئون إلى الحلف لإخفاء نفاقهم وخداعهم : ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ (٤) .

إنهم جبناء ، والتعبير يرسم لهذا الجبن مشهداً ويجسمه في حركة ، حركة النفس والقلب ، يبرزها في حركة وجد وعيان فهم متطلعون أبداً إلى مخبأ يجتمعون به ويأمنون فيه ؛ حصناً أو مغارة أو نفقاً . إنهم مذعورون مطاردون . يطاردهم الفزع الداخلي والجبن الروحي (٥) .

وقال تعالى : ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾ (٦) .

يحلفون بالله لكم ليرضوكم على طريقة المنافقين في كل زمان الذين يقولون ما يقولون ، ويفعلون ما يفعلون من وراء الظهور ثم يجبنون عن المواجهة ، ويضعفون عن المصارحة فيتضاءلون ويتخاذلون للناس ليرضوهم (٧) .

٩ . **شن الحملات الإعلامية ، والدعايات المغرضة :**

منها قوله تعالى على لسانهم يوم تبوك : ﴿وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ (٨) ، والغرض من هذه الحملة الإعلامية تكثير السواد الأعظم من المتخلفين عن ركب الرسول ﷺ في ذلك اليوم ، ولكن الله كشف ما يبيتون ورد عليهم : ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ أي : إن حر الدنيا لا يساوي زفرة من زفرات جهنم التي هي معادهم جزاء نفاقهم لو كانوا يفهمون ويدركون .

---

١ . سورة التوبة ، الآيات ٧٥ – ٧٧ .
٢ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٣ / ١٦٧٩ .
٣ . سورة النساء ، آية ١٤٢ .
٤ . سورة التوبة ، الآيتان ٥٦ ، ٥٧ .
٥ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٣ / ١٦٦٦ .
٦ . سورة التوبة ، الآيتان ٦٢ ، ٦٣ .
٧ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٣ / ١٦٧١ .
٨ . سورة التوبة ، آية ٨١ .

ومنها ما قاله الله لهم يوم الأحزاب : ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (١) ، والمعوقين : هم المنافقون الذين يشنون الدعيات والحملات المغرضة التي تهدف إلى تثبيط إخوانهم عن رسول الله – ﷺ – .

١٠ . التخطيط لشق الصف ، وتفريق الجمع :

من الأمثلة على ذلك ، مسجد الضرار كمخطط للانقسام الداخلي وللتشتت في المواقف ، قال ﷻ : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢) .

قال ابن كثير في تفسيره : كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج كبير . فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقدموا عام أحد . فكان من أمر المسلمين ما كان وامتحنهم الله عز وجل وكانت العاقبة للمتقين . وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه . وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته فلما عرفوا كلامه ، قالوا : لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق يا عدو الله ، ونالوا منه وسبوه فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومي بعدي شر ، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه القرآن فأبى أن يسلم وتمرد ؛ وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ورأى الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومناه وأقام عنده وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك ، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية فعصمه الله من الصلاة فيه ، فقال : " إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله " ، فلما قفل راجعاً إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض اليوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار ، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم ، مسجد قباء الذي أسس في أول يوم على التقوى (٣) .

---

١ . سورة الأحزاب ، آية ١٨ .
٢ . سورة التوبة ، الآيات ١٠٧ – ١١٠ .
٣ . تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ٣ / ٤٤٠ .

قال أهل التفسير : فدعا النبي ﷺ مالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن ووحشياً قاتل حمزة ، فقال : " انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه " فخرجوا مسرعين ، وأخرج مالك بن الدخشم من منزله شعلة نار ، ونهضوا فأحرقوا المسجد وهدموه ، وكان الذين بنوه اثنى عشر رجلاً ... (١) .

قال القرطبي عند قوله تعالى : ﴿ **وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ : يعني أبا عامر الراهب ؛ وسمي بذلك لأنه كان يتعبد ويلتمس العلم فمات كافراً بدعوة النبي ﷺ ، فإنه كان قال للنبي ﷺ : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين ، فلما انهزمت هوازن خرج إلى الروم يستنصر ، وأرسل إلى المنافقين وقال : استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح ، وابنوا مسجداً فغني ذاهب إلى قيصر فآت بجند من الروم لأخرج محمداً من المدينة ، فبنوا مسجد الضرار ، وأبو عامر هذا هو والد حنظلة غسيل الملائكة (٢) ، والإرصاد : الانتظار (٣) .

تأمل هذا المشهد الرهيب والتخطيط الدقيق والمؤامرة العالمية على الإسلام في بداية دعوته ، وعلى قائده النبي ﷺ . فكم مسجد اليوم كمسجد ضرار تقام فيه الجمعة والجماعات ، وتقام فيه الخطط للقضاء على الصحوة الإسلامية أو التقليل منها أو عرقلة الدعوة الإسلامية أو زرع الخلاف بين المسلمين ، وشغلهم عن الأهداف والمقاصد العظمى لدينهم ومبدئهم (٤) .

(هذا المسجد – مسجد الضرار الذي اتخذ على عهد رسول الله ﷺ مكيدة للإسلام والمسلمين لا يراد به إلا الإضرار بالمسلمين ، وإلا الكفر بالله ، وإلا ستر المتآمرين على الجماعة المسلمة الكائدين لها في الظلام ، وإلا التعاون مع أعداء هذا الدين على الكيد له تحت ستار الدين .

هذا المسجد ما يزال يتخذ في صور شتى تلائم ارتقاء الوسائل الخبيثة التي يتخذها أعداء هذا الدين . تتخذ في صور نشاط ظاهره للإسلام وباطنه لسحق الإسلام أو تشويهه وتمويهه وتمييعه . وتتخذ في صور أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتتستر وراءها وهي ترمي هذا الدين . وتتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب إلى أن الإسلام بخير لا خوف عليه ولا قلق وتتخذ في صور شتى كثيرة .

ومن أجل مساجد الضرار الكثيرة هذه يتحتم كشفها وإنزال اللافتات الخادعة عنها وبيان حقيقتها للناس وما تخفيه وراءها .

ولنا أسوة في كشف مسجد الضرار على عهد رسول الله ﷺ بذلك البيان القوي الصريح) (٥) .

---

١ . الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، ٤ / ٥٧١ .

٢ . هو الصحابي الجليل حنظلة بن أبي عامر بن مالك الأنصاري المعروف بغسيل الملائكة ، كان أبوه في الجاهلية يعرف بالراهب واسمه عمرو ويقال عبد عمر ، وكان يذكر البعث ودين الحنيفية فلما بعث الرسول ﷺ عانده وحسده وخرج عن المدينة وشهد مع قريش وقعة أحد ثم رجع مع قريش إلى مكة ثم خرج إلى الروم فمات بها سنة تسع ويقال عشر ، وقد استشهد حنظلة يوم أحد ، قتله أبو سفيان بن حرب وقال : حنظلة بحنظلة ، يعني بابنه حنظلة المقتول ببدر ، وقد خرج حنظلة من بيته وهو جنب لما سمع النداء إلى الجهاد ، وحينما استشهد أخبر رسول الله ﷺ بأن الملائكة غسلته . انظر الإصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر العسقلاني ٢ / ١٣٧ ، صفة الصفوة ١ / ٣٠٩ ، أسد الغابة ٢ / ٨٥ .

٣ . انظر الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، ٤ / ٥٧٤ .

٤ . انظر التأصيل الشرعي لفقه الواقع ، الهسنياني ، ص ٣٤ .

٥ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٣ / ١٧١٠ .

١١ . **التشكيك بنشر الشائعات ، وتلمس الثغرات :**

من مظاهر هذا التشكيك ، ما كان من أمر المنافقين في الصدقات ، فبادئ الأمر توجه هذا السلاح إلى الطعن في مصداقية الرسول ﷺ ، وذلك باللمز والغمز ، قال تعالى : ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ**﴾ (١) .

يقول صاحب الظلال في الآية : من المنافقين من يغمزك بالقول ويعيب في توزيع الصدقات ويدعي أنك تحابي في قسمتها وهم لا يقولون ذلك غضباً للعدل ولا حماسة للحق ولا غيرة على الدين . إنما يقولون لحساب ذواتهم وأطماعهم وحماسة لمنفعتهم وأنانيتهم (٢) .

ثم توجه هذا السلاح إلى التقليل والسخرية من تطوع المؤمنين في الصدقات : ﴿**الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ (٣) .

﴿**الَّذِينَ يَلْمِزُونَ**﴾ أي : يعيبون ويطعنون ﴿**الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ**﴾ فيقولون : مراءون قصدهم الفخر والرياء ، ويلمزون ﴿**الَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ**﴾ فيخرجون ما استطاعوا ، ويقولون : الله غني عن صدقاتهم ﴿**فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ**﴾ فقوبلوا على صنيعهم بأن ﴿**سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ (٤) .

حركة النفاق وواقع المنافقين لم يتعامل معه ﷺ بردود الأفعال الارتجالية ، ولم يكشف للمسلمين أشخاص المنافقين وأسماءهم معللاً ذلك بقوله : (... كي لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه) (٥) ، ولكي يحافظ على وحدة الصف ، ويضيق دائرة الفتنة ، ويخمد نار العداوة .

ما قدمناه في الصفحات الماضية هو ما حكاه القرآن الكريم عن واقع الأعداء ، مشتملاً على واقع المشركين ، وواقع أهل الكتاب من يهود ونصارى ، وواقع المنافقين ، واليوم ما أشبهة الليلة بالبارحة ، فالأعداء هم الأعداء مهما اختلفت شاراتهم ومسمياتهم وأيديولوجياتهم .

إن الواقع المعاصر للقوى المعادية للإسلام ، يتمثل في المثلث الرهيب : اليهودية الصهيونية ، والصليبية الحاقدة ، والشيوعية الماكرة – سابقاً – أو النزعة المادية الإلحادية ، وهي تختلف فيما بينها ، ولكنها متفقة علينا (٦) .

وهؤلاء جميعاً وإن تباينت عقائدهم ، واختلفت مشاربهم ، وتعددت راياتهم ، إلا أن قلوبهم تشابهت في حرب الإسلام ، واتحدت على المكر به والكيد له : ﴿**وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾ (٧) ، ﴿**إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً**﴾ (٨) .

وهكذا يتعاون أعداء الإسلام ويتقاربون ، ويتناسون ما بينهم إذا كان العدو هو الإسلام والمسلمين ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾ (٩) .

---

١ . سورة التوبة ، الآيتان ٥٨ ، ٥٩ . ٢ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٣ / ١٦٦٧ . ٣ . سورة التوبة ، الآيتان ٧٩ .

٤ . تيسير الكريم الرحمن ، السعدي ، ص ٣٥٨ . ٥ . أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً ، رقم ٢٥٨٤ ، ٤ / ١٩٩٩.

٦ . انظر ثقافة الداعية ، القرضاوي ، ص ١٣٠ . ٧ . سورة الأنفال ، آية ٣٠ .

٨ . منهج القرآن في إصلاح المجتمع ، د / محمد السيد يوسف ، ص ١٠٣ ، والآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة الطارق .

٩ . المصدر السابق ، ص ١٠٣ ، والآية ٧٣ من سورة الأنفال .

إن أعدائنا يعرفوننا تماماً ، من قمة رأسنا إلى أخمص قدمنا ، بل نحن مكشوفون لهم حتى النخاع ، فهل عرفنا نحن خصومنا وأعدائنا ؟ أصحاب المشروع الحضاري المخالف لمشروعنا ، وكل الطامعين فينا ، وكل الخائفين منا ، فكثيراً ما يكتب في الغرب عنا ، ويحاك ضدنا ، نجهل كثيراً من عناوينه فضلاً عن جهلنا بمضامينه [١] .

(لذلك لابد من دراسة الأسباب والدوافع وراء كيدهم لنا : الحقد ، الطمع ، الخوف ، الاستعلاء ... الخ ، وسائلهم في حربنا : الحرب السياسية ، الحرب الاقتصادية ، الحرب الفكرية ... وخطورة هذه الحرب الأخيرة وأساليبها وأجهزتها : التبشير والتنصير : مؤسساته وإمكاناته الهائلة ، الاستشراق : أهدافه ووسائله ، وإسهامه في إحياء التراث ، المنصفون والمتحاملون من المستشرقين .

الغزو الثقافي بالطرق الحديثة من : كتب وانترنت ، وفضائيات ، وصحف ومجلات ، وسينما وتمثيل ... الخ .

المؤسسات المشبوهة : الماسونية وما تفرع منها : خطرها وأساليبها الماكرة ، وتعاونها مع المخابرات الدولية والعالمية .

الخصوم من الداخل : العملاء وعبيد الفكر الغربي ، والأحزاب الموالية من ليبرالية ويسارية ، والفرق المنشقة على الإسلام كالبهائية والقاديانية ، والحكام العلمانيون والأنظمة العلمانية ... الخ .) [٢] .

من مطلوبات فقه واقع الأعداء أيضاً ، إدراك أن الجانب العقدي هو أساس حبك المؤامرات والمكائد ضد الإسلام والمسلمين : ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [٣] ، ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [٤] .

وإدراك أن اليهود هم رأس الأفعى ، ووجودهم كجسم سرطاني غريب في فلسطين ، هو سبب النكبات التي تعاني منها أمتنا ، وهم الذين يستخدمون الصليبية والوثنية في حربهم الشاملة ضد الإسلام ، وهم الذين يقيمون الأوضاع ويصنعون الأبطال والزعامات ويشنونها حرباً صهيونية صليبية معلنة على طلائع البعث الإسلامي ، وعلى كل جذر من جذور هذا الدين [٥] .

يقول بن جوريون – أول رئيس وزراء للعدو الصهيوني – : نحن لا نخشى الاشتراكيات ولا الثورات ولا الديمقراطيات في المنطقة ، نحن فقط نخشى الإسلام هذا المارد الذي نام طويلاً وبدأ يتململ من جديد [٦] .

فإذا كان اليهود يخططون دائماً للوصول إلى أهدافهم ، ولا يتحركون بدون خطة أو منهج ، فإن على المسلمين أن يقابلوا التخطيط بالتخطيط ، والتنظيم بالتنظيم ، والعلم بالعلم ؛ لأن التنظيم اليهودي لا يمكن أن يقابل بالفوضى التي يعيشها العالم الإسلامي ، والإيمان المقدس الذي يعتقده اليهود لا يمكن أن يقابل بحالة التحلل العقدي التي يمر بها المسلمون ، والتعاون الذي يبذله اليهود في أنحاء العالم لا يليق أن يقابل بحالة الفرقة والتشتت والتناحر التي يعيشها العالم الإسلامي [٧] .

---

١ . انظر ثقافة الداعية ، القرضاوي ، ص ١٢٠ . ٢ . انظر الثقافة العربية الإسلامية ، القرضاوي ، ص ٨٥ .

٣ . سورة التوبة ، آية ٣٢ . ٤ . سورة البقرة ، آية ١٠٥ . ٥ . انظر في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٢ / ٩٦٢ .

٦ . مخطط تدمير الإسلام ، نبيل عبد الرحمن المحيش ، ص ٧ . ٧ . انظر منهج القرآن في إصلاح المجتمع ، د / محمد السيد يوسف ، ص ١١٦.

من مستلزمات فقه واقع الأعداء كذلك ، الوعي بالمحاولات والأساليب التي ينتهجونها للقضاء على المد الإسلامي ، وإفساد المجتمعات الإسلامية ، يقول الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – : (لقد استخدمت الصهيونية والصليبية في العصر الحديث أضعاف ما استخدمته طوال القرون الماضية ، وهي في هذه الفترة بالذات تعالج إزالة هذا الدين بجملته ، وتحسب أنها تدخل معه في المعركة الأخيرة الفاصلة ، لذلك تستخدم جميع الأساليب التي جربتها في القرون الماضية كلها ، بالإضافة إلى ما استحدثته منها ، جملة واحدة) [١] .

وهذه بعض أساليبهم التي يجب الإلمام بها ، والحذر منها ، ضمن الواقع المعاش :

. تدمير الأسرة ، وخلخلة القيم الاجتماعية والأخلاقية .

. تفكيك وحدة المسلمين وإثارة النعرات القومية والفتن الطائفية بينهم .

. إفساد أجهزة الإعلام .

. تشويه صورة الإسلام في أعين المسلمين وغيرهم .

. جعل التبعية الكاملة للغرب بنظمه وأحكامه وتقاليده .

. محاولة تأخير نهضة المسلمين .

. صرف المسلمين عن دينهم والعمل على إبعاد الإسلام عن مجالات الحياة وقصره على الشعائر التعبدية .

. وقف المد البشري في العالم الإسلامي ، وذلك بالدعوة إلى تحديد النسل .

. القضاء على الحركات الإسلامية الراشدة والمعتدلة التي يرون فيها خطراً على نظامهم ومستقبلهم .

. تكوين الفرق الهدامة التي تبلبل عقائد المسلمين وتشغل فكرهم .

. إفساد نظام الحكم في العالم الإسلامي .

. إفساد مناهج التعليم وتخريب الفكر وتسميم منابع الثقافة.

. استهداف المرأة المسلمة ، ومحاولة فصلها بالكلية عن أحكام الإسلام .

. تدمير الحياة الاقتصادية والتجارية للمجتمع المسلم .

. الحيلولة دون امتلاك المسلمين لوسائل القوة الحربية ، والتسلح العسكري المتطور .

وعند التعامل مع واقع الأعداء ، والتعاطي مع وقائعه ، ينبغي التنبيه على أمرين [٢] :

١ . عدم التهويل أو التهوين من شأن القوى المعادية ومخططاتها ، حتى لا يؤدي ذلك إلى اليأس من مقاومتها أو الاستهانة بها .

٢ . الاستفادة من الصراع القائم بينها بذكاء ، واستغلال الفرص المناسبة لذلك ، كالصراع القديم الذي كان يجري في الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي والغربي – الاتحاد السوفيتي وأمريكا – ، وكالصراع الحديث الذي بدأت بواكيره تظهر بين أمريكا والصين كقوة صاعدة ، وقد كان السلف يقولون : اللهم اشغل الظالمين بالظالمين ، وأخرجنا من بينهم سالمين .

---

١ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٣ / ١٣٧٨ .

٢ . انظر ثقافة الداعية ، د / القرضاوي ، ص ١٢١ .

قبل البدء في وضع هذه المعالم ، ينبغي الإشارة إلى فقه الجهاد ؛ لأنه ضروري في فهم ودراسة فقه واقع الأعداء الحربي ، (والجهاد مصطلح واسع فضفاض ، فهو يعني استفراغ الوسع ، وبذل الجهد في مدافعة الأعداء ، على تعدد الميادين ، واختلاف نوعية الأعداء من صراع مسلح إلى مرابطة على الثغور إلى جهاد بالمال واللسان والقلب ... وكلها ميادين لألوان من الجهاد ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾) (١) ، وقال تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (٢).

ولست تجد نظاماً قديماً أو حديثاً ، دينياً أو دنيوياً عنى بشأن الجهاد والجندية ، واستنفار الأمة ، وحشدها كلها صفاً واحداً للدفاع بكل قواها عن الحق كما تجد ذلك في دين الإسلام وتعاليمه وآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ فياضة بكل هذه المعاني السامية ، داعية بأفصح أسلوب وأوضح عبارة إلى الجهاد والقتال والجندية ، وتقوية وسائل الدفاع بكل أنواعها من برية وبحرية وجوية وغيرها على كل الأحوال والملابسات (٣) .

ومجاهدة أعداء الإسلام تحتاج إلى قوة ، بل تحتاج إلى جميع أنواع القوى على اختلافها وتنوعها ، لذلك اهتم الإسلام كثيراً بالقوة حتى أوصلها إلى درجة الوجوب على الأمة الإسلامية ؛ لأن الجهاد لا يتم إلا بها ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، كما هو منطوق القاعدة الأصولية (٤) .

بعد هذه التوطئة عن الجهاد ، ننتقل إلى الحديث عن معالم من فقه واقع الأعداء في سيرة الرسول ﷺ ، ونركز على الجانب الحربي وعبقريته ﷺ في إدارة الأحداث الجهادية :

في الهجرة إلى المدينة :

١ . الحيطة والحذر ، فعن عائشة ، (جاء رسول الله ﷺ فاستأذن له فدخل ، فقال النبي ﷺ لأبي بكر : أخرج من عندك ، فقال أبوبكر : إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله) (٥) .

٢ . إخفاء أسماء الدعاة وأشخاصهم .

وهو ما فعله أبوبكر بإيحاء من رسول الله ﷺ وهما في طريقهما إلى دار الهجرة ، (فأبوبكر الصديق كان من دأبه أنه كان ردفاً للنبي ﷺ ، وكان شيخاً يعرف ، ونبي الله ﷺ شاب لا يعرف ، فيلقى الرجل أبا بكر فيقول : هذا الرجل يهديني الطريق ، فيحسب الحاسب أنه يعني به الطريق ، وإنما يعني سبيل الخير) (٦) .

---

١ . خصائص المجتمع الإسلامي ، محمد عبد الله الخطيب ، ص ٤٦ ، الآية رقم ٧٣ من سورة التوبة .

٢ . سورة الأنفال ، آية ٦٠ .

٣ . انظر مجموعة الرسائل ، حسن البنا ، ص ٢٦٣ .

٤ . انظر منهج القرآن في إصلاح المجتمع ، د / محمد السيد يوسف ، ص ١٢٦ .

٥ . أخرجه البخاري ، فتح البارئ ، كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه ، رقم ٣٩٠٥ ، ٧ / ٢٨٢ .

٦ . أخرجه البخاري عن أنس بن مالك ، فتح البارئ ، كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه ، رقم ٣٩١١ ، ٧ / ٣٠٧ .

غزوة بدر الكبرى :

١ . رفض المعونة من غير المسلم في ساحة المعركة ، كقوله ﷺ للرجل :(ارجع فلن أستعين بمشرك) [١] ، فلم يستعين به حتى أسلم وترك ما كان عليه من الشرك .

٢ . الرسول ﷺ يقوم بعملية الاستكشاف ، ويستخدم أسلوب التورية .

في هذه الغزوة قام ﷺ بنفسه بعملية الاستكشاف مع رفيقه في الغار أبي بكر الصديق ﷺ ، وبينما هما يتجولان حول معسكر مكة إذ هما بشيخ من العرب ، فسأله رسول الله ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه – سأل عن الجيشين زيادة في التكتم – ولكن الشيخ قال : لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما ؟ فقال له رسول الله ﷺ : إذا أخبرتنا أخبرناك ، قال : أو ذاك بذاك ؟ قال : نعم .

قال الشيخ : فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا – للمكان الذي به جيش المدينة – ، وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا – للمكان الذي به جيش مكة – .

فلما فرغ من خبره ، قال : ممن أنتما ؟ فقال رسول الله ﷺ : نحن من ماء ، ثم انصرف عنه ، وبقي الشيخ يتفوه ما من ماء ؟ أمن ماء العراق ؟ [٢] .

٣ . الأخذ بالقرائن للحصول على أهم المعلومات عن الجيش المكي .

في مساء ذلك اليوم بعث ﷺ استخباراته من جديد ليبحث عن أخبار العدو وقام لهذه العملية ثلاثة من قادة المهاجرين ، علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام [٣] ، وسعد بن أبي وقاص [٤] في نفر من أصحابه ، ذهبوا إلى ماء بدر فوجدوا غلامين يستقيان لجيش مكة ، فألقوا عليهما القبض ، وجاءوا بهما إلى الرسول ﷺ وهو في الصلاة ... ولما فرغ منها خاطب الغلامين قائلاً : أخبراني عن قريش ، قالا : هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى ، فقال لهما : كم القوم ؟ ، قالا : كثير ، قال : ما عدتهم ؟ قالا : لا ندري ، قال : كم ينحرون كل يوم ؟ ، قالا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً ، فقال رسول الله ﷺ : القوم فيما بين التسعمائة إلى الألف ... [٥] .

---

١ . أخرجه أحمد في مسنده عن عائشة ، مسند باقي الأنصار ، رقم ٢٥٠٣٦ ، ١٧ / ٥٢٩ ، قال المحقق : إسناده صحيح ، وقال الشيخ شعيب الأرناءوط : هو على شرط مسلم .

٢ . الرحيق المختوم ، عبد الرحمن المباركفوري ، ص ٢٢٩ ، نقلاً عن سيرة ابن هشام ، ١ / ٦١٦ .

٣ . هو أبو عبد الله الزبير بن العوام ، الصحابي الشجاع ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وهو ابن عمة النبي ﷺ صفية بنت عبد المطلب ، أسلم وله ١٢ سنة ، وشهد بدراً وأحداً وغيرها ، واليرموك والجابية ، قالوا : كان في صدر ابن الزبير أمثال العيون من الطعن والرمي ، قتله ابن جرموز غيلة يوم الجمل سنة ٣٦ هـ ، وله في كتب الحديث ٣٨ حديثاً . انظر الطبقات الكبرى ٣ / ٧٣ ، صفة الصفوة ١ / ١٨٠ ، أسد الغابة ٢ / ٣٠٧ ، الوافي بالوفيات ١٤ / ١٢١ ، شذرات الذهب ١ / ٤٣ ، الأعلام ٣ / ٤٣ .

٤ . هو سعد بن أبي وقاص مالك القرشي الزهري ، الصحابي الأمير ، فاتح العراق ومدائن كسرى ، وأحد الستة الذين عينهم عمر للخلافة ، وأول من رمى بسهم في سبيل الله ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، أسلم وهو ابن ١٧ سنة ، وشهد بدراً وافتتح القادسية ، وفي عهد عمر كان والياً على الكوفة وكذلك زمناً من عهد عثمان ، مات بالمدينة سنة ٥٥ هـ ، وله في كتب الحديث ٢٧١ حديثاً . انظر الطبقات الكبرى ٣ / ١٠١، الوافي بالوفيات ١٥ / ٩٠ ، شذرات الذهب ١ / ٦١ ، الأعلام ٣ / ٨٧ .

٥ . الرحيق المختوم ، عبد الرحمن المباركفوري ، ص ٢٣٠ ، نقلاً عن سيرة ابن هشام ، ١ / ٦١٧ .

غزوة أحد :

الاستخبارات النبوية تكشف حركة العدو :

وكان العباس بن عبد المطلب [١] يرقب حركات قريش واستعداداتها العسكرية ، فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رسالة مستعجلة إلى النبي ﷺ ضمنها جميع تفاصيل الجيش وأسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة ، وجد في السير حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة – التي تبلغ مسافتها نحو خمسمائة كيلومتر– في ثلاثة أيام ، وسلم الرسالة إلى النبي ﷺ وهو في مسجد قباء . قرأ على النبي – ﷺ – أبي بن كعب ، فأمره بالكتمان ، وعاد مسرعاً إلى المدينة ، وتبادل الرأي مع قادة المهاجرين والأنصار [٢] .

في صبيحة حمراء الأسد :

١ . معبد الخزاعي [٣] يخذل أبا سفيان بأمر من رسول الله ﷺ في صبيحة حمراء الأسد بعد أحد .

لحق معبد بن أبي معبد الخزاعي بأبي سفيان ، ولم يكن يعرف أبو سفيان بإسلامه ، فقال : ما وراءك يا معبد ؟ فقال معبد – وقد شن عليه حرب أعصاب عنيفة : محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقاً ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم ، وقد ندموا على ما ضيعوا ، فيهم من الخنق عليكم شيء لم أر مثله قط .

قال أبو سفيان : ويحك ، ما تقول ؟

قال : والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل أو حتى يطلع أول جيش من وراء هذه الأكمة .

فقال أبو سفيان : والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم .

قال : فلا تفعل ، فإني ناصح .

وحينئذ انهارت عزائم الجيش المكي وأخذه الفزع والرعب ، فلم ير العافية إلا في مواصلة الانسحاب والرجوع إلى مكة ، بيد أن أبا سفيان قام بحرب أعصاب دعائية ضد الجيش الإسلامي ، لعله ينجح في كف هذا الجيش عن مواصلة المطاردة ، وبذلك ينجح في تجنب لقائه . فقد مر به ركب من عبد القيس يريد المدينة ، فقال : هل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة ، وأقر لكم راحلتكم هذه زبيب بعكاظ إذا أتيتم إلى مكة ؟

قالوا : نعم .

قال : فأبلغوا محمداً أنا قد أجمعنا الكرة ؛ لنستأصله ، ونستأصل ... فمر الركب برسول الله ﷺ وأصحابه ، وهم

---

١ . هو أبو الفضل العباس بن عبد المطلب بن هاشم ، من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام ، وجد الخلفاء العباسيين ، وهو عم الرسول ﷺ ، وكان محسناً لقومه ، سديد الرأي ، واسع العقل ، مولوعاً باعتقاء الأرقاء ، وكانت له سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ، أسلم قبل الهجرة وكتم إسلامه ، وأقام بمكة يكتب إلى رسول الله ﷺ أخبار المشركين ، ثم هاجر إلى المدينة وشهد وقعة حنين ، فكان ممن ثبت حين انهزم الناس ، وشهد فتح مكة ، وكانت وفاته بالمدينة سنة ٣٢ هـ ، وله في كتب الحديث ٣٥ حديثاً . انظر الطبقات الكبرى ٤ / ٣ ، صفة الصفوة ١ / ٢٦٢ ، أسد الغابة ٣ / ١٦٣ ، الوافي بالوفيات ١٦ / ٣٦٠ ، شذرات الذهب ١ / ٣٧ ، الأعلام ٣ / ٢٦٢ .

٢ . الرحيق المختوم ، عبد الرحمن المباركفوري ، ص ٢٦٥ ، نقلاً عن المغازي للواقدي ، ١ / ٢٠٤ .

٣ . هو معبد بن أبي معبد الخزاعي ، قال ابن الأثير في أسد الغابة : هو الذي رد أبا سفيان يوم أحد عن الرجوع إلى المدينة. وقال ابن حجر العسقلاني في الإصابة : ومعبد هذا غير ولد أم معبد ، فإن في السيرة – سيرة ابن إسحاق– إن معبداً الخزاعي هو الذي ثبط أبا سفيان عن الرجوع إلى أحد ليستأصل المسلمين بزعمه،وأنشد له في ذلك شعراً،فإن معبداً بن أم معبد يصغر عن ذلك . انظر أسد الغابة في معرفةالصحابة،ترجمة رقم ٤٩٩٩، ٢٠٩/٥،الإصابة في تمييز الصحابة،ترجمة رقم ٨١١٢ ، ١٦٩/٦. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، ٤٤٩/١ المكتبةالشاملة .

بحمراء الأسد ، فأخبرهم بالذي قال له أبو سفيان ، وقالوا ما حكاه القرآن : ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ (١)

٢ . الرسول ﷺ يحكم بالإعدام على رجلين ، بعد رجوعه إلى المدينة (٢) .

أبوعزة الحجمي ، وهو الذي قد منّ عليه من أسارى بدر ؛ لفقره وكثرة بناته ، على ألا يظاهر عليه أحداً ، ولكنه نكث وغدر فحرض الناس بشعره على النبي ﷺ والمسلمين ، وخرج لمقاتلتهم في أحد ، فلما أخذه رسول الله ﷺ قال : يا محمد أقلني ، وامنن علي ، دعني لبناتي ، وأعطيك عهداً ألا أعود لمثل ما فعلت ، فقال ﷺ : لا تمسح عارضيك بمكة بعدها ، وتقول : خدعت محمداً مرتين ، لا يلدغ المؤمن من حجر مرتين ، ثم أمر الزبير أو عاصم بن ثابت فضرب عنقه .

كما حكم بالإعدام في جاسوس من جواسيس مكة ، وهو معاوية بن المغيرة بن أبي العاص جد عبد الملك بن مروان(٣) لأمه ؛ وذلك أنه لما رجع المشركون يوم أحد جاء معاوية هذا إلى ابن عمه عثمان بن عفان رضي الله عنه فاستأمن له عثمان رسول الله ﷺ ، فأمنه على أنه إن وجد بعد ثلاث قتله . فلما خلت المدينة من الجيش الإسلامي أقام فيها أكثر من ثلاث يتجسس لحساب قريش ، فلما رجع الجيش خرج معاوية هارباً ، فأمر رسول الله ﷺ زيد بن حارثة (٤) ، وعمار بن ياسر (٥) ، فتعقباه حتى قتلاه .

---

١ . انظر السيرة النبوية لابن هشام ، ٢ / ١٠٢ ، والآيتان ١٧٣ ، ١٧٤ من سورة آل عمران .

٢ . انظر السيرة النبوية ، ابن هشام ، ٢ / ١٠٤ .

٣ . هو عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي ، من أعاظم الخلفاء ودهاتهم ، نشأ في المدينة فقهياً واسع العلم ، متعبداً ناسكاً ، واستعمله على المدينة وهو ابن ١٦ سنة ، وانتقلت إليه الخلافة بموت أبيه سنة ٦٥ هـ ، فضبط أمورها وظهر بمظهر القوة ، واجتمعت عليه كلمة المسلمين بعد مقتل مصعب وعبد الله ابني الزبير في حربهما مع الحجاج الثقفي ، ونقلت في أغلب أيامه الدواوين من الفارسية والرومية إلى العربية ، وضبطت الحروف بالنقط والحركات ، وهو أول من صك الدنانير في الإسلام وكان عمر بن الخطاب صك الدراهم ، وهو أول من نقش بالعربية على الدراهم .
ومات سنة ٨٦ هـ . انظر تاريخ بغداد ١٠ / ٣٨٧ ، الوافي بالوفيات ١٩ / ٣٩ ، شذرات الذهب ١ / ٩٧ ، الأعلام ٤ / ١٦٥ .

٤ . هو زيد بن حارثة بن شراحبيل الكلبي، حب رسول الله ، صحابي جليل ، اختطف في الجاهلية صغيراً ، واشترته خديجة بنت خويلد فوهبته إلى النبي ﷺ حين تزوجها فتبناه النبي ﷺ قبل الإسلام وأعتقه وزوجه بنت عمته ، واستمر الناس يسمونه زيد بن محمد ، حتى نزلت آية (ادعوهم لآبائهم) ، وهو من أقدم الصحابة إسلاماً ، وكان يحبه ﷺ ويأمّره على السرايا ، وجعل له الإمارة في غزوة مؤتة فاستشهد فيها سنة ٨ هـ . انظر الطبقات الكبرى ٣ / ٢٩، صفة الصفوة ١ / ١٩٩ ، الوافي بالوفيات ١٥ / ١٧ ، أسد الغابة ٢ / ٣٥٠ ، شذرات الذهب ١ / ١١ ، الأعلام ٣ / ٥٧ .

٥ . هو أبو اليقظان عمار بن ياسر الكناني العنسي القحطاني ، صحابي من الولاة الشجعان ذوي الرأي ، وهو أحد السابقين إلى الإسلام والجهر به . هاجر إلى المدينة وشهد بدراً وأحداً والخندق وبيعة الرضوان ، وولاه عمر الكوفة ثم عزله . وشهد الجمل وصفين مع علي رضي الله عنه وقتل في الثانية سنة ٣٧ هـ ، وله ٦٢ حديثاً . انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ١٨٦ ، صفة الصفوة لابن الجوزي ١ / ٢٣٠ ، الوافي بالوفيات للصفدي ٢٢ / ٢٣٢ ، أسد الغابة لابن الأثير ٤ / ١٢٢ ، شذرات الذهب لابن عماد الحنبلي ١ / ٤٥ ، الأعلام للزركلي ٥ / ٣٦ .

غزوة الأحزاب :

التعرف على أحوال العدو ، والحذر من المنافقين :

بيّن الله تعالى لرسوله ﷺ أحوال المنافقين في غزوة الأحزاب ، لكي يحذرهم ويتفطن لغدرهم ، قال عز وجل : ﴿**وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً**﴾ (١) .

وفي التعرف على أحوال العدو ، قال رسول الله ﷺ لأصحابه : (من يأتيني بخبر القوم ؟ قال الزبير : أنا ثم قال : من يأتيني بخبر القوم قال الزبير : أنا ، فقال ﷺ : إن لكل نبي حوارياً وحواري الزبير) (٢) .

وأرسل رسول الله – ﷺ – في تلك الليلة الباردة القاسية حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم ، فوجدهم وقد عصفتهم الريح وشتتت جمعهم ، وقد تهيأوا للرحيل ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره برحيل القوم ، فأصبح رسول الله ﷺ وقد رد الله عدوه بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفاه قتالهم ، فصدق وعده ، وأعز جنده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، فرجع إلى المدينة (٣) .

صلح الحديبية (٤) :

بإبرامه ﷺ لهذا الصلح ، فوّت مقاصد خصوم الدعوة ، ولم يلتفت إلى التحرشات والاستفزازات التي قام بها بعضهم من أجل نقض الصلح ، ولكن الرسول ﷺ عفا وأمضى الصلح ، ولم يدم طويلاً حتى تم نقضه من قبل قبيلة خزاعة حليفة قريش ، الأمر الذي ترتب عليه فتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجاً .

غزوة خيبر :

وفيها أبقي الرسول ﷺ يهود خيبر في أرضهم يزرعونها ويعتنون بها ، ليوضح أن العلاقة مع الآخر أساسها التعاون والتبادل ، لا العداء والتنافر .

حكى أصحاب السير أن رسول الله ﷺ أراد أن يجلي اليهود من خيبر ، فقالوا : يا محمد دعنا نكون في هذه الأرض

---

١ . سورة الأحزاب ، الآيات ١٢ – ١٩ .

٢ . أخرجه البخاري عن المنكدر عن جابر ، كتاب الجهاد والسير ، باب فضل الطليعة ، رقم ٢٨٤٦ ، ٦ / ٦٥ .

٣ . الرحيق المختوم ، عبد الرحمن المباركفوري ، ص ٣٢٥ ، نقلاً عن السيرة النبوية لابن هشام ، ٢ / ٢٣١ .

٤ . بنود هذا الصلح : أن تضع الحرب أوزارها لمدة ١٠ سنين ، ومن أراد الدخول في حلف محمد دخل ومن أراد الدخول في حلف قريش دخل ، ومن أتى من محمد لقريش فلا يرجع له ، ومن أتى من قريش لمحمد يرجعه إليها ، ويرجع المسلمون في عامهم هذا وإذا كان العام المقبل دخلوها فأقاموا فيها ثلاثاً معهم سلاح الراكب والسيوف في القرب ولا يتعرض لهم أحد .

نصلحها ونقوم عليها ، فنحن أعلم بها منكم ، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها ، وكانوا لا يفرغون حتى يقوموا عليها ، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع ، ومن كل ثمر ... [١] .

فتح مكة :

استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان .

من معالم فقه الواقع الحربي في هذه الغزوة ، المبالغة في السرية والتحوطات الأمنية التي فعلها ﷺ أثناء تجهيزه لهذا الفتح ، فقد قال لعائشة – رضي الله عنها – : (جهزيني ولا تعلمي بذلك أحداً ...) [٢] .

حتى أن أبا بكر – الوزير الأول – ما يدري لأي مكان الاتجاه ، ويسأل ابنته عائشة عن الأمر : فأين ترينه يريد ؟ قالت : لا والله ما أدري ، ثم يوضح الهدف بعد ذلك بإعلام الناس بالتهيؤ إلى مكة ، مع المحافظة على سرية التحرك : (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها) [٣] .

(ولم يند عن هذه السرية إلا حاطب بن أبي بلتعة – رضي الله عنه – ، وكانت زلة ضخمة دفعه لها حرصه على ولده وأهله ، ومثل هذا المستوى مرفوض من حاطب البدري ، وهو من الثقة لدى رسول الله ﷺ أن كان بمهمة ضخمة بعد الحديبية إلى المقوقس ، وقام بدور إيجابي ضخم في شرح رسالة الإسلام ، ومع ذلك كانت هذه السقطة منه ، ورأى عمر رضي الله عنه فيها أنها نفاق – خيانة عظمى – يستحق صاحبها القتل ، غير أن الماضي العظيم لحاطب شفع له عند رسول الله ﷺ حيث أجاب : " لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم " ، ولا شك أن خطيئة القدوة ضخمة في صفوف العامة ، ومثل حاطب رضي الله عنه في موطن القدوة ، غير أن رسول الله ﷺ لا يستغني عن أحد من أصحابه ، ويكفي ما جاء من المحاكمة العلنية أمام الناس ، والقرآن الكريم الذي جاء بإدانته على هذا التصرف ، قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ** ﴾ [٤] .

وتأتي خطورة القضية في أنها تمت دون علم القيادة ، ودوافعها مصلحة الأهل والولد) [٥] .

---

١ . انظر الرحيق المختوم ، عبد الرحمن المباركفوري ، ص ٣٨١ ، نقلاً عن سيرة ابن هشام ، ٢ / ٣٥٤ .

٢ . نقله ابن حجر العسقلاني عن مرسل أبي سلمة عن ابن أبي شيبة ، فتح البارئ ، كتاب المغازي ، باب غزوة الفتح ، ٧ / ٦٤٣ ، وإتمامه : فدخل عليها أبوبكر فأنكر بعض شأنها ، فقال : ما هذا ؟ فقالت له ، فقال : والله ما انقضت الهدنة بيننا ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فذكر له أنهم أول من غدر ، ثم أمر بالطرق فحبست فعمى على أهل مكة لا يأتيهم خبر .

٣ . انظر المنهج الحركي للسيرة النبوية ، د / منير الغضبان ، ص ٤٤٠ ، وعن الحديث قال الألباني : ضعيف رواه ابن إسحاق بدون إسناد كما في سيرة ابن هشام . انظر فقه السيرة ، محمد الغزالي ، ص ٣٢٣ .

٤ . سورة الممتحنة ، آية ١ .

٥ . انظر المنهج الحركي للسيرة النبوية ، د / منير الغضبان ، ص ٤٤١ . وتفاصيل القصة في فتح البارئ ، كتاب المغازي ، باب غزوة الفتح ، ٧ / ٦٤٣ .